**ميشيل أونفري**

# كتاب

# نفي اللاهوت



ترجمة: مبارك العروسي

منشورات الجمل

ميشيل أونفري

# كتاب نفي اللاهوت

## فيزياء الميتافيزيقا

ترجمة: مُبارك العروسي

منشورات الجمل

ميشيل أونفري، كتاب نفي اللاهوت، فيزياء الميتافيزيقا
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ ٢٠١٢

Michel Onfray: Traité d'athéologie
© Editions Grasset et Fasquelle, 2005

© *Al-Kamel Verlag* 2012
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«إن مفهوم «الإله» قد تم ابتداعه كنقيض للحياة ـ ففيه يتلخص ضمن وحدة مرعبة كل ما هو مسيء ومسموم ومفترٍ وكل كره للحياة. وأما مفهوم «العالم الآخر» و«العالم الحق» فلم يتم ابتكاره إلا من أجل التقليل من قيمة العالم الوحيد الذي يوجد حقا ـ وذلك حتى لا يبقى لواقعنا الأرضي أي هدف ولا أي معنى ولا أية مهمة! أما مفهوم «الروح» و«النفس» وبنهاية الأمر مفهوم «الروح الخالدة» فلم يبتدع إلا من أجل احتقار الجسد وجعله مريضا ـ أي مقدسا ـ ومن أجل حمل أفظع لامبالاة تجاه كل ما يستحق الجد في الحياة ـ من مسائل الطعام والسكن والنظام الفكري والرعاية التي يجب منحها للمرضى والنظافة والجو القائم. فبدلا عن الصحة يتم تقديم «خلاص الروح» ـ وأعني بذلك «حمقا دائريا» يبدأ من تشنجات التوبة والندامة وينتهي بهيستيريا التكفير! كما أن مفهوم المعصية بالتزامن قد ابتدع مع أداة التعذيب التي تكملها: أي مفهوم حرية الإرادة الإنسانية؛ وذلك بهدف التشويش على الغرائز وبناء الحذر منها كطبيعة ثانية»

(نيتشه Ecce Homo هو ذا الإنسان؛ لماذا أعتبر قدرا)



# تمهيد

## [١]

### ذاكرة الصحراء

بعد بضع ساعات على طريق غير معبدة في الصحراء الموريتانية، كانت رؤية شيخ راع أحرقت الشمس وجهه وبرفقته جملاه وزوجته وحماته وبنته وولداه فوق الحمير والجمع محمل بكل ما يشكل ضرورة البقاء وبالتالي ضرورة للحياة، قد أعطتني انطباعا بلقاء أحد معاصري الرسول محمد. كانت السماء بيضاء وحارقة والأشجار مكلسة ونادرة وأكوام الشوك تدحرجها الرياح الرملية فوق امتدادات رمال برتقالية لا تنتهي. نقلني المشهد إلى الأجواء الجغرافية ـ وبالتالي العقلية ـ للقرآن كما أدخلني في عصور القوافل المتجاوَزَة وعصور خيام الرحل وقبائل الصحراء وعصور المواجهات بينها.

رحل بي التفكير إلى أراضي إسرائيل في يهودا والسامرة وفي أورشليم وبيت لحم وفي الناصرة وفي بحيرة طبرية؛ وذهب بي التفكير إلى كل تلك الأمكنة حيث الشمس تحرق الرؤوس وتجفف الأبدان وتعطش الأرواح وتولد الرغبة بالواحات واشتهاء الجنان حيث يسيل الماء البارد الصافي بكثرة وحيث الجو لطيف ومعطر ومداعب وحيث الطعام والشراب وفيران. فبدت لي هذه العوالم

الخلفية، فجأة، عوالم موازية ابتكرها أناس تعبوا وأنهكوا وجفوا بفعل رحلاتهم المتكررة فوق التلال وعلى الطرقات الكثيرة الحصى والشديدة الإحماء. إن العقيدة التوحيدية تخرج من بين الرمال.

خلال ليل «بلدة وادان»، شرق شنقيط، إلى حيث قدمت من أجل زيارة الخزانات الإسلامية المدفونة بين رمال التلال التي تبتلع قرى بكاملها بهدوء لكن بتصميم، كان سائقنا عبد الرحمن يطلق سجاد الصلاة فوق التراب إلى الخارج بباحة الدار حيث نقيم. وكنت أنا في غرفة صغيرة فوق فراش بسيط جدا. كانت السماء الزرقاء الرمادية تلتمع على بشرته السوداء بينما يصقل البدر المكتمل الألوان، فكان جسمه يبدو بنفسجيا. كان عبد الرحمن ينحني في هدوء، ويجثو، وينزل برأسه نحو الأرض، كما لو أنه يستلهم حركات العالم ويتبع الإيقاعات التاريخية للكوكب: إنه يصلي؛ وكانت أنوار النجوم الميتة تصلنا وسط حرارة الصحراء الليلية. انتابني إحساس بأني أشهد منظرا بدائيا متفرجا على إيماءة قد تكون معاصرة لأول انفعال مقدس للبشر. وسألت عبد الرحمن عن الإسلام خلال مسيرنا غداة ذلك اليوم، فكان وهو مندهش من اهتمام غربي أبيض بالإسلام يطعن في كل إحالة على الكتاب المقدس كلما طرحتها. لقد كنت قد انتهيت من قراءة القرآن والقلم في يدي وكنت ما أزال أحفظ حرفيا بعض الآيات؛ لكن إيمان الرجل لم يكن يحتمل الإحالة على الكتاب المقدس لمناقشة سلامة أسس بعض الأطروحات الإسلامية. كان الإسلام بالنسبة إليه جيدا ومتسامحا وكريما ومسالما. وأما الجهاد؟ والجهاد الموصى به ضد الكفار؟ والفتاوى الصادرة ضد كاتب بعينه؟ والإرهاب الحديث؟ كان ذلك بالنسبة له من فعل المجانين بالتأكيد؛ أما المسلمون فأكيد لا....

وكلما استخرجت الآيات التي تواجه فكرته، لم يكن يحب أن يرى غير المسلم يقرأ القرآن ويحيل على هذه السورة أو تلك ليقول له إنه محق، وإن هناك نفس القدر من النصوص في الكتاب ذاته تُعطي الحق للمقاتل المسلح صاحب عصابة الرأس الخضراء الخاصة بالمضحين من أجل القضية، ولإرهاب عضو من حزب الله المدرع بالمتفجرات، وللخميني وهو يحكم بالموت على سلمان رشدي وللانتحاريين وهم يهوون بالطائرات المدنية على أبراج مانهاتن، ولأقران بن لادن وهم يقطعون رؤوس الرهائن من المدنيين... كنت أقترب من ملامسة القذف بحق المقدسات... فعدنا للصمت متأملين المشاهد التي أتلفتها نيران الشمس الحارقة..

[٢]

### ابن آوى وجودي:

وعدت بعد ساعات من الصمت ـ ضمن نفس مشهد صحراء لا تتغير ـ إلى القرآن وإلى موضوع الجنة بالخصوص. هل يؤمن عبد الرحمن بهذه الجغرافيا الغرائبية في تفاصيلها أم يرى فيها تعبيرا رمزيا؟ أنهار اللبن والخمور والحور العين والأرائك وفرش الحرير والديباج والأنغام السماوية والجنان العجيبة؟ يوضح الرجل فعلا: أن *الأمر كذلك*... وجهنم؟ *كذلك الأمر هي كما توصف*... وعنه هو ذاته الذي لا يعيش بعيدا عن القداسة ـ لطيفا ورقيقا وكريما ومؤثرا وديعا وهادئا في سلام مع نفسه وبالتالي مع الآخرين ومع العالم ـ هل سيعرف يوما إذن تلك الملذات؟ *أرجو ذلك*... تمنيتها له بصدق وأنا أحتفظ في داخلي يقينا أنه يخدع نفسه ويُخدع وأنه للأسف لن يعرف أيا من ذلك أبدا...

وضح لي بعد وقت من الصمت أنه قبل أن يدخل الجنة عليه أن يمر

بالحساب وأن حياة التقوى ربما لن تكفر له ذنبا من شأنه أن يكلفه هناء حياة الخلد. . . أجريمة هي؟ أقتل نفس؟ أذنب قاتل هو، كما يسميه المسيحيون؟ أجل أمر من قبيل ذلك: يتعلق الأمر بابن أوى سحقه يوما تحت عجلات سيارته. . . كان «عبدو» يسير بسرعة فائقة ولم يحترم تحديدات السرعة على طرقات الصحراء ـ حيث لا تصادف سيارة إلا على مدى عشرة كيلومترات ـ فلم يلمح شيئا قبل أن يبرز الحيوان في الظلمة ليحتضر بعد لحظتين تحت إطار عربته.

فلو كان احترم قانون السير لما اقترف هذا المساس بالمحرمات: قتل حيوان دون ضرورة المعيشة. ثم إن القرآن لم يقل بشيء من قبيل ذلك ـ حسب ما يبدو لي. . . إذ لا يمكننا أن نكون مسؤولين عن كل ما يقع! لكن «عبد الرحمن» يؤمن أننا مسؤولون عن كل شيء: إن الله يتجلى في التفاصيل وفي هذه القصة تأكيد لوجوب الخضوع للقانون وللقواعد وللنظام لأن كل خرق مهما صغر يقرب المرء من الجحيم، إن لم يكن يقوده إليه مباشرة. . .

لازم ابن أوى هذا ليالي عبد الرحمن طويلا وحرمه من النوم أكثر من مرة، فقد كان يتردد عليه في الحلم وهو يمنعه من دخول الجنة. وحين كان يتحدث عنه كان الانفعال يعاوده. أما أبوه ـ ذلك الرجل ذو الوجه الثمانيني والجندي السابق خلال الحرب العالمية الأولى ـ فقد زايد قائلا: بالطبع إنه لم يحترم القانون وبالتالي يفترض أن يسأل عن الأمر بعد موته. وبانتظار ذلك اليوم، يحاول «عبد الرحمن» في أدق تفاصيل حياته أن يكفر عمَّا يمكنه التكفير عنه. فابن آوى ينتظره على أبواب الجنة. لم أكن لأبخل بأي شيء لكي يتخلى هذا الشاب عن ذلك ويحرر الروح من ذاك الإنسان المستقيم النزيه. .

أما أن يكون هذا المغتبط الطامح للجنة يتقاسم نفس الدين مع ربابنة الحادي

عشر من سبتمبر فيبدو أمرا غريبا! فالأول يحمل ثقل ابن آوى قتل مصادفة بينما ينعم الآخرون بكونهم أبادوا أكبر عدد من الأبرياء؛ والأول يعتقد أن الجنة ستكون صعبة المنال لأنه أحال حيوانا شريرا إلى جيفة في حين يخال الآخرون أن الغبطة ستكون من نصيبهم لأنهم أحالوا إلى غبار حياة آلاف الأفراد من بينهم مسلمون. . . ومع ذلك نجد أن كتابا مقدسا واحدا يؤيد هذين الإنسانين اللذين يعيشان كلاهما على النقيض من الإنسانية: بينما يقترب الأول من القداسة يجسد الآخرون البربرية.

[٣]

## بطاقات بريد صوفية

أكاد أكون قد رأيت الله دائما في حياتي: رأيته هناك في تلك الصحراء الموريتانية تحت القمر الذي يعيد صبغ الليل بألوان بنفسجية وزرقاء؛ ورأيته في المساجد الباردة ببنغازي وطرابلس في ليبيا خلال رحلتي السياحية باتجاه «سيرين» بلاد أريستيب؛ ورأيته ليس بعيدا عن «بور لويس» بجزيرة «موريشيوس» في محراب خصص للإله «غامش» الملون بقرن فيل؛ ورأيته في كنيس بحي اليهود بمدينة فينسيا وأنا أضع قلنسوة يهود على الرأس؛ وفي محل النشيد الديني بالكنائس الأرثوذكسية بموسكو حيث تجد نعشا مفتوحا عند مدخل دير «نوفودفيتشي» بينما يصلي بالداخل الأسرة والأصدقاء والكهنة الأرثوذكس ذوو الأصوات العجيبة والذين يغطيهم الذهب وتحيط بهم هالة من البخور؛ ورأيته في اشبيلية أمام «المكارينا» بحضور نسوة دامعات ورجال بوجوه منتشية الروح؛ أو حتى في نابولي في كنيسة سان جانفيي حيث إله المدينة المشيدة على قدم جبل حيث يزعم أن دمه يسيل في تواريخ مضبوطة؛ ورأيته في باليرمو في دير الكابوشان من خلال استعراض الثمانية آلاف هيكل

عظمي للمسيحيين المرتدين أجمل ثيابهم؛ ورأيته في «تبيليسي» بجورجيا حيث تتم دعوة المارين لاقتسام لحم خروف مدمى تطهى تحت أشجار ربط بها المؤمنون مناديلهم النذرية الصغيرة؛ ورأيته في ساحة السان بيير في يوم أهملت خلاله اليومية: كنت جئت لأشهد احتفال «السكستين» ثانية وكان يوم أحد عيد الصفح، بينما يقرأ يوحنا بولس الثاني بحرص خطاب المعتوهين من خلال مكبر صوت وهو يبرز تاجه الأسقفي المنهار على شاشة كبيرة.

رأيت الله في أمكنة أخرى أيضا وبأشكال أخرى: رأيته في مياه القطب الشمالي المتجمدة عند ارتفاع سمكة سلمون يصطادها ساحر قبيلة وتتم إعادتها بعد أن أرهلها شباك الصيد داخل نظام الكون المتناسق من حيث تم اقتلاعها وفق الطقوس؛ ورأيته في خلفية مطبخ بهافانا بين أرنب مصلوب ومدخن وأحجار رعد ومحارات مع راهب احتفال قداسي؛ ورأيته في هايتي داخل معبد للفودو غابر في البراري بين أحواض ملطخة بسوائل حمراء وسط الروائح الحادة لأعشاب وخلطات النبات وتحيط به رسوم أنجزت على المعبد باسم آلهة «اللوا» عند الفودو؛ ورأيته في أذربدجان بالقرب من باكو في سوراخاني داخل معبد مجوسي لعبدة النار؛ أو حتى في كيوطو داخل حدائق الزن التي تعتبر أروع تمارين للاهوت السلبي.

رأيت أيضا آلهة ميتة وآلهة متحجرة وآلهة خارج الزمن؛ رأيت في «لآسكو» إلها صعقته رسوم الكهف ـ بطن العالم ذلك حيث تترنح الروح تحت سرير الزمن اللامتناهي؛ ورأيتها في الأقصر داخل تلك الغرف الملكية الموجودة التي توجد على عشرات الأمتار تحت الأرض رجالا برؤوس كلاب، وجعرانا وقططا ملغزة يقظة؛ وفي روما داخل معبد الإله ميترا حيث تلك الطائفة التي كان بإمكانها أن تغير وجه العالم لو تيسر لها قسطنطينها؛ كما رأيتهم في أثينا

وأنا اصعد درج قلعتها متوجها صوب مدفن العظماء وبالي ممتلئ بذلك المكان الذي التقى أسفله سقراط بأفلاطون. . .

لم أحتقر في أي مكان من هذه الأمكنة من يؤمن بالأرواح وبالروح الخالدة وبنَفَس الإله وبحضور الملائكة وبأثر الصلوات وبجدوى الطقوس وبصواب أسس الرقية والسحر وبالاتصال بآلهة «اللوا» ـ عند الفودو ـ وبمعجزات دم المسيح ودموع العذراء مريم وببعث رجل مصلوب وبفضائل صدف الغوري وبالقوى السحرية وبقيمة الأضحية الحيوانية وبالأثر الخارق لملح البارود المصري وبطواحن الصلوات؛ لكنني استنتجت في كل مكان كم ينسج الناس من روايات الخيال لكي يتجنبوا رؤية العالم وجها لوجه. إن خلق العوالم الخلقية لم تكن لتكون فظيعة لولا أن ثمنها عظيم: نسيان الواقع، وبالتالي إهمال مذنب للعالم الوحيد الموجود. عندما يتخاصم الإيمان مع قانون الأسباب الملازمة، أي مع الذات، تتصالح الفكرة الإلحادية مع الأرض، ذلك الاسم الآخر للحياة.



# تقديم

## [١]

### رفقة السيدة بوفاري[١]

يعتقد الكثير أن الحياة بدون مثالية حالمة ستكون مرعبة. فعندما يأخذ الناس أنفسهم بغير ما هم عليه حقيقة، وعندما يتخيلون ذواتهم في هيئة تختلف عن هيئة الواقع، فإنهم فعلا يتجنبون بذلك ما هو مأساوي، لكنهم يجانبون ذواتهم. إنني لا أحمل أي احتقار للمؤمنين ولا أجدهم مثار سخرية أو مبعث شفقة، ولكن يصيبني اليأس أن أراهم يفضلون تخييلات الأطفال المهدئة على يقينيات الراشدين القاسية. إنهم يفضلون الإيمان المسكّن على العقل الذي يشغل البال ـ حتى لو كان ثمن ذلك طفولية ذهنية: تلك إذن عملية مراوغة ميتافيزيقية ثمنها ضخم وهائل.

وبذلك فأنا أشعر بما يصعد دائما من أعماق أعماقي كلما شهدتُ عملية استلاب فكري بيِّن: أحس بتعاطف تجاه الشخص المخدوع يصاحبه غضب ضد أولئك الذين يخدعون الناس باستمرار. فلا أحمل حقدا تجاه الإنسان

(١) بطلة رواية فلوبير الشهيرة «السيدة بوفاري». تذكر هذه السيدة دائما باعتبارها رمزا للفكر الحالم والمفرط في المثالية وتشبه في ذلك بشخصية الدون كيشوط في رواية سيرفانطيس الشهيرة. (المترجم).

الساجد هناك، ولكني أحمل بالمقابل إيمانا راسخا بأن لا أسالم أبدا من يدعونهم إلى هذه الوضعية المهينة ومن يجعلونهم يستمرون فيها. فمن يستطيع احتقارا الضحايا؟ وكيف العدول عن محاربة جلاديهم؟

إن البؤس الروحي يولِّد التخلي عن الذات والتضحية بالنفس؛ إنه يساوي البؤس الجنسي والعقلي والسياسي والفكري وما عداه من بؤس آخر؛ غريب كيف أن مشهد حمق واستلاب الجار يستثير ابتسام سخرية من يغفل عن رؤية حمقه واستلابه هو. إن المسيحي الذي يأكل السمك يوم الجمعة يبتسم من رؤية المسلم يرفض أكل لحم الخنزير، ويستهزئ من اليهودي وهو يرد القشريات... وينظر المتعبد اليهودي الذي يهزهز أمام حائط المبكى باندهاش للمسيحي الجاثي قبالة مركع ـ صلاته، في الوقت الذي يطرح المسلم سجاده صوب مكة. ومع ذلك فلا أحد بينهم يستنتج أن القشة في نظر الجار تساوي العارضة في نظره هو؛ وأن الروح النقدية الدقيقة المرحب بها دائما كلما تعلق الأمر بالغير ستنتصر كثيرا لو امتدت لتطبق على السنن الذاتية.

إن ميل الناس إلى السذاجة والتصديق يفوق كل تصور، وإن رغبتهم بعدم النظر لما هو بديهي وتطلعهم لرؤية عالم أكثر بهجة، حتى لو كان هذا العالم من جنس الخيال المطلق، وكذا استعدادهم لعدم التبصر، لا تعرف حدودا. إنهم يفضلون الخرافات والخيالات والأساطير والحكايات الجديرة بالأطفال بدل رفع اللثام عن حقيقة العالم القاسية التي تجبر المرء على تحمل بديهية مأساوية العالم. ولكي يحتال الإنسان البدائي المتطور (homo sapiens) على الموت يقوم بصرفها، ولكي يتجنب حل مشكل يلغيه. فحتمية الموت لا تعني غير البشر الفانين؛ أما المؤمن الساذج الأبله فيعلم أنه خالد وأنه سوف يبقى بعد القيامة الكونية...

[٢]

## الاستغلاليون المترصدون

إنني لا أكن الضغينة لمن يستهلكون الوسائل والحيل الميتافيزيقية ليستمروا في الحياة؛ ولكن من ينظمون تجارة هذه الوسائل ـ ويتداوون بها عارضين ـ فهم يتخندقون جذريا وبصفة نهائية في الجبهة المقابلة بالنسبة لي ويوجدون على الجهة الأخرى من المتراس الوجودي ـ أي ذلك المنحدر صاحب المثال الزاهد. إن تجارة العوالم الخلفية تؤَمِّن من ينعشها لأنه يجد لنفسه مادة تعزز حاجته إلى الغوث الذهني. وكما هو الشأن غالبا بالنسبة للمحلل النفساني الذي يعالج الغير لكي يتجنب الوقوف والتساؤل طويلا على علله الخاصة، يفرض القس وكيل الآلهة السماوية التوحيدية عالمه حتى يهتدي للدين بثبات أكبر يوما بعد يوم. إنه منهج «كويي» في ضبط النفس من خلال الإيحاء الذاتي الواعي..

إن إخفاء المرء لبؤسه الروحي الخاص من خلال الزيادة من حدة بؤس الغير، وتجنب مشهد بؤسه الروحي الخاص من خلال مسرحة بؤس العالم ـ عند بوسييه، ذلك المبشر الرمز! ـ تمثل ما يكفي من الحيل والمواربات التي يجب استنكارها. سيُعذر المؤمن مرة أخرى، لكن أن يعذر من يدعي كونه راعيه فهذا كثير. مادام الدين مسألة بين المرء وذاته، فإنه يبقى في نهاية المطاف مسألة عصاب وذهان وغير ذلك من الأمور الشخصية. للمرء الحق في الرذائل التي يمكنه بلوغها ما دامت لا تهدد حياة الغير أو تضعها موضع الخطر...

إن فكرتي الإلحادية تنشط عندما يصير الإيمان الخاص مسألة عمومية، وحينما يتم باسم مرض عقلي شخصي تنظيم العالم للآخرين وفقا لذلك. ذلك أنه بدءاً بالقلق الوجودي الخاص وانتهاء بإدارة جسد الآخرين وروحهم يوجد

عالم ينشط داخله ـ وهم مترصدون ـ أولئك المنتفعون من هذا البؤس الروحي والذهني. إن إعادة توجيه هؤلاء لنزعة الموت التي تخدمهم صوب العالم بأكمله لا يُنقذ القلِق المعذب من عذابه ولا يغير شيئا من بؤسه، لكنه ينشر العدوى بين الناس. ويتم من خلال محاولة تجنب السلبية نشرها في المحيط، ليصير الأمر إلى توليد وباء ذهني.

تنتعش تخييلات موسى والقديس بولس وقسطنطين ومحمد، باسم ياهوا والرب وعيسى والله؛ تلك التخييلات المفيدة التي تكتسحهم وتجهدهم وتقض مضاجعهم. وهم برميهم لحلكتهم على العالم يعتمونه أكثر دون أن يبرئوا من قلق أو كرب. إن السلطان المرضي لنزعة الموت لا يعالج من خلال انتشار فوضوي وسحري، ولكن من خلال اشتغال فلسفي على الذات. إن استبطانا ذاتيا جيدا يقود إلى بناء مسافة عن الأحلام والهذيان التي تتغذى عليها الآلهة. إن فكرة الإلحاد ليست علم مداواة، بل هي صحة ذهنية وعقلية مستردة.

[٣]

## الزيادة في الأنوار

إن هذا الاشتغال على الذات يقتضي الفلسفة؛ كما أن الأمر لا يشترط الإيمان والاعتقاد والخرافة بل العقل والتفكير السوي والصحيح المسار. فالظلامية ـ تلك التربة العضوية للأديان ـ تتحارب مع التقاليد العقلانية الغربية. إنه أمر الاستعمال الجيد للإدراك وقيادة الفكر وفق نظام الحجج والأسباب وإعمال رغبة نقدية حقيقية، والتجنيد الشامل للذكاء، والرغبة بالتطور في شموخٍ التي تعتبر فرصا كافية للابتعاد عن الأشباح والاحتفاظ ببعض المسافة عنها؛ وهو ما يعني عودة إلى روح وفكر الأنوار التي يُنعت باسمها القرن الثامن عشر.

بطبيعة الحال من المفروض أن يكون هناك الكثير مما يقال عن التأريخ الرسمي لهذا القرن العظيم الآخر[1]. فقد كتب مؤرخو القرن الموالي ـ والثورة الفرنسية مرماهم ـ في ذلك تاريخا غريبا وفريدا من نوعه. لقد كانوا في ما يتعلق بالماضي يميلون إلى تفضيل التركيز على ما يبدو أنه ولّد مباشرة ذلك الحدث التاريخي الجديد (الثورة الفرنسية) أو ساهم فيه بقوة؛ فكانت هناك أصناف التفكيك الساخر عند فولتير ومبدأ السلطات الثلاث عند مونتيسكيو، والعقد الاجتماعي عند روسو وعبادة العقل عند كنط وبناء «موسوعة الأنوار» تحت إشراف دلامبير. . . إننا في حقيقة الأمر نفضل أنوارا لا تقل إبهاراً للعيون من تلك؛ أنوار تليق بالتقديم وتكون سليمة سياسيا.

إنني أدعم قيم أنوار أكثر اشتعالا وأكثر صفاء وصراحة وتتميز بجرأة أكبر. ذلك أنه تحت التنوع الظاهر، يتحد كل هذا العالم ويشترك في النزعة الإلهية (déisme)؛ فكلهم يحاربون الإلحاد بقوة، ويضيف هؤلاء الفلاسفة المختارون إلى ذلك احتقارا مسترسلا وساميا للنزعة المادية والحسية ـ أي لكل الاختيارات الفلسفية المؤسسة لجناح يساري للأنوار وقطب للراديكالية تم نسيانه والذي بالإمكان التماسه اليوم. فذلك القطب يرضيني.

إن كنط يبرع في الجرأة المحترسة؛ فكتابه «نقد العقل الخالص» يعرض في ست مائة صفحة ما من شأنه جعل الميتافيزيقا الغربية تتفجر، لكن الفيلسوف يعدل عن الأمر. فالفصل بين الإيمان والعقل وبين الإدراك الحدسي والظواهر المحسوسة أرسى عالمين منفصلين وهو ما يشكل تقدما منذ ذلك الوقت. . . كان بإمكان مجهود إضافي أن يجعل أحد هذين العالمين ـ أي العقل ـ يطالب

---

(١) في فرنسا ينعت القرن السابع عشر، قرن لويس الرابع عشر والكلاسيكية المؤسسة لفرنسا الدولة المركزية بالقرن العظيم. (المترجم).

بحقوقه على العالم الآخر ـ أي الإيمان، وأن يلزم التحليل بأن لا يعفي مسألة الاعتقاد. ذلك أنه بإعلان العالمين منفصلين يتخلى العقل عن سلطاته ويجنب الإيمان وبالتالي يتم إنقاد الدين. وبذلك يستطيع كنط أن يسلم (!) ( ما الحاجة إلى كل هذا العدد من الصفحات لكي ترده إلى أن يسلم. . ) بوجود الإله وبخلود الروح وبوجود حرية الإرادة وهي الدعامات الثلاث لكل دين.

[٤]

## ما الأنوار مرة أخرى؟

مشهور كتيب كنط «ما الأنوار؟ »؛ فهل ما يزال قابلا للقراءة بعد مرور قرنين من الزمن على ظهوره؟ أجل، يمكننا ذلك، ويجب علينا الانخراط في هذا المشروع الذي ما يزال مناسبا للساعة: مشروع إخراج الناس من حال القاصرين، وبالتالي ابتغاء وسائل تحقيق حال الراشدين وردّ الكل إلى مسؤوليتهم تجاه حال قصورهم؛ وامتلاك المرء شجاعة استخدام إدراكه وفهمه؛ ومنح الذات والآخرين وسائل البلوغ إلى امتلاك زمام النفس؛ واعتماد إعمال العقل علنا وباشتراك مع الجماعة في كل المجالات دون استثناء؛ وعدم اعتبار ما يصدر عن السلطة العمومية حقيقة منزلة. إنه مشروع رائع. . .

لماذا كان كنط صاحب روح كنطية ضئيلة؟ كيف يمكن بلوغ سن الرشد مع منع استعمال العقل في ميدان الدين الذي يبتهج بكونه يتعامل مع قاصرين عقليا؟ صحيح أنه يمكننا أن نفكر، والأكيد أيضا أنه يجب امتلاك جرأة السؤال، بما في ذلك سؤال الجابي والقس، يقول كنط، فلماذا بالتالي الوقوف في وسط هذا الطريق الصحيح؟ هيا: لنسلِّم إذن بعدم وجود الإله وبعدم خلود الروح وبعدم وجود حرية الإرادة!

إننا بحاجة إلى مجهود إضافي من أجل الزيادة في ضياء فكر الأنوار. مزيدا

بعض الشيء من الأنوار؛ مزيدا وتحسينا كذلك لهذه لأنوار. فلنكن كنطيين ضد كنط، ولنقبل رهان الجرأة التي يدعونا إليها دون أن يجرؤ عليها هو نفسه ـ؛ إذ إنه من المرجح أن تكون السيدة كنط الأم ـ ذات عقيدة التقوى الصارمة والمتزمتة، إن سلمنا بوجود من هو كذلك ـ قد أخذت بيد ابنها عند ختمه لكتاب «نقد العقل الخالص» مفرغة بذلك ومحيدة قوة هذا المتفجر المدهش.

[٥]

## أضواء نفي اللاهوت الهائلة

إن الأنوار التي أعقبت كنط معروفة: من بينها فيورباخ ونيتشه وماركس وفرويد. ولقد مكّن كتاب «عصر الشبهة» القرن العشرين من فصل حقيقي للعقل عن الإيمان ليسمح بعد ذلك بتحويل للأسلحة العقلية ضد التخييل والاعتقاد، ثم يمكن في الأخير بتخليص للمجال وتحرير لنطاق جديد. ففوق هذه المساحة الميتافيزيقية الخامة يمكن لشعبة لا سابق لها في التاريخ أن ترى النور: لنسمها هنا «علم نفي اللاهوت» athéologie.

ليس هذا المصطلح ابتداعا اصطلاحيا من صنعي، بل نجده عند **جورج بطاي** الذي أعلن منذ ١٩٥٠، في رسالة مؤرخة في ٢٩ مارس موجهة إلى **رايمون كونو**، عن رغبته بجمع كتبه المنشورة عند دار **غاليمار** في ثلاثة مجلدات تحت عنوان: **«مجمل نفي اللاهوت»**. وفي سنة ١٩٥٤، اقترح **جورج بطاي** تصميما آخر إذ كانت هناك نصوص قد أعلن عنها أربع سنوات قبل ذلك لم تكتب بعد بينما كانت نصوص أخرى في طور الإنجاز، فكان البناء الداخلي للمؤلَّف دائم التحرك. وتم إعلان مجلد رابع بعنوان **«السعادة الخالصة»** ثم مجلد خامس بعنوان **«النسق غير المكتمل للاعلم»**. لكن لا أحد منها سيرى النور. والمؤلَّف موجود حاليا على شكل تجميع ضمن كتاب **شوبنهور**: parerga وparalipomena

إن عدم إكمال هذا المتن المهم وكثرة التصاميم والمشاريع والمماطلات المرئية في المراسلات حول علم العمارة، واعتراف بطاي برغبته المجنونة في أن لا يكون فيلسوفا، وتخليه عن مشروع الشباب الذي ساق قراءاته وأفكاره وكتابته ـ مشروع تأسيس ديانة ـ؛ كل هذا يشهد لصالح ورش ترك مهينا وفي صيغة نهائية. . ليبقى هناك مجال «علم نفي اللاهوت»، ذلك المفهوم الذي لا وريث له، **فهو مجال** *سام ورفيع*.

إن دولوز وفوكو يتصوران المفاهيم على أنها صندوق أدوات رهن إشارة من يطمح للاشتغال بالفلسفة. إنني لا أدعم هنا المعنى الذي أعطاه بطاي للمصطلح ـ وخاصة أنه يتطلب عملا حفريا دقيقا يرجح أن لا يصل إلا إلى نتائج غير مرضية ـ بل أدعم ما يمكن أن نفعل به اليوم: أي السير المضاد لعلم اللاهوت، والنهج الذي يزوِّر الخطاب حول الله في منابعه لكي يحلل إواليات عن قرب، بغية اكتشاف الوجه الآخر لديكور مسرح كوني مشبع بالفكرة التوحيدية. إنها فرصة للتفكيك الفلسفي.

وتجاوزاً لهذا المؤلف التمهيدي «مبادئ نفي اللاهوت»، فإن الشعبة تفترض تجنيد مجالات متعددة: علم النفس، والتحليل النفسي (تصور أواليات وظيفة نسج روايات الخيال)، وعلم الميتافيزيقا (مطاردة جينيالوجيا التعالي والسمو والجلال)، وعلم الحفريات (لجعل تربة جغرافيات ما يسمى الأديان وما تحتها تفصح عن دواخلها )، وعلم الكتابات القديمة (من أجل إرساء نص الأرشيف)، وعلم المقارنات (استنتاج استمرار الصيغ الذهنية النشيطة في أزمنة متمايزة وأمكنة متباعدة )، وعلم الأساطير (للبحث عن تفاصيل العقلانية الشعرية)، وعلم تأويل النصوص واللسانيات واللغات (لتأمل اللهجة المحلية ) وعلم الجمال (لتتبع انتشار الديانات عبر الرسوم والأيقونات )؛ ثم تأتي الفلسفة

بطبيعة الحال لأنها تبدو الأحسن ترشيحا للإشراف وتولي أمر تنظيم وتنسيق كل هذه الشعب والاختصاصات. وما الرهان إذن؟ إنه إقامة فيزياء خاصة بالميتافيزيقا وبالتالي تأسيس نظرية حقيقية للعلاقات السببية الملازمة وأنطولوجيا ذات نزعة مادية.



# الجزء الأول

# مبحث نفي اللاهوت



# I
# الرحلة الملحمية لذوي الفكر المتحرر

## [١]

**ما زال الإله يتنفس الصعداء. . .**

هل مات الإله فعلا؟ ذلك أمر يجب التأكد منه. . كان من شأن هكذا بشرى أن تخلق تأثيرا هائلا لكننا ما زلنا ننتظر دون جدوى أدنى إثبات عليها. وإننا في مكان الحقل الخصب المكتشف من خلال مثل هذا الاختفاء، نجد بالأحرى نزعة عدمية وتقديسا للاشيء وشغفا بالعدم، وعشقا مرضيا لمعزوفات ولوحات نهايات الحضارات الكئيبة، وافتتانا بالهاويات وبالحفر التي لا قعر لها والتي يفقد فيها المرء روحه وجسده وهويته وكينونته وكل اهتمام بأي أمر من الأمور. إنه مشهد كارثة: مشهد القيامة الخانق. . .

إن موت الإله كان ألعوبة أنطولوجية؛ وهو جزء لا يتجزأ من جوهر القرن العشرين الذي كان يرى الموت في كل مكان: موت الفن، وموت الفلسفة، وموت الميتافيزيقا، وموت الرواية، وموت اللحن، وموت السياسة. ولنعلن اليوم رسميا إذن موت أشكال الموت الخيالية هذه! وموت هذه الأنباء غير الصحيحة التي كانت في الماضي تصلح لبعض الناس كي يصوروا مشاهد

مفارقات ظاهرية قبل انقلاب البذلة الميتافيزيقية. لقد سمح موت الفلسفة بمؤلفات في الفلسفة وولَّد موت الرواية روايات، وأنتج موت الفن أعمالا فنية، وما إلى ذلك إلخ. . . . أما موت الإله فقد أنتج عالم القداسة والألوهية والدين يتنافس فيه الناس. إننا نسبح اليوم في هذه المياه المطهَّرة.

أكيد أن إعلان موت الإله بقدر ما كان مرعدا ومدويا كان خاطئا. . . لقد كان ذلك تزميرا في أبواق، وإعلانات مسرحية مبهرجة، ودقاً للطبول ابتهاجاً قبل الأوان. إن عصرنا يتداعى تحت الأخبار المقدسة التي هي أشبه بالكلام الملهم عند وسطاء الوحي الجدد؛ كما إن وفرتها تتحقق على حساب الجودة والحقيقة: لم يسبق أن تم الاحتفال بمثل هذا القدر من الأخبار الخاطئة كما لو كانت أخبار وحي سماوي. لقد كان أمر إثبات موت الإله يستلزم حقائق ومؤشرات وقرائن؛ لكن الأمر لم يكن كذلك. . . . . . . .

فمن رأى الجثة؟ ما عدا نيتشه ولم يثبت ذلك. . . . كان الأمر يفترض أن نقع تحت وطأة وجود هذه الجثة ـ على طريقة جسد الجريمة عند أوجين يونسكو ـ وتحت سلطة قانونها؛ كان الأمر يفترض أنها ستجتاح وتفسد وتنتن وأنها ستتفسخ شيئا فشيئا، ويوما بعد يوم؛ وكنا سنشهد تحللا حقيقيا ـ وفي المعنى الفلسفي للكلمة أيضا. لكن، بدلا من ذلك، ظل الإله الذي كان متواريا عن العيان في حياته، ظل كذلك عندما مات. ذلك تأثير الإعلان. . . ما زلنا ننتظر البراهين والشواهد لحد الآن. لكن من بإمكانه تقديمها؟ من هو الأخرق الجديد الذي سيتقدم نحو هذه المهمة المستحيلة؟

ذلك أن الإله لم يمت، ولا هو يحتضر ـ بعكس ما يعتقد نيتشه وهين. إن الإله لم يمت، وهو لا يحتضر، لأنه ليس بفان. إن الفكرة الخيالية لا تموت، وإن الوهم لا يتوفى، والحكاية الخرافية الموجهة للأطفال لا يتم دحضها.

فالحيوانات الخرافية لا تخضع لقانون الثدييات؛ قانون يخضع له بالفعل الطاووس والفرس؛ أما حيوان من محبس الوحوش الخرافية فلا. والحال أن الإله ينتمي لهذا المحبس الخرافي، مثله مثل آلاف الكائنات المفهرسة ضمن القواميس المتخصصة. فَنَفَسُ الكائن المضطهد يبقى مادام هذا الكائن باقيا؛ بل قل إنه باق دائما..

من جهة أخرى، أين يفترض أن يكون قد مات هذا الإله؟ هل في كتاب «العلم المرح»، لنيتشه؟ هل اغتيل في سيلس ـ ماريا[1] من طرف فيلسوف ملهم ومأساوي وسام لازم وسكن بحيرته النصف الثاني من القرن العشرين؟ وبأي سلاح قتل؟ بكتاب واحد، أم بكتب، أم بأعمال كاملة؟ هل من خلال دعوات لعنة، أم عبر تحاليل وبرهان، دحض؟ وهل من خلال تعاليق أيديولوجية لاذعة وساخرة؟ أي سلاح الكتاب الأبيض.... وهل كان القاتل لوحده؟ مترصدا؟ أم كان ضمن عصابة: رفقة الكاهن ميسلي ولوماركي دو ساد باعتبارهم من أسلافه الحراس الحافظين؟ ألا يفترض أن يكون إله أسمى هو قاتل هذا الإله إن وجد؟ ألا يخفي هذا الجرم المزيف رغبة أوديبية وإرادة مستحيلة وتطلعا لا يقاوم ولا جدوى منه إلى النجاح في إتمام مهمة ضرورية لتوليد الحرية والهوية والمعنى؟

إنه لا يمكن قتل النفسِ والريح والرائحة، ولا يمكن أيضا قتل الأحلام والأماني. إن الإله الذي ابتكره البشر الفانون على صورتهم الجوهرية لا يوجد إلا ليجعل الحياة اليومية ممكنة، بالرغم من مسار كل واحد إلى العدم. فما دام البشر محكومين بالموت ستظل حتما بينهم مجموعة لن تستطيع تحمل هذه الفكرة، وستبتكر حيلا للهروب من ذلك. لا يمكن أن نغتال حيلة للهروب؛

(١) أول مكان كتب فيه نيتشه (المترجم).

ولا يمكننا أن نقتلها. ستكون بالأحرى هي من تقتلنا: لأن الإله يسحق كل من يقاومه، وفي مقدمة ذلك العقل والذكاء والفكر النقدي. والباقي يتبع ذلك برد فعل متسلسل. . .

سيختفي آخر إله مع آخر إنسان، وسيختفي معه الخوف والذعر والقلق وكل تلك الآلات المنتجة للآلهة: الرعب في مواجهة العدم، وعدم القدرة على تمثل الموت كمسار طبيعي وحتمي يجب التعايش معه. وحده الذكاء يمكنه أن يحدث تأثيرات في مواجهة الموت، بل وكذلك الإنكار، وغياب للمعنى خارج المعنى المعطى، واللامعقول القبلي؛ فهذه هي باقة أصول فكرة الألوهية. إن موت الإله يفترض تطويع العدم وإيلافه؛ لكننا ما نزال بعيدين بسنوات ضوئية عن هذا التقدم الأنطولوجي الوجودي. . .

[٢]

## اسم ذوي الفكر المتحرر

سيدوم الإله بدوام العقول التي تخلقه وبدوام منكريه كذلك. . . إن كل بحث حفري في أصول المفهوم يبدو محض خيال: لا يوجد تاريخ ميلاد للإله كما لا يوجد تاريخ ميلاد للإلحاد الفعلي ـ أما الخطاب فذلك أمر آخر. لنخمن: يُفترض أن يكون أول إنسان ـ تلك قصة خيالية أخرى ـ وهو يؤكد وجود الله، في نفس الوقت أو بالتتابع أو حتى بالتناوب، لا يؤمن بوجوده. إن الشك يعيش دائما مع الإيمان ويعاصره. ويرجح أن يكون الشعور الديني يسكن نفس الفرد المشغول بالريبة والشك والمسكون بالرفض. ـ فيكون هناك إقرار وإنكار، وعلم وجهل: وقت للركوع ووقت للعصيان والتمرد؛ وذلك بحسب مناسبات خلق إله أو إحراقه. . .

يبدو الإله خالدا إذن. ومداهنوه وحاملو مبخراته ينتصرون في هذه النقطة؛

لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لحججهم وشواهدهم المتخيلة؛ ذلك أن مرض العصاب الذي يؤدي إلى صنع الآلهة إنما ينتج عن الحركة العادية لنفسانيات الناس ولا شعورهم. إن توليد الله يوجد في نفس الوقت مع الشعور القلق أمام فراغ الحياة المنتهية؛ لقد ولد الإله من قلب شدة وصلابة وجمود جثث أعضاء القبيلة؛ فالرؤى والأوهام والأدخنة التي تتغذى عليها الآلهة تكتسب متانة وصلابة أكبر مع مشهد الجسد الميت. عندما تنهار روح أمام برودة شخص محبوب، فإن الإنكار يحل محل الأمر الواقع فيحول هذه النهاية إلى بداية، ويجعل من هذه الخاتمة انطلاقة لمغامرة جديدة. فالإله والسماء والأرواح يديرون المهمة لتجنب ألم وعنف الأسوأ.

وماذا عن الملحد؟ يرجح أن يكون إنكار الإله والعوالم الخلفية يقتسم روح أول إنسان آمن بالله؛ وفي ذلك عبارة عن تمرد وعصيان، ورفض للبداهة، وتصلب أمام أحكام القدر والحتمية؛ ويبدو تاريخ أصول النزعة الإلحادية بنفس قدر بساطة تاريخ أصول الإيمان. إن الشيطان وإبليس وحامل النور ـ الفيلسوف الرمز لفكر الأنوار ـ؛ أي من يقول لا، ومن يرفض الخضوع لقانون الإله، ينشأ معاصراً لعصر الولادات هذا. فالشيطان والإله يشتغلان كوجهين لنفس العملة، أي كنزعة الإقرار بالألوهية (théisme) ونزعة نفي الألوهية ـ الإلحاد ـ (athéisme).

ومع ذلك فالمصطلح ليس قديما في التاريخ ومعناه الدقيق ـ أي موقف من ينكر وجود الإله ما عدا باعتباره إبداعا خياليا إنسانيا في محاولة للاستمرار بالحياة بالرغم من طابع الموت المحتوم ـ يعتبر معنى متأخرا في الغرب. صحيح أن الملحد مذكور في الكتاب المقدس ـ في «المزامير» (١٠ : ٤ و١٤ : ١) وفي «جيريمي» (٥ : ١٢) ـ، لكنه كان أحيانا بل في غالب الأحيان، في

الأزمنة القديمة نعتا ليس لمن لا يؤمن بالله، بل لمن لا يقبل بالآلهة المهيمنة في تلك اللحظة ويرفض أشكالها المحددة اجتماعيا. لقد ظل مصطلح «الملحد» ينعت ولمدة طويلة من يؤمن بإله جار أو غريب أو مبتدع أو مخالف لصورته الرسمية؛ فهو ليس ذلك الشخص الذي يفرغ السماء، بل إنه من يملأها بمخلوقاته الخاصة...

وبالتالي فقد كانت نزعة الإلحاد تستخدم سياسيا لإقصاء وتمييز وتعنيف الشخص الذي يؤمن بإله آخر غير ذاك الذي تستند إليه سلطة المرحلة والمكان في إرساء نفوذها وسلطانها. ذلك أن الله خفي لا يلحق، وبالتالي فهو يصمت عما يمكن أن ينسب إليه من فعل وقول وعمل أو يلقى على عاتقه؛ وهو لا يثور حينما يدعي بعضهم أن الله قد ولاهم ليتكلموا ويسنوا القوانين ويصدروا الأوامر ويتحركوا في السراء والضراء باسمه. إن صمت الإله يسمح بثرثرة وزرائه الذين يسيئون استغلال هذا النعت: فمن لا يؤمن بإلههم وبالتالي لا يؤمن بهم، يصير على الفور ملحدا، أي أسوأ الناس؛ فهو ذلك المقيت النجس الداعي لنبذ الأخلاق وذاك الوجه المجسد للشر وبالتالي يجب سجنه في الحال، أو تعذيبه أو قتله...

واعتباراً لذلك يصير صعبا إعلان المرء إلحاده ونفيه للألوهية.... إذ يكون الأمر دائما ضمن رؤية تبتغي قذفا يهين سلطة تشغلها مسألة إدانة الناس. إن بناء المصطلح يوضح ذلك: نافي+الإله (a-thée). فمن خلال السابقة الحارمة a (نفي) يفترض المصطلح إنكارا ونقصا وفراغا ومسعى معارضا؛ ولا يوجد مصطلح لوصف إيجابي لمن رفض القبول بالخرافة وبالوهم من خارج هذا البناء اللغوي الذي يشدد على البتر: هو «نافي ـ الإله» إذن؛ ولكن أيضا فاقد ـ الإيمان واللا ـ أدري وغير ـ المؤمن واللا ـ ديني ومنكر ـ العقيدة ونافي ـ الدين وعديم

ـ التقوى، وكل الكلمات المنبثقة من: لا ـ دين ولا إيمان ولا تقوى إلخ . . . إننا لا نجد ما يوصِّف الجانب المشع والمؤكد والايجابي والحر والقوي عند ذلك الفرد الذي يقيم بعيدا عن الفكر السحري وعن الحكايات الخرافية.

إن الإلحاد أو نفي ـ الإله ـ الإله ينتمي إلى الإبداع اللغوي لعباد الإله؛ وهي كلمة لم تنتج عن قرار إرادي وسيادي للشخص الذي يعرف نفسه من خلالها تاريخيا. هي كلمة تشير فقط إلى الآخر الذي يرفض الإله المحلي في الوقت الذي يؤمن به جميع الناس أو غالبيتهم. . . وإن من مصلحته أن يؤمن. . . لأن الممارسة اللاهوتية المؤسسة تستند دائما على ميليشيات مسلحة وعلى شرطة وجودية وجيش أنطولوجي تعفي الناس من التفكير، وتدعوهم إلى التعجيل بالإيمان، وإلى التوبة والاهتداء في غالب الأحيان.

إن آلهة بعل و ياهوا و زيوس و الله وراع و ووطان بل وحتى إله مانتوا كلها تدين بأسماء شهرتها للجغرافيا وللتاريخ: إنها بنظر الميتافيزيقا التي تجعلها ممكنة تسمي نفس الحقيقة الخيالية الخادعة بمسميات مختلفة. والحال أن أيا من هذه الأسماء ليس أكثر صحة من الآخر، لأنها تتحرك داخل مجمع للعظماء المبتكَرين المبتهجين حيث يتقاسم نفس المأدبة عوليس وزرداشت وديونيزوس ودون كيشوت وتريستان ولانسلو دي لاك، وهي كلها وجوه سحرية تشبه الثعلب عند شعب الدوغون وآلهة «اللوا» في عقائد الفودو. .

[٣]

## تأثيرات الفلسفة البديلة

وفي إطار غياب نعت لوصف ما لا يمكن وصفه ومسمى لتسمية ما لا يمكن تسميته، ـ فالأحمق هو من يجرؤ على أن لا يؤمن ـ؛ لنتعامل مع هذا النعت: الملحد نافي ـ الإله. . هناك كنايات ومصطلحات، لكنها كلها نحتت من قبل

عباد المسيح وألقوا بها داخل السوق الفكرية بنفس نية الإنقاص من قيمة الموضوع وتحقيره. فقد كان باسكال، على طول كتاباته المنسوجة، غالبا ما يهاجم بقسوة «ذوي الفكر المتحرر»، وكذا «الملحدين» و«المفكرين الأحرار»، أو كما يسميهم اليوم أصدقاؤنا البلجيكيون أنصار حرية التفكير.

إن الفلسفة البديلة ـ ذلك التيار الذي يعتبر خلال القرن الثامن عشر ظهر العملة المظلم لفكر الأنوار، وذلك التيار الذي نتناساه مخطئين إذ يجب وضعه تحت أنوار الواقع الراهن لكي نبين كم لا يتردد المجتمع المسيحي أمام أي وسيلة حتى تلك الأضعف قدرة على التبرير الأخلاقي، لينقص من قيمة واعتبار فكر ذوي الطبائع المستقلة الذين لا يسعدون بالموافقة على حكاياتهم الخرافية ـ؛ إن هذه الفلسفة البديلة إذن تحارب بعنف يستعصي على النعت حرية الفكر والتفكير المنفصل عن العقائد المسيحية.

يندرج في هذا السياق على سبيل المثال عمل الأب غاراس، ذلك اليسوعي الذي لا دين له ولا خلق، مبتكر الدعاية الحديثة في أوج القرن السابع العاشر ـ القرن العظيم ـ من خلال مؤلف: **«العقيدة الغريبة لمحبي المعرفة والفكر في هذا الزمان أو المدعين ذلك»** (١٦٢٣)؛ وهو مجلد مفرط ومغال، يقع في ما يربو عن الألف صفحة، ينمُّ الكاتب فيه ويفتري على حياة الفلاسفة الأحرار، ويقدمهم على أنهم فجار ولوطيون وزناة وفساق وشرهون نهمون وناكحو أطفال ـ مسكين بيير شارون صديق مونتيني. . ـ، وغير ذلك من النعوت الشيطانية الوحشية، وذلك بهدف ثنيّ الناس عن الاستئناس بالمؤلفات ذات النزوع التقدمي. كما اقترف وزير الدعاية اليسوعية هذا في السنة الموالية مؤلَّفا يمجد فيه مؤلفه المذكور ضد أصحاب الفكر الملحد والمادي في عصره. فأضاف غاراس بذلك طبقة أخرى على نفس المنوال، دون أن يخنقه الكذب والخسة

والرمي بالبهتان والهجوم بحق الخصوم. فعلاً إن محبة القريب لا تعرف حداً. . . . . . . .

منذ أبيقور الذي شُنِّعَ به في حياته من قبل متعصبي وأقوياء عصره وحتى الفلاسفة الأحرار الذين لا يعتقدون ـ دون الوصول أحيانا إلى حد التبرؤ من المسيحية. . ـ أن الكتاب المقدس يشكل أفق الذكاء الذي لا يمكن تجاوزه، ما زالت هذه الطريقة تؤدي مفعولها اليوم. فبالإضافة إلى كون بعض من الفلاسفة الذين هاجمهم غاراس وأطلق عليهم الرصاص لم يسترجعوا صحتهم بعد، وهم يقبعون في غياهب النسيان المقيت؛ وبالإضافة إلى أن بعضهم يعاني من صيت خاطئ بكونهم عديمي أخلاق، وقوما لا يعاشروا؛ وبالإضافة إلى أن القذف والتشهير يطال أيضا أعمالهم، يظل المصير السلبي للملحدين منكري ـ الإله موضوع تكتم وإخفاء لمدة قرون. . . ففي الفلسفة ما يزال libertin (ملحد) يشكل وصفا تحقيريا موضوع جدال يحول دون بروز كل فكر هادئ وجدير بهذا الاسم.

وبسبب نفوذ الفلسفة البديلة المهيمن على التاريخ الرسمي للفكر، فإن أجزاء كاملة من فكر قوي حي وشديد، لكنه مضاد للمسيحية أو غير محترم لها بل مجرد مستقل عن الدين السائد، تبقى مجهولة حتى من قبل محترفي الفلسفة في غالب الأحيان، باستثناء حفنة من المتخصصين. فمن قرأ غاسيندي أثناء دراسته للقرن السابع عشر؟ أو لاموت لوفايير؟ أو سيرانو دي بيرجوراك ـ الفيلسوف لا الأديب. .؟ قليلون هم. . . ومع ذلك فإنه لا يمكن فهم باسكال وديكارت وماليبرانش وآخرين من نصيري الفلسفة الرسمية دون معرفة تلك الوجوه الأخرى التي اشتغلت على استقلال الفلسفة عن علم اللاهوت الديني ـ وبالذات عن لاهوت الديانة اليهودية ـ المسيحية.

[٤]

## اللاهوت وأوثانه

هذه الخصاصة في الكلمات الإيجابية لوصف النزعة الإلحادية النافية ـ الإله وعدم الاهتمام بالنعوت البديلة الممكنة، توازيها وفرة وغنى في المفردات الواصفة للمؤمنين. فلا يوجد تغيير طفيف في موضوع الإيمان ليس له اسم خاص ينعت به: ألوهي؛ ربوبي؛ موحد الوجود؛ موحد الإله؛ متعدد الآلهة ويمكن أن نضيف إحيائي وطوطمي ووثني، أو حتى بالنظر للأشكال المتبلورة عبر التاريخ: من كاثوليكيين وبروتستانتيين وإنجيليين بروتستانتيين وكالفينيين ولوثيريين وبوذيين وشانطاويين ومسلمين، سنة وشيعة، ويهود من شهود ياهوا أورثوذوكس وأنجليكانيين وميتوديين وكالفانيين، والقائمة لا تنتهي. . .

بعضهم يعبد الأحجار ـ بدءا بالقبائل البدائية وحتى مسلمي اليوم الذين يطوفون حول نصب الكعبة ـ، وبعضهم يعبد الشمس أو القمر، والبعض الآخر يعبد إلها خفيا ومختفيا لا يمكن تمثيله وإلا تم اتهامه بالوثنية، أو يعبد حتى وجها بشكل إنساني ـ أبيض ذكر وآري بطبيعة الحال. . ـ؛ فهذا موحد مكتمل للوجود يرى الإله في كل مكان و ذاك من أتباع اللاهوت السلبي لا يراه في أي مكان؛ مرة يُعبد الإله وقد امتلأ دما وتوج شوكا وصار جثة، ومرة ثانية يعبد في قشة عشب على طريقة الشنتو الشرقية: ليست هناك خدعة من الخدع التي ابتركها الإنسان لم تستعمل خدمة لتوسيع مجال ممكنات الألوهية. . .

ولمن لا يزالون يشكون في أصناف الغرابة الممكنة للديانات بخصوص بما تستند عليه، نذكِّرهم برقصة البول عند شعب الزونو في المكسيك الجديدة وبخياطة التمائم من غائط كبير كهنة ديانة اللاما في التيبت وباستعمال روث وبول البقر في وضوء التطهر عند الهندوس، وبعبادة ستيركوريوس وكريبتوس

وكلواسين عند الرومان ـ وهي بالتتالي آلهة القذارة والضراط ومجاري الفساد ـ، ونذكرهم بقرابين السماد الحيواني المقدمة للإله سيفا ـ فينوس الآشوري ـ، وبأكل الإلهة المكسيكية الأم سوشيكال لفضلاتها وبالأمر الرباني باستعمال البراز البشري لطهي الطعام في كتاب إيزيشيل وغير ذلك من طرق يصعب فهمها وتصرفات غريبة وشاذة في ربط العلاقة بالألوهية وبالمقدس. . .

وأمام هذه الأسماء المتعددة والممارسات التي لا تعرف نهاية، والتفاصيل اللا متناهية في شكل تصور الإله وتأمل العلاقة به؛ وفي مواجهة هذا الطوفان من التغييرات على الموضوع الديني؛ وفي حضور كل هذا الكم من الأسماء للتعبير عن هذا الوجدان المؤمن الغريب، يبقى «*الملحد* نافي ـ الإله» يتعايش مع هذا النعت الوحيد والفقير الذي يحط من قيمته واعتباره الحقيقيين. ! أما من يعبدون كل شيء، وأي شيء، والذين يبررون هم أنفسهم، باسم أصنامهم، عنفهم المتعصب، وحروبهم التاريخية ضد من لا إله لهم، فأولئك هم الذين ينقصون من صاحب الفكر المتحرر فيجعلون من «الملحد نافي ـ الإله» athée، اعتبارا للـ اصل الاشتقاقي في نحت هذا النعت، فردا غير مكتمل وشخصا أبتر ومفككاً وأجدع وكيانا ينقصه الإله حتى يغدو حيا بحق. .

إن أتباع الإله يتوفرون على شعبة بكاملها تختص بالنظر في أسمائه وأفعاله وحركاته، وفي أقواله الجديرة بالذكر وأفكاره وكلماته ـ لأنه يتكلم ـ وفي سلوكياته، وفي أسماء مفكريه المأجورين وممتهنيه، وقوانينه ومداهنيه ومبخريه ومحاميه وقتلته المأجورين ومجادليه وخطبائه وفلاسفته ـ نعم كذلك. . . ـ وعملائه وخدامه وخلفائه في الأرض ومؤسساته الدعوية وأرائه وإملاءاته، وغير ذلك من الهراء: إنها شعبة علم اللاهوت. شعبة الكلام عن الإله وبخصوصه. .

أنتجت اللحظات النادرة في التاريخ الغربي التي تم خلالها إتلاف المسيحية ـ

كسنة ١٧٩٣ على سبيل المثال ـ بعض الأنشطة الفلسفية الجديدة، كما ولدت الكلمات المستحدثة والتي سرعان ما تركت وأهملت إهمالا. صحيح أننا ما زلنا نتحدث عن حركة إزالة طابع المسيحية عن الواقع ( déchristianisation )، لكن كمؤرخين؛ فذلك يسمى فترة الثورة الفرنسية التي كان المواطنون خلالها يحولون الكنائس إلى مستشفيات ومدارس ومآو للشباب، وكان الثوار يستبدلون صليب السقوف بالرايات الثلاثية الألوان ونحوت المصلوب من الخشب الميت بالأشجار الحية. وسرعان ما اختفت النعوت المختلفة التي كانت تسمي صاحب مذهب نفي الألوهية كما جاءت في كتاب «*المحاولات*» لميشيل مونتيني وفي «رسائل مونلوك» وكذا في كتابات فولتير؛ وحتى نعت الذي نعت به خلال الثورة الفرنسية. . .

[٥]

**أسماء العار:**

يُفَسَّر فقر المعجم الملازم لمذهب فكرة نفي الإله بدوام واستمرار السيطرة التاريخية لأتباع فكرة إثبات الإله: لقد تمكنوا من كامل السلطات السياسية منذ أكثر من ١٥ قرنا ولم يكن أبدا التسامح فضيلة فضائلهم، وهم يفعلون كل شيء حتى لا يكون الأمر ممكنا وبالتالي حتى لا تكون الكلمة ممكنة. فقد ظهرت كلمة athéisme ـ النزعة المنكرة للإله ـ سنة ١٥٣٢؛ أما كلمة athée ـ منكر الإله ـ فقد وجدت في القرن الثاني من التاريخ المشترك عند المسيحيين الذين نددوا بمنكري الألوهية (atheos) ووصموهم بالعار: فهؤلاء كانوا لا يعتقدون في إله المسيحيين المبعوث حيا في اليوم الثالث من صلبه. ومن ثم كان الاستنتاج بأن هؤلاء الذين لا تمتلئ عقولهم بحكايات الأطفال لا يقبلون بأي إله، فتم فتح الباب على مصراعيه لذلك؛ فقد اعتُبِر الوثنيون ـ الذين كانوا

يعبدون آلهة البادية وأصل الكلمة (païens) يثبت ذلك ـ منكرين للآلهة، ثم للإله الواحد. كما جعل اليسوعي غاراس من لوثر ملحدا منكرا الإله (!)؛ وكذلك فعل رونسار مع البروتستانتيين الفرنسيين.

تعتبر هذه الكلمة شتيمة قصوى؛ فالملحد منكر الإله هو ذلك العديم الأخلاق ومنكرها، وتلك الشخصية النجسة التي بمجرد صدور هذا النعت بحقها يصير من الذنب أن يرغب المرء بمعرفة أكثر عنها أو بدراسة كتبها. كانت الكلمة كافية للحيلولة دون الوصول إلى الكتب المؤلفة؛ إنها كلمة تشتغل مثل دواليب آلة حرب ترمي كل من لا يتحرك ضمن سلم وسجل تقاليد كاثوليكية رسولية ورومانية خالصة. فمنكر للإله والملحد والزنديق هو بالنهاية كل واحد. وهو ما ينتهي بتكوين جمهور كبير!

لقد واجه أبيقور مبكرا تهما تتعلق بالنزعة الإلحادية المنكرة للألوهية. والحال أنه لا هو أنكر الآلهة ولا الأبيقوريين نفوا وجودها: فقد قالوا بأنها تتشكل من مادة دقيقة، وأنها متعددة ومستقرة في عوالم متوسطة ولا تتأثر ولا تهتم بمصير البشر ولا بمسار العالم، وأنها تجسيد حقيقي لحالة الهناء التام واعتبروها مثلا للعقل الفلسفي ونماذج من شأنها توليد حكمة عند تقليدها. إن آلهة هذا الفيلسوف وتلامذته موجودة بحق ـ وبكثرة كذلك. . ، لكنها لا تشبه آلهة المدينة الإغريقية التي تدعو الناس من خلال كهانها إلى الخضوع للضرورات الجماعية والاجتماعية. إن الخطأ الوحيد لهؤلاء إذن هو طبيعتهم المضادة للمجتمع. .

إن التاريخ الرسمي للنزعة الإلحادية ـ وهو التاريخ النادر والشحيح والسيئ أساسا ـ يسقط في خطأ حينما يسجل بدايتها في العصور الأولى للبشرية. إن أشكال التبلور الاجتماعي تستدعي ما يتعالى عن كيان الوجود المادي: أي

النظام والتراتبية ـ وهي اشتقاقا تعني سلطة المقدس. . . فيكون بإمكان السياسة والمدينة العمل بيسر أكبر كلما استدعتا لذلك آلهة منتقمة، ممثلة فوق الأرض بالطائفة المسيطرة التي تمتلك بالمناسبة زمام القيادة وتنتهز ذلك انتهازا.

وبإقحامها في مشروع إعطاء الشرعية للسلطة، يتم تقديم الآلهة ـ أو الإله الواحد ـ على أنها المخاطب المفضل لزعماء القبيلة وللملوك والأمراء. وتزعم هذه الوجوه الأرضية أنها تستمد سلطتها من الآلهة التي يفترض أن تؤكد لها ذلك من خلال رموز وإشارات تفك طلاسمها، بطبيعة الحال، طائفة الكهنة المهتمة، هي كذلك، بمزايا وفوائد ممارسة القوة ذات الشرعية المزعومة؛ فتكون آنذاك نزعة الإلحاد النافية للإله سلاحا مفيدا للرمي بهذا الشخص أو ذاك، بشرط أن يقاوم أو يتمرد قليلا، إلى غياهب السجن والزنازين بل وحتى دفعه إلى المحرقة.

إن نزعة الإلحاد النافية للإله لم تبدأ مع أولئك الذين يدينهم التاريخ الرسمي ويعرفهم كأصحاب هذه النزعة؛ فمن النزاهة أن لا يذكر اسم سقراط ضمن تاريخ مذهب الإلحاد، ولا أسماء أبيقور وأتباعه ولا اسم بروتاغوراس الذي اكتفى بالتأكيد في كتابه «*حول الآلهة*» أنه، من خلاله كلام الآلهة، لا يمكن استنتاج أي شيء: لا وجودها ولا عدمه. وهو ما يعبر على الأقل عن مذهب لا أدري وعن حيرة وتردد، أو قل عن نزعة شك، لكنه بالتأكيد ليس إلحاد نفي الإله الذي يقتضي تأكيدا صريحا بعدم وجود الآلهة.

إن إله الفلاسفة غالبا ما يدخل في صراع مع إله إبراهيم وعيسى ومحمد؛ ذلك بداية لأن الأول يصدر عن الذكاء والعقل والاستنباط والاستدلال، بينما يقتضي الثاني العقيدة والوحي والطاعة والخضوع ـ بسبب التواطؤ بين السلطات الروحية والدنيوية. إن إله إبراهيم يصف بالأحرى إله قسطنطين، وبالتالي إله

الباباوات والأمراء المحاربين عديمي الإيمان بالمسيحية؛ وليس لذلك أية علاقة بالبناءات الغريبة المرمقة بعلل لا علل لها، وبقوى محركة أولى لا تتحرك، وبأفكار فطرية وأنظمة متسقة معدة سلفا، وغير ذلك من الإثباتات الكونية والوجودية والفيزيائية ـ اللاهوتية. . .

كانت في الغالب كل إرادة ضئيلة تبغي تصور الإله من خارج النظام السياسي المهيمن تصير نزعة لنفي الإله. فعندما قطعت الكنيسة لسان القس جيل سيزار فانيني وعلقته وأرسلته إلى المحرقة، في مدينة تولوز يوم ١٦ فبراير ١٦١٩، فقد اغتالت مؤلف كتاب عنوانه: «**محاضرات في المشيئة الخالدة الإلهية ـ السحرية والمسيحية ـ الفيزيائية والتي هي ليست أقل من ذلك تنجيمية ـ كاثوليكية، ضد الفلاسفة والملحدين والأبيقوريين والأرسطيين والرواقيين**» (١٦١٩).

وبغض النظر عن العنوان ـ وعيبه على الأقل في طوله البيِّن. . ـ، فإن هذا الفكر، الذي يجمع بين الشيء ونقيضه، لا يردّ ولا يطعن في العناية الإلهية ولا في المسيحية ولا الكاثوليكية، بل إنه يرفض بوضوح النزعة الملحدة والأبيقورية وكل المدارس الفلسفية الوثنية. والحال أن كل هذا لا يعطي ملحدا ينفي الإله ـ وهو الباعث الذي قتل من أجله ـ، بل يرجح أن يشكل بالأحرى ما يشبه معتنق مذهب الحلول الموحد للوجود (الذي يرى الله في كل مكان) اصطفائي. وعلى كل، فهو كافر زنديق لأنه يحيد عن السنن الرسمية.

وسبينوزا، الذي كان حلولي المذهب هو كذلك ـ وصاحب الذكاء الذي لا نظير له ـ، قد حكم عليه بتهمة الإلحاد ونفي الإله؛ بالأحرى قل: بتهمة عدم إتباع الأرثوذكسية اليهودية. ففي سنة ١٦٥٦، قام رجال الدين، الذين كان مقرهم عند السلطات اليهودية في أمستردام، بقراءة نص بالعبرية في الكنيس؛

كان نصا مرعبا في عنفه: كانوا يؤاخذون عليه أصناف زندقة فظيعة وأفعالا شنيعة وآراء خطيرة، وبناء عليه صدر حكم التحريم ـ الذي لم يلغ أبدا.

تتلفظ الطائفة بكلمات هي من الفظاظة والشراسة القصوى: مبعد ومطرود وممقوت وملعون بالليل والنهار، في نومه ويقظته، أثناء دخوله إلى بيته وإبان خروجه.. إن أتباع الإله يستدعون غضب خيالاتهم ولعناتها الهائجة بلا حد في الزمان والمكان. وإتماما للقربان، أراد رجال الدين أن يُمحى اسم سبينوزا من على وجه الأرض وإلى الأبد. وقد أخفقوا في الأمر...

وأضاف الحاخامات ـ أصحاب مبدأ محبة القريب نظريا ـ إلى ذلك اللعن والطرد من الجماعة، منع أي كان أن تكون له أية صلة كتابية أو شفهية مع هذا الفيلسوف. كما أن ليس لأي أحد حق في أن يقدم له أدنى خدمة، ولا أن يقترب منه أو يتواجد معه تحت سقف واحد... ومحرمة طبعا قراءة كتاباته: كان سبينوزا آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره، ولم يكن قد نشر شيئا بعد. فكتابه «الأخلاق» سينشر عام ١٦٧٧، بعد ٢١ سنة وبعد موت صاحبه؛ وهو كتاب يقرأ اليوم في كامل أرجاء الأرض.

فأين هي نزعة الإلحاد ونفي الإله عنده؟ لا نجدها في أي مكان. ستبحث عبثا وبلا جدوى في كل أعماله عن جملة واحدة يؤكد فيها عدم وجود الإله. صحيح أنه ينفي خلود الروح ويؤكد استحالة الجزاء والعقاب في عالم ما بعد الموت، ويطرح مسألة أن الكتاب المقدس من تأليف كتاب مختلفين، وأنه تأليف تاريخي وليس مصدره الوحي، كما أنه لا يوافق بأي شكل مسألة شعب الله المختار ويؤكد ذلك صراحة في «**مؤلف لاهوتي ـ سياسي**»؛ وصحيح أنه يبشر بأخلاق مذهب السعادة في المتعة واللذة متجاوزا مبدأي الخير والشر، ولا يراضي الكره اليهودي ـ المسيحي للذات والعالم والجسد؛ وهو وإن كان

يهوديا، فقد وجد في عيسى بعض الميزات الفلسفية. ولكن لا شيء من كل هذا يعطي إنسانا ناكرا للإله وملحدا. . .

إن لائحة البؤساء الذي قتلوا عبر تاريخ الكوكب بتهمة نزعة الإلحاد ونفي الإله وكانوا قساوسة ومؤمنين وممارسين لطقوسهم الدينية ومعتقدين مخلصين بالإله الواحد كاثوليكيين ورسوليين ورومانيين؛ ولائحة أتباع إله إبراهيم، أو أتباع الله، الذين مروا بأعداد لا تصدق تحت الحديد لكونهم لم يجهروا بإيمانهم وفق الضوابط والقواعد؛ ولائحة أولئك المجهولين الذين لم يكونوا لا متمردين على السلطات التي تدعي التوحيد، ولا معارضين لها، ولا هاربين من التجنيد ولا حتى عنيدين ـ فكل هذه الحسابات المرعبة تشهد: إن نعت «الملحد» قبل أن يصف ناكر الإلوهية يصلح لمتابعة وإدانة فكر الإنسان المتحرر من السلطة ومن الوصاية الاجتماعية في مجال الفكر والتفكير، حتى لو كان ذلك بأتفه الطرق. من هو الملحد إذن؟ إنه شخص حر أمام الإله ـ بما في ذلك حريته في نفي وجوده.

# II
# مذهب الإلحاد والخروج من العدمية

## [١]

### ابتداء الإلحاد:

إن المسيحية الأبيقورية عند أيراسم أو مونتيني وعند غاسيندي ـ الكاهن القانوني لمدينة ديغني ـ، والمسيحية الشكاكة عند بيير شارون، لاهوتي كوندوم ومدير مدرسة بوردو الأكليروسية، والنزعة الإلهية الفلسفية عند البروتستانتي بايل وعند الأنجليكاني هوبس، كلها تجعل أصحابها أحيانا يعتبرون كفارا وملحدين. لكن هذا النعت لا يناسب هنا أيضا. فهم بالفعل مؤمنون مبتدعون ومفكرون متحررون، ولكنهم مسيحيون؛ إنهم فلاسفة أحرار بالرغم من كونهم تقليديا مسيحيين. فهذه التشكيلة الواسعة تمكِّن من الإيمان بالله دون إكراه أرثوذكسي يدعمه جيش وشرطة وسلطة. فهل يعتبر كاتب «المحاولات»[١] ملحدا؟ وماذا عن حجه إلى السيدة دي لوريت؟ وماذا عن مجاهراته بالإيمان الكاثوليكي التي تضمنها أهم كتاب له، وعن كنيسته الخاصة ووفاته في حضور القس في نفس ساعة ارتفاع المسيح ـ حسب زعمهم؟ لا، إن كل هذا

---

(١) ميشيل مونتيني (المترجم).

العالم الفلسفي يؤمن بالله.

لكن، لا بد من إنسان أول يكون مبتدع الأمر ولا بد من اسم علم يعتبر نصبا يمكن أن نؤكد من خلاله: هو هذا أول ملحد وأول من قال بعدم وجود الإله، والفيلسوف الذي يعتقد بذلك ويؤكده ويكتبه بصراحة وبجلاء وبلا زخرفة ودون المرور عبر الكثير من المضمرات وما لا نهاية له من الحذر وما لا ينقطع من الالتواء، يكون ملحدا جذريا. ملحد جريء، ملحد مؤكد! بل حتى فخور بذلك؛ رجل لا يكون إعلان إيمانه ـ إن جاز التعبير ـ موضوع استنتاج وتقدير، ولا ينبثق عن افتراضات ملتبسة لقراء يبحثون عن بداية قرينة إثبات.

وليس بعيدا عن هذا البشير الصريح بالإلحاد، كان بالإمكان أن يسمي هذا الرجل **كرستافيو فيريرا**، ذلك اليسوعي البرتغالي السابق المرتد عن دينه تحت تعذيب اليابانيين سنة١٦١٤. فخلال سنة ١٦٣٦، أي في السنة التي كان ديكارت يشتغل خلالها على كتاب **«مقال في المنهج»**، قام هذا القس الذي يفترض أن يكون إيمانه ضعيفا بعض الشيء ـ إذا ما اعتبرنا دقة الحجج التي لم تكن لتحضره فقط بمناسبة الردة ـ فعلا بكتابة **«الخداعة المكشوفة»**: وهو كتيب متفجر وجذري.

ويؤكد في ما يناهز الثلاثين صفحة فقط ما يلي: إن الله لم يخلق العالم؛ بل إن العالم لم يكن أبدا موضوع خلق؛ الروح فانية؛ لا وجود للنار وللجنة ولا للقدر؛ والأطفال الذين يموتون هم سالمون من الخطيئة الأولى التي لا توجد أصلا على أي حال؛ والمسيحية ابتداع بشري؛ والوصايا العشر سخافة فظيعة؛ والبابا شخصية لا أخلاقية وخطيرة؛ وأداء ثمن صلوات القداس وصكوك الغفران والطرد من الرحمة الإلهية والمحرمات في المأكل والمشرب وعذرية مريم، كلها هراء باطل؛ والبعث خرافة غير معقولة تبعث على الضحك

والفضيحة، وهي تعتبر تضليلا؛ والتعميد والإقرار الكنسي غباوة؛ وسر القربان المقدس استعارة؛ والحساب والعقاب هذيان لا يصدق. .

فهل هناك شحنة بارود أعنف ورمي أكثر تركيزا؟ ويواصل هذا اليسوعي: أما الدين؟ فهو من ابتكار بشر لكي يضمنوا السلطان على نظرائهم. وأما العقل؟ فهو الأداة التي تمكن من مقاومة كل هذا الهراء من القول؛ فكرستافيو فيريرا يفكك كل هذه الابتكارات الفضة. أملحد هو إذن؟ كلا، لأنه لم يقل، ولم يكتب ولم يؤكد ولم يعتقد في أي لحظة أن الله غير موجود. ثم إن هذا اليسوعي، تأكيدا لأطروحة أنه صاحب نزعة روحانية مؤمن مع ذلك، قد ارتد فعلا عن الديانة المسيحية، لكن ليعتنق مذهب الزن. . . لن يكون هو أول الملحدين هذه المرة، لكننا صرنا أقرب من ذي قبل. .

ستأتي المعجزة سريعا مع قس آخر «الأب ميسلي» وهو قديس وبطل وشهيد قضية الإلحاد؛ أخيرا يمكن اعتلامه! إنه راعي كنيسة إيتربينيي في الأردين، كان كتوما وحذرا طيلة مدة وظيفته، ما عدا مشاحنة مع سيد القرية؛ سيكتب جان ميسلي (١٦٦٤ ـ ١٧٢٩) هذا كتابا ضخما، «الوصية»، يلطخ فيه وجه الكنيسة والدين ويسوع المسيح والله وكذا الأرستقراطية والملكية والنظام القديم، ويدين بشدة وعنف كبيرين الظلم الاجتماعي والفكر المثالي ومذهب الألم في الأخلاق المسيحية، كما يجاهر في الآن نفسه بفكرة مشاعية فوضوية، وبفلسفة مادية طليعية وأصيلة، وبنزعة إلحادية استمتاعية حديثة بشكل مبهر.

فلأول مرة في تاريخ الفكر يخصص فيلسوف ـ متى سيتم الاعتراف له بذلك؟ ـ كتاباً لمسألة نزعة الإلحاد: إنه يدعو إليها ويؤكدها ويبرهن عليها ويحاجج فيها، ويستشهد ويبلّغ عن قراءاته وأفكاره، ولكنه يستند أيضا إلى شروحه عن العالم كما يسير. وعنوانه يقولها بصراحة: «مذكرة أفكار

وأحاسيس جان ميسلي»، وكذلك عرضه الذي يعلن فيه: «في البراهين الواضحة والجلية عن تفاهة وبهتان وزيف كل آلهة وكل ديانات العالم». ظهر هذا الكتاب في سنة ١٧٢٩ بعد وفاته؛ وقد اشتغل عليه لفترة طويلة من حياته. إن تاريخ نزعة الإلحاد الحقيقية قد بدأت. .

[٢]

**تنظيم النسيان:**

يحجب التأريخ الرسمي المهيمن الفلسفة الملحدة؛ فبالإضافة إلى النسيان الصريح للقس ميسلي، الذي حينما يتم التكرم بذكره ـ مرورا مر الكرام ـ تتم الإشارة إليه بغموض باعتباره حالة غريبة ومفارقة داخل مدرسة ـ كاهن كافر ـ، يتم البحث دون جدوى عن دلائل وآثار عمل جدير بهذا الاسم بين وجوه المادية الفرنسية مثلا: لاميتري ذلك الهائج المرح، ودوم ديشان مبتكر نزعة الهيغيلية المشاعية، ودولباش لاعن الرب؛ وهيلفيتيوس المادي الشهواني المذهب، وسيلفان ماريشال ومعجمه «معجم الملحدين»؛ بل وأيضا بين المنظرين الأيديولوجيين كاباني أو فولنيي أو ديستوت دو تراسي الذين يتم السكوت عنهم في الوقت الذي تفيض فيه خزانة المثالية الألمانية بالكتب والأبحاث والأعمال.

مثال: إن أعمال البارون دولباش لا توجد في الجامعة ولا وجود لطبعة عالمية أو علمية عند ناشر فلسفي له واجهة تطل على شارع؛ ولا وجود لأعمال أو أطروحات أو أبحاث حالية لأستاذ وازن ضمن المؤسسة؛ ولا توجد مؤلفات ضمن سلسلات الجيب، وبالطبع ليس الأمر أحسن من ذلك ضمن الطبعات الرفيعة؛ في الوقت الذي يتمتع روسو وفولتير وكنط ومونتسكيو بطبعاتهم الخاصة؛ ولا وجود لدروس أو حلقات دراسية تخصص لتفكيك ونشر فكر هذا

الفيلسوف؛ ولا وجود حتى لسيرة واحدة له. . . أمر محزن!!

إن الجامعة تجتر دائما بطريقة مملة لكي تبقى لازمة للعصر المسمى بعصر الأنوار مع العقد الاجتماعي لروسو وتسامح فولتير ونقدية كنط وفصل السلطات عن مفكر «لابريد» ـ مونتيسكيو ـ، وكل هذا التكرار الموسيقي المضجر في الفلسفة. ولا شيء بخصوص إلحاد دولباش، ولا حول قراءاته المصقولة والتاريخية للنصوص الإنجيلية؛ ولا شيء حول نقد ثيوقراطيا الحكم بالحق الإلهي المسيحي ونقد التواطؤ بين الدولة والكنيسة، ولا حول ضرورة الفصل بين الهيئتين؛ لا شيء حول جعل ما هو أخلاقي وديني أمرا ذاتيا مستقلا، ولا حول تفكيك الخرافات الكاثوليكية ودراسة مقارنة الأديان؛ ولا شيء حول الانتقادات لعمل الجامعة من طرف روسو وديدرو وفولتير وكل جماعة نزعة الإيمان الفلسفي بالله (déistes)، المتنورة زعما؛ ولا شيء حول مفهوم الحكم الفاضل أو إمكان أخلاق ما بعد مسيحية؛ ولا شيء حول سلطة العلم المفيدة في محاربة الاعتقاد؛ ولا شيء حول الحفريات التشريحية للفكر؛ ولا شيء حول التعصب الفكري المؤسس لعقيدة التوحيد المسيحية؛ ولا شيء حول خضوع السياسة الضروري للأخلاق؛ ولا شيء حول الدعوة إلى استعمال جزء من أموال الكنيسة لفائدة الفقراء؛ ولا شيء حول حركة الدفاع عن المرأة ونقد نبذ المرأة في الكاثوليكية. وغير ذلك من أطروحات دولبرشية التي تقترب من أسئلة الراهن بشكل مذهل. . .

صمت بخصوص ميسلي *اللاعن* في «الوصية»، (١٧٢٩) وصمت حول دولبرش معري *الخدع* في كتاب *«العدوى المقدسة»* (١٧٦٨)، وصمت نجده كذلك في نتاج التأريخ الرسمي حول فيورباخ المفكك في مؤلف «جوهر المسيحية» (١٨٤١)، تلك المحطة الثالثة الكبيرة في الإلحاد الغربي والعماد

المهم لعلم نفي اللاهوت athéologie جدير بهذا الاسم: ذلك أن لودفيغ فيورباخ يقترح تفسيرا لما هو الله. فهو لا ينفي وجوده، بل يشرِّح هذا الوهم والخرافة. والمسألة لا تتعلق بقول إن الله غير موجود بل: «**ما هو هذا الله الذي يعتقد به كل أو معظم الناس؟** » فيجيب: إنه تخييل وابتكار إنساني وصناعة تخضع لقوانين خاصة، هي الإسقاط والماهية؛ إذ يخلق الناس الله على شكل صورتهم المعكوسة.

فلما كان الناس فانين منتهين محدودين ومتألمين من هذا الإكراه، ولما كان الاكتمال يشغلهم، فإنهم يبتكرون قوة لها بالضبط الصفات المقابلة لصفاتهم؛ وانطلاقا من نقائصهم التي تقلب كما تقلب أصابع زوجي قفاز، يصنعون صفات يسجدون أمامها. أنا فان؟ والله حي لا يموت؛ أنا محدود؟ والله لا حد له؛ أنا منته؟ والله لا ينتهي. أنا لا أعلم كل شيء؟ والله عليم خبير. أنا لا أقدر على كل شيء؟ والله قدير. ليس لي قدرة الوجود في أكثر من مكان؟ والله موجود في كل مكان. أنا مخلوق؟ والله لم يخلق؛ أنا عاجز؟ والله جبار مقتدر؛ أنا في الأرض؟ والله في السماء؛ أنا ناقص؟ والله كامل؛ لست شيئا؟ والله كل شيء.

إن الدين يصير ممارسة للاستلاب بامتياز؛ فهو يقتضي قطيعة المرء مع نفسه وابتداع عالم متخيل توظف الحقيقة داخله من خلال التخييل. فعلم اللاهوت في نظر فيورباخ هو «عالم أمراض نفسية» وهو يضع في المقابل منه انتربولوجيته المستندة على نوع من «الكيمياء التحليلية». ولا يعدم هذا الفيلسوف مزاحا حين يدعو إلى «استشفاء من الهوائيات بالماء» ( hydrothérapie pneumatique) ـ، أي استعمال مياه العقل الطبيعي الباردة ضد حرارة وبخار الدين، والمسيحية بالخصوص...

ويبقى فيورباخ، رغم كل هذا الورش الفلسفي الهائل، ذلك المنسي الكبير في تاريخ الفلسفة السائدة. صحيح أن اسمه يظهر أحيانا ولكن لأنه في زمن تألق ألتوسير وقع اختيار هذا المبرز المعيد بالمدرسة العليا عليه باعتباره حلقة هيغيلية مفيدة لبيع تحليله لماركس الشاب وقراءته لكتاب «**مخطوطات سنة ١٩٤٤**» ثم لـ «**الأيديولوجية الألمانية**» بعد ذلك. لم يكن الأمر بالنسبة لألتوسير مناسبة لتهييئ يوم الثورة الاجتماعية بقدر ما كان تحضيرا للاختبار الشفهي لطلبته بسلك التبريز سنة ١٩٦٧ . . . فغاب النبوغ الحقيقي لفيورباخ تحت الاعتبارات النفعية للأستاذ. أحيانا يكون النسيان الخالص خيراً من فهم سيِّئ أو سمعة خاطئة تدوم. .

[٣]

## زلزال فلسفي:

وجاء نيتشه. . . . . بعد لعنات القس ميسلي للرب وبعد رفع الكيميائي ـ كان دولباش يمارس الجيولوجيا والعلم على مستوى رفيع ـ للأقنعة الأسطورية، وبعد التفكيك الذي قاده رب العمل ـ لم يكن فيورباخ يمتهن الفلسفة، فقد رفضته الجامعة لكونه نشر كتاب «**أفكار حول الموت والخلود**» نفى فيه خلود الروح، ولكنه كان فيلسوفا من خلال زواج مالك يساري بمعمل خزف يحبه العمال ـ؛ بعد كل ذلك ظهر نيتشه. فصار للفكر المثالي والروحاني وللفكر اليهودي ـ المسيحي ولفكرة ثنائية العالم، بل قل صار معها لكل الفكر السائد أن يقلق أخيرا؛ فقد كان مذهبه الموحد للوجود والشهواني (monisme dionysiaque)، ومنطق القوى عنده ومنهجه الحفري الجنيالوجي وأخلاقياته الملحدة، كانت تمكِّن كلها من تصور مخرج من المسيحية. وظهر لأول مرة في التاريخ داخل المشهد الغربي نسق فكري ما بعد ـ مسيحي مكتمل وجذري.

وكتب نيتشه على سبيل الهزل (؟) في كتاب «هذا الإنسان» (ecce homo)، أنه يشق التاريخ إلى شطرين، وأنه مثل المسيح يفصل ما قبل عن ما بعد. . . كان ينقص فيلسوف بلدة سيلس ـ ماريا هذا قديسه بولس (Paul) وإمبراطوره قسطنطين، أي تاجره الرحال المصاب بالهستيريا وإمبراطوره الكوني، لكي يحولا اهتداءه إلى تغيير لوجه الكون؛ وهو أمر لم يكن ممكنا تمنيه من المنظور التاريخي؛ فدیناميت فكره يشكل خطرا كبيرا جدا بالنسبة لهذه البهائم التي ما تزال تحرك التاريخ الملموس.

لكن أب زرداشت كان محقا على الساحة الفلسفية؛ فالعالم الأيديولوجي قبل كتابَي «في ماوراء الخير والشر» و«نقيض المسيح» ليس هو نفس العالم بعدهما؛ لقد فتح نيتشه ثغرة في البناء اليهودي المسيحي. وهو دون أن يكون قد أتم مهمة نفي اللاهوت كلية لوحده، فقد جعل هذه المهمة ممكنة. تلك هي الفائدة في أن يكون المرء نيتشويا. ماذا يعني ذلك؟ فأن يكون المرء نيتشويا ـ وهو ما لا يعني أن يكون المرء نيتشه كما يعتقد الأغبياء ـ أمر يستبعد إعادة ترديد كبرى أطروحات هذا الفيلسوف لحسابه الخاص: أطروحات الحقد، والعود الأبدي والإنسان الأسمى، وإرادة القوة، وفيزيولوجيا الفن، وغيرها من لحظات عظيمة للنسق الفلسفي. لا حاجة ـ وما الفائدة من ذلك؟ ـ لأن يعتبر المرء نفسه نيتشه وأن يعتقد أنه هو، وأن يستوجب تحمل مسؤولية تم حملها ثقل كل فكره؛ وحدها العقول القاصرة تتصور ذلك. .

أن تكون نيتشويا يفترض أن تفكر انطلاقا من نيتشه، وأن تفكر انطلاقا من نفس أن يكون المرء نيتشوي الفكر يقتضي أن يفكر انطلاقا من نيتشه، وأن يفكر انطلاقا من نفس المكان حيث تغير وجه الورش الفلسفي وهيئته من خلال مرور هذا الفيلسوف عبره. لقد كان نيتشه يدعو إلى تلامذة يخونون ولا يخلصون؛

تلامذة يفترض أن يثبتوا إخلاصهم من خلال الخيانة: كان يريد أن يطيعه الناس من خلال إتباع ذواتهم فقط، لا من خلال إتباع الغير بما في ذلك هو نفسه. إن شخصيات الجمل والأسد والطفل في كتابه «هكذا تكلم زرادشت» تقوم بتلقيننا جدلا وشعرية عمليين: أي يجب الحفاظ على الفيلسوف مع تجاوزه؛ ويجب بالفعل تذكر أعماله ولكن الأهم من ذلك هو الاعتماد عليها كما يتم أعتماد رافعة ضخمة من أجل نقل وتحويل الجبال الفلسفية.

هناك إذن ورش جديد وأسمى لحركة الإلحاد: لقد نفى ميسلي كل ألوهية، وفكك دولباش المسيحية، بينما فكك فيورباخ فكرة الإله، ويكشف نيتشه عن فكرة «تجاوز القيم السائدة» : (transvaluation) أي أنه لا ينبغي على الفكرة الإلحادية أن تكون غاية في حد ذاتها فقط. صحيح أنه يجب إلغاء الإله، لكن من أجل ماذا؟ من أجل أخلاق جديدة وقيم جديدة لم يسبق لها أن ظهرت ولم يفكر فيها من قبل، لأنها لم تكن قابلة لذلك؛ هذا ما سيمكنه تحقيق الإلحاد وتجاوزه. مهمة خطيرة وقادمة.

يحكي كتاب «نقيض المسيح» قصة النزعة العدمية الأوروبية ـ التي ما تزال نزعتنا اليوم. . . ـ، ويقترح دستور أدوية لهذه الأمراض الميتافيزيقية والأنطولوجية في حضارتنا. ويعرض نيتشه حلوله؛ نحن نعرفها: إنها تتهم ما يفوق قرنا من الوجود ومن سوء الفهم. فأن تكون نيتشويا يعني أن تقدم افتراضات أخرى وافتراضات جديدة وما بعد نيتشوية، ولكن من خلال ولوج صراعه فوق القمم. إن أشكال العدمية المعاصرة تستدعي أكثر من أي وقت مضى مبدأ «تجاوز القيم السائدة» (transvaluation) يتجاوز أخيرا كل الحلول والافتراضات الدينية والعلمانية المنحدرة من ديانات التوحيد. يجب على زرادشت أن يستأنف الخدمة: فوحده مذهب الإلحاد يجعل الخروج من العدمية ممكنا.

[٤]

## تدريس الشأن الإلحادي:

في الوقت الذي تنذر فيه أحداث الحادي عشر من سبتمبر، التي شهدتها ألولايات المتحدة وبالتالي الغرب، كل واحد بأن يختار معسكره ضمن الحرب الدينية التي يفترض أن تجابه فيها اليهودية ـ المسيحية الإسلام، يكون بإمكاننا أن نقرر الإفلات من طرفي هذه المتناوبة اللذين يطرحهما المتصارعان فنختار الموقف والموقع التنشوي: لا يهودية ـ مسيحية ولا إسلام، لسبب وجيه هو أن المتحاربين هم بصدد إكمال حربهم الدينية التي بدأت منذ الدعوات اليهودية في «كتاب حروب الرب» بالتوراة، التي تبرر الحرب والقتال الدامي ضد الأعداء، وحتى التعديلات المتكررة على هذا الموضوع في القرآن والقاضية بسحق الكفار. أي إن هناك ما يقارب ٢٥ قرنا من الدعوة إلى الجريمة من هذا الجانب وذاك. درس نيتشه هو كالتالي: يمكننا أن لا نقبل الاختيار من بين الديانات التوحيدية الثلاث؛ يمكنك أن لا نختار إسرائيل والولايات المتحدة دون أن يجبرك ذلك حتما أن تصير رفيق درب حركة الطالبان.

إن التلمود والتوراة والإنجيل والعهد الجديد والقرآن والأحاديث لا تبدو ضمانات كافية لكي يختار الفيلسوف بين نبذ النساء عند اليهود والمسيحيين والمسلمين، ولا لكي يختار أن يكون ضد الخنزير والكحول ومع الحجاب والبرقع، ولا لكي يتردد على الكنيس اليهودي أو الدير والكنيسة أو المسجد وكل تلك الأمكنة التي يكون فيها الذكاء مريضا وحيث يتم، منذ قرون، تفضيل طاعة العقائد والخضوع للقانون المطلق ـ، وبالتالي الخضوع لمن يدعون أن الله اختارهم وأنهم رسله وكلمته.

ففي الوقت الذي تطرح فيه مسألة تدريس الشأن الديني في المدرسة تحت

دعوى بناء رابط اجتماعي وإعادة لحم مجتمع أهمل إهمالا ـ وللتذكير فذلك كان بسبب نزعة ليبرالية تنتج السلبية في الحياة اليومية ـ، وبدعوى إنتاج صنف جديد من العقد الاجتماعي واستعادة الأصول المشتركة ـ وهي بالمناسبة ذات فكرة توحيدية ـ، يبدو لي أنه يمكننا أن نفضل على ذلك تدريس الشأن الإلحادي. فكتاب «جينيالوجيا الأخلاق» (نيتشه) أفضل «رسائل إلى الكورنثيين» (القديس بولس).

إن الرغبة بإعادة إدخال الإنجيل من النافذة ومعه باقي ترهات الديانات التوحيدية التي أخرجتها من الباب قرون عديدة من الجهود الفلسفية ـ منها فكر الأنوار والثورة الفرنسية واشتراكية حكومة باريس الثورية لسنة ١٨٧١، واليسار والجبهة الشعبية والفكر الفوضوي المتحرر وحركة مايو ١٩٦٨؛ بل وكذلك فرويد وماركس ومدرسة فرانكفورت ومدرسة الشك عند نتشاويي اليساري الفرنسي ـ : إن هذه الرغبة هي بصريح العبارة رضا بالفكر الرجعي. ولكن ليس على صيغة جوزيف دي ميتر أو لويس بونالد أو بلان دي سان بونيه ـ هؤلاء المحتالون الكبار. . ـ، بل على الصيغة الغرامشية لعودة المثل المذوبة والمستترة والمتنكرة والمتفاعلة بنفاق مع اليهودية المسيحية.

لا يتم تمجيد مزايا ثيوقراطيا الحكم بالحق الإلهي صراحة، ولا يتم اغتيال ثورة ١٧٨٩ ولا يتم نشر نص صريح بعنوان «حول البابا» للاحتفال بسمو القوة السياسية للحبر الأعظم، ولكنه يتم حجر الفرد وإنكار حقوقه ومعاقبته من خلال واجبات بالجملة، ويتم تمجيد الجماعة ضداً على جوهر الفرد، والدعوة للتسامي والتنزه وإعفاء الدولة وطفيليها من تقديم البيانات والحسابات بدعوى حصانتها الوجودية، كما يتم تجاهل الشعب ونعت من يهتم به بالشعبوية وبالغوغائية ويتم احتقار الفلاسفة والمفكرين الذين يقومون بعملهم ويقاومون الواقع؛ واللائحة طويلة. .

لم يسبق لما سمي خلال القرن الثامن عشر بـ «الفلسفة المضادة» l'antiphilosophie أن عرفت مثل اليوم ذلك القدر من الحيوية والنشاط: فهناك عودة الديني، وفي ذلك دليل على أن الإله لم يمت بل كان فقط غافيا لبعض الوقت وأن استيقاظه يعِد بأيام قادمة تزيل الوهم. كل هذا يجبرنا على استعادة المواقع التي كنا نعتقد أنها انتهت بلا رجعة، ويضطرنا إلى امتطاء متراس الإلحاد من جديد. فتدريس الشأن الديني يعيد إدخال الذئب إلى الحظيرة؛ فما لا يمكن للقسيسين فعله علنا، يكون بإمكانهم فعله في هدوء من خلال تدريس خرافات العهدين القديم والجديد ونقل تخييلات القرآن والأحاديث تحت دعوى تسهيل وصول التلاميذ إلى فهم مارك شاغال و«الكوميديا الإلهية» وكنيسة السكستين وموسيقى زرياب....

والحال أن الأديان يجب أن تدرس ضمن المسار الدراسي الموجود أصلا - من فلسفة وتاريخ وأدب وفنون تشكيلية ولغات وغير ذلك.. - مثلما تدرس العلوم البدائية مثل الخيمياء ضمن مادة الكيمياء، وفراسة الدماغ والفلك النباتي ضمن العلوم الطبيعية، والطوطمية والفكر السحري ضمن الفلسفة، والهندسة الأقليديسية ضمن الرياضيات، والأسطورة ضمن التاريخ.... أو تبيان كيف أنه، معرفيا، تكون الأسطورة والخرافة والتخيل واللا عقل سابقة على العقل والاستنباط والحجاج. إن الدين يصدر عن شكل عقلاني بدائي وجينيالوجي ومحدد تاريخيا. ويحمل تجديد نشاط هذه القصة ما قبل التاريخية على التأخر، بل حتى على الإخفاق في إنجاز قصة اليوم والغد.

أما تدريس الشأن الإلحادي فإنه سيفترض دراسة حفرية جنيالوجية للحس الديني: الخوف والقلق والعجز عن مشاهدة الموت مباشرة وذلك الوعي المستحيل بعدم الكمال وبحتمية الانتهاء عند البشر الذي يعتبر الدور الأهم

والمحرك الأساس للقلق الوجودي. أما الدين، ذلك الابتكار التخييلي، فيفترض أن تستدعي تفكيكا حقيقيا لعلاجاتها والأنطولوجية البديلة ـ، مثلما تعرض الفلسفة لمسألة السحر والحمق والهوامش من أجل إنتاج تعريف للعقل والإحاطة به.

[٥]

## بنائية الصفائح:

إننا ما زلنا نعيش في مرحلة لاهوتية ودينية من الحضارة، وهناك إشارات تبين على أن هناك حركات تشبه ببنائية الصفائح الأرضية: حركات اقتراب وتباعد، وتحركات وتداخلات وانهيارات وفرقعات. توجد القارة ما ـ قبل المسيحية باعتبارها كذلك: من عالم الأساطير لما قبل سقراط وحتى الرواقية الإمبراطورية، ومن بارميندوس إلى إيبكتيت يبدو المجال الوثني مرسوما بوضوح. ونهتدي بين هذا المجال وبين القارة المسيحية إلى أمكنة اضطراب وشغب: منذ العصر الذهبي لنبوءات الألفية خلال القرن الثاني من التاريخ المشترك وحتى ضرب عنق لويس السادس عشر الذي يسجل النهاية المفتوحة للحكم بالحق الإلهي، تبدو الجغرافية متناسقة هي كذلك؛ ومن آباء الكنيسة وحتى النزعة الإلهية العلمانية في عصر الأنوار، يظهر منطق الأشياء جليا.

أما هذا الزمن الثالث الذي نسير باتجاهه ـ القارة الما بعد ـ مسيحية ـ، فإنه يشتغل بنفس طريقة ما كان يفصل القارتين الوثنية والمسيحية. فنهاية ما قبل ـ المسيحية وبداية ما بعد ـ المسيحية يتشابهان بشكل غريب: نجد نفس العدمية ونفس أشكال القلق ونفس التجاذب الحيوي بين النزعة المحافظة والغواية الرجعية؛ وبين التطلع للماضي وديانة الجمود، من جهة، والنزعة التقدمية والوضعية وعشق المستقبل، من جهة ثانية. ويلعب الدين الدور الفلسفي للحنين إلى الماضي؛ بينما تلعب الفلسفة دور التطلع المستقبلي.

يمكن رصد هذه القوى المحتكة بوضوح؛ وليس في الأمر يهودية مسيحية غربية تقدمية ومتنورة وديمقراطية ضد إسلام شرقي ماضوي وظلامي؛ بل هناك ديانات الأمس التوحيدية ضد إلحادية الغد. كما أن المسألة ليست جورج بوش ضد بن لادن، بل موسى وعيسى النبي محمد، ومعهم ديانات كتبهم، ضد البارون دولباش وليدفيغ فيورباخ وفريدريش نيتشه، ومعهم صيغهم الفلسفية الجذرية في تفكيك الأساطير والتخييلات.

ستنتشر ما بعد ـ المسيحية تاريخيا مثلما انتشرت سابقا ما قبل ـ المسيحية: فالقارة التوحيدية ليست محصنة ضد فيضان المحيط؛ كما ديانة الإله الواحد ـ على غرار الشيوعية بالنسبة للبعض بالأمسوالليبرالية بالنسبة للبعض الآخر اليوم. . . ـ لن يمكنها أن تكون الأفق الذي لا يمكن تجاوزه في الفلسفة وفي التاريخ عموما. وبما أن عصرا مسيحيا قد عقب عصرا وثنيا، فإن عصرا ما بعد مسيحي سيواصل المسير حتما؛ وتؤكد فترة الاضطرابات التي نعيش في خضمها أن اللحظة هي لحظة إعادة تشكل للقارات. وهنا تكمن أهمية مشروع نفي اللاهوت الإلحادي.

# III

# نحو مشروع لنفي اللاهوت

## [١]

### رسم لأطياف العدمية:

يبدو عصرنا ملحدا، لكن ذلك فقط في نظر المسيحيين والمؤمنين. إنه بالأحرى عدمي؛ فنساك الأمس وما قبله لهم كل المصلحة في تمرير السوء والسلبية المعاصرة على أنها نتاج للإلحاد، إذ ما يزال هناك إصرار على الفكرة العتيقة للملحد الداعر الذي لا أخلاق له ولا إيمان ولا قانون قيم. فتلك الفكرة النمطية الجاهزة لأقسام السنة الثانوية النهائية والتي مفادها **«إذا لم يكن الله موجودا فكل شيء مباح»** ـ وهي لازمة رتيبة مأخوذة عن رواية *«الأخوة كارامازوف»* لدوستويفسكي ـ مازالت تفعل فعلها، فصار كل من الموت والحقد والبؤس يلصق بأفراد يفترض أنهم يحتجون بغياب الإله لاقتراف جرائمهم الشنيعة. وتستحق هذه الأطروحة الخاطئة تفكيكا حقيقيا، لأن العكس يبدو بالأحرى هو الصائب أي: **«لأن الله موجود فكل شيء مباح»**، سأوضح الفكرة. هناك ثلاث ألفيات تشهد على ذلك، منذ أولى نصوص العهد القديم وحتى يومنا هذا: فتأكيد وجود الإله الواحد، العنيف، الغيور، المحب

للخصام، المتعصب والداعي للقتال، قد ولَّد الحقد والدم والموت والعنف، بدل السلام. . . . فهناك ذلك التصور الخيالي عند اليهود بكونهم شعب الله المختار الذي يعطي الشرعية للاستعمار ولانتزاع أملاك الغير وللحقد والبغض بين الشعوب؛ وهناك الإحالة المسيحية على قصة تجار المعبد، أو على يسوع البوليسي وهو يدِّعي المجيء لحمل السيف، الذي يعطي الشرعية للحروب الصليبية ولمحاكم التفتيش وللحروب الدينية وللمجازر ضد البروتستانت والمحارق وفهارس الكتب المحرمة، بل وتبرر كذلك الاستعمار الكوني والتصفية العرقية في شمال أمريكا، ودعم النزعات الفاشية خلال القرن العشرين، وكذا السلطة الدنيوية المطلقة للفاتيكان على أدق تفاصيل الحياة اليومية منذ قرون؛ وهنالك التبني البيِّن لدعوة تدمير الكفار وديانتهم وثقافتهم وحضارتهم، بل وحتى اليهود والنصارى، على طول كل صفحات القرآن تقريبا ـ وذلك كله باسم إله رحيم! . هاهي إذن طرق كافية للغوص في هذه الفكرة التي تعني أنه بسبب وجود الله يكون كل شيء مباحا ـ فيه وبه وباسمه ودون أن يجد لا المؤمنون ولا رجال الدين ولا عامة الشعب ولا نخبته العالية ما يطعنون فيه. . .

وإذا كان وجود الله، بمعزل عن شكله اليهودي أو المسيحي أو المسلم، يقي بشكل من الأشكال من أخطار الحقد والكذب والاغتصاب والنهب واللا أخلاق والابتزاز والاختلاس ونكث العهد والعنف والاحتقار والإساءة والجريمة والفساد والمكر وشهادة الزور والرذيلة واستغلال الأطفال جنسيا وقتلهم والخلاعة ونذالة الخلق، لكنا رأينا، ليس الملحدين ـ بما أنهم فاسدون أصلا ـ، بل الحاخامات والقساوسة والباباوات والأساقفة ورعاة الكنائس والأئمة ومعهم أتباعهم المؤمنون، كل المؤمنين ـ وهو ما يشكل عالما كبيرا ـ،

لكنا رأيناهم يفعلون الخير، ويتفوقون في الفضيلة، ويعطون المثال مبرهنين للفاسدين، الذين لا إله لهم، أن الأخلاق توجد في جهتهم: فليحترموا الوصايا العشر، وليستجيبوا لدعوة السور المختارة؛ ولا يكذبوا ولا ينهبوا إذن، ولا يسرقوا ولا يغتصبوا ولا يشهدوا الزور ولا يقتلوا ـ أو أكثر من ذلك فليمتنعوا عن التحريض على هجمات إرهابية على مانهاتن وعلى الحملات التأديبية في قطاع غزة وعلى الغطاء على دسائس قساوستهم المستغلين للأطفال جنسيا. كنا آنذاك سنرى المؤمنين يهتدون حولهم بفضل سلوكهم المتألق والمثالي! لكننا بدل هذا نجد. . .

لنتوقف عن ربط الشر فوق الأرض بالإلحاد! ويبدو لي أن وجود الله قد أنتج باسمه من المعارك والمجازر والصراعات والحروب أكثر مما أنتج من السلام والسكينة ومحبة القريب وغفران الذنوب والتسامح. لم يبلغ إلى علمي أن الباباوات والأمراء والملوك والخلفاء قد تألقوا وتفوقوا في ميدان الفضيلة، مادام موسى وبولس ومحمد قد كانوا بالتتالي بارعين قبلهم في القتل وفي الخبط وفي الغزوات ـ يشهد على ذلك رواة السير. وفي ذلك ما يكفي من تغييرات على موضوع محبة القريب. . .

يخبرنا تاريخ الإنسانية، دون أدنى شك، عن انتصارات الرذيلة وعن مآسي الفضيلة. . . أن عدالة السماء ليس أعدل من عدالة الأرض. فأن يوجد الله أو لا يوجد، لم يكن أبدا لأحد أن يؤدي ثمن قذفه له أو إهماله أو ازدرائه أو نسيانه أو معاكسته! فأتباع فكرة الله (théistes) لهم عمل شاق من التشنجات الميتافيزيقية لتبرير الشر فوق الأرض، مع تأكيدهم لوجود الله الذي لا تخفى عليه خافية! أما أنصار فكرة الله فلسفيا (déiste)، فيبدون أقل عمى منهم، بينما يبرز الملحدون كأصحاب بصيرة.

[٢]

## عالم معرفة يهودية ـ مسيحية

إن العصر الذي نعيش فيه اليوم ليس ملحدا إذن ولا يبدو أنه ما بعد ـ مسيحي، أو ربما كان كذلك قليلا جدا. لكنه يظل بالمقابل مسيحيا، بل هو أكثر مما يبدو عليه. أما النزعة العدمية فمردها إلى تلك الاضطرابات المسجلة في منطقة الانتقال بين ما هو يهودي ـ مسيحي، حاضر بقوة، وما هو بعد مسيحي، الذي يبرز بخجل. يوجد الكل في جو يتشابك فيه، يتقاطع فيه غياب الآلهة وحضورها وتكاثرها وتعددها الغريب وغرابتها. إن السماء ليست خاوية، بل هي بالعكس من ذلك ممتلئة بآلهة تُصنع يوما بيوم. وأما السلبية فهي نتيجة نزعة عدمية متأصلة في هذا التعايش القائم بين مكون يهودي ـ مسيحي مائع ومكون ما بعد ـ مسيحي ما زال في المهد.

وفي انتظار عصر ملحد بصريح العبارة، لا بد لنا من التعايش مع «عالم معارف» يهودية ـ مسيحية راسخة ومرسخة، خصوصا وأن مؤسساتها ورجالاتها التي جسدتها ونقلتها مدة قرون لم تعتمد مظاهر وتجليات تجعل التعرف عليها سهلا. إن محو الممارسة الدينية والاستقلال الظاهر للأخلاق عن الدين، وعدم الاهتمام المزعوم بمآدب البابوية، والكنائس الفارغة يوم الأحد ـ لكن ليس الأمر كذلك حين عقد القران، وأكثر منه عند تشييع الجنائز. . . ـ، وكذا فصل الكنيسة عن الدولة، كلها علامات تعطي الانطباع بعصر غير مكترث بالدين.

لكن لنحذر ذلك. . . فربما لم يحدث أبدا أن كان مثل هذا التواري يخفي حضورا شديدا وقويا وحاسما لليهودية ـ المسيحية. إن اللامبالاة بالممارسة الدينية لا تشهد على تراجع الإيمان؛ بل إن الربط بين انتهاء الممارسة واختفاء الإيمان يعتبر خطأ في التأويل. ويمكننا الزعم أن انتهاء احتكار محترفي الدين

للشأن الديني قد حرر اللامعقول، وولد إنتاجا وفيرا للمقدس وللعاطفة الدينية وللخضوع العام للا عقل.

إن انسحاب جيوش اليهودية ـ المسيحية لم يغير شيئا من سلطتها ونفوذها على الأراضي التي احتلتها واحتفظت بها وسيرتها على مدى ما يقارب الألفي عام. إن الأرض مكسب والجغرافيا شهادة على حضور قديم وعلى نفخ إيديولوجي وذهني وتصوري وروحي؛ فحتى حين يغيب الغزاة، يظلون حاضرين لأنهم فتحوا أجسام وأرواح وأجساد ونفوس أكثر الناس؛ وانسحابهم الاستراتيجي لا يعني نهاية نفوذهم الفعلي. إن اليهودية ـ المسيحية تترك وراءها «عالم معرفة» وقاعدة تنجز على أساسها كل المبادلات الذهنية والرمزية. فبدون القس وبدون ظله، وبدون رجال الدين وبدون حاملي مبخرات طقوسهم، يظل الرعايا خاضعين مشكلين ومؤطرين بألفي سنة من التاريخ ومن الهيمنة الأيديولوجية. هنا يكمن استمرار الصراع وراهنيته ضد هذه القوة التي تظل مصدر تهديد بقدر ما تعطي الانطباع بكونها بالية.

صحيح أنهم كثر من لا يؤمنون بسر التحول وبالقربان المقدس وبطهارة مريم وبمعجزة ولادة عيسى وبعصمة البابا وغيرها من عقائد الكنيسة الكاثوليكية الرسولية الرومانية. لكن ماذا عن الحضور الحقيقي وليس الرمزي لجسد المسيح في خبز وشراب قداس الأحد؟ وماذا عن الجحيم والجنة أو عن صراط التطهير المرتبط بجغرافيا ومنطق خاصين؟ وماذا عن مقام أرواح الأطفال الذين يموتون قبل التعميد؟ لم يعد أحد يقبل هذا الهراء حتى بين عدد من الكاثوليك الورعين والمخلصين للقداس الرباني.

أين يكمن إذن الأساس الكاثوليكي؟ وماذا عن «عالم معرفة» الديانة اليهودية ـ المسيحية؟ إن ذلك يكمن في فكرة أن المادة والواقع والعالم لا يستنفدون كل

شيء، وأن هناك «شيئا ما» يظل خارج هذه الهيئات المفسرة الجديرة بهذا الاسم: قوة وسلطة وطاقة وحتمية ورغبة وإرادة. أيكون ذلك بعد الموت؟ لا، بتاتا... لكن الأمر يتعلق بـ «شيء ما»... هل يجب اللجوء إلى تسلسل الأسباب وإلى المترابطات المنطقية والاستنباطية لتفسير ما يحصل؟ لا، ليس دائما؛ فهنالك «شيء ما» يتجاوز التسلسل المنطقي.. ومشهد العالم، أهو عبثي ولا عقلاني ولا منطقي وفظيع ولا معنى له؟ لا، أبدا... فثمة «شيء ما» يوجد بالضرورة وهو الذي يعلل ويعطي الشرعية، ويمنح المعنى لكل هذا. وإلا...

يولّد الإيمان بـ «شيء ما» معتقدات خرافية صلبة تجعل الأوروبي، في حالة غياب تفسير ما، يقبل بالدين السائد بالبلد الذي رأى فيه النور ـ دين الملك وحاضنته، يكتب ديكارت.. ـ. ويؤكد مونتيني أن المرء يكون مسيحيا مثلما يكون باريزيا أو ألزاسيا... اكما أن كثيرا ممن يظنون أنهم ملحدون يجاهرون ويدعون، دون أن يلحظوا لذلك، بأخلاق وفكر ورؤية للعالم تسقيها الفكرة باليهودية المسيحية. فبين موعظة قس صادق عن فضائل عيسى وتقريظ للمسيح من قبل كروبوتكين، صاحب الفكر الفوضوي في كتابه «الأخلاق»، نظل نبحث دون جدوى عن الهوة الفارقة وعن الخندق الفاصل...

إن مذهب الإلحاد يفترض المؤامرة في كل عالم مفارق ومتعال، دون استثناء؛ كما أنه يجبر على تجاوز كل المكاسب المسيحية، أو يفرض على الأقل الحق بالجرد وبالنظر الحر بالفضائل التي تقدم على أنها كذلك وبالرذائل المجزوم بتأكيدها. إن إعادة تفحص قيم الكتاب المقدس بعين علمانية وفلسفية مع المحافظة عليها ثم استعمالها لا يكفي لخلق عالم أخلاق ما بعد ـ مسيحية.

يقترح كنط أخلاقا علمانية في كتابه «الدين في حدود العقل البسيط». لنراجع

هذا النص الأساسي لتشييد أخلاق علمانية في تاريخ أوروبا، وسنكتشف داخله صياغة فلسفية لإرث يهودي ـ مسيحي لا يخمد. إننا نهتدي فعلا إلى الجانب الثوري في الشكل والأسلوب والمعجم، وهو جانب جلي بين بالنظر إلى الهيئة والمظهر. لكن أين يكمن وجه الاختلاف بين الأخلاق المسيحية والأخلاق الكنطية؟ لا نجد اختلافا يذكر.. إن الجبل الكنطي قد أنجب فأرا مسيحيا...

ـ ألا يسخر الناس من أقوال البابا وهو يدين العازل الطبي؟، لكنهم ما زالوا يتزوجون كثيرا داخل الكنيسة ـ إرضاء للأهل وأهل الزوج، يزعم المنافقون. ألا يبتسم الناس عند تلاوة تعاليم المسيحية ـ إلا إذا كان الأمر يدفعه للاطلاع والاستطلاع..؟ لكنهم يسجلون أرقاما زهيدة من الجنائز المدنية.. ألا يستهزئ الناس من الكهنة ومن عقائدهم؟ ولكنهم يلحون بطلبات المباركة، تلك الأشكال الحديثة لصكوك الغفران التي تصلح بين المنافقين من الضفتين: يتعايش طالبو المباركة مع محيطهم، بينما يستعيد المحتفلون بالقداس بعضا من زبنائهم..

[٣]

## آثار الإمبراطورية

كان ميشيل فوكو يطلق تسمية «عالم معرفة» (épistémè) على ذلك الجهاز الخفي، لكن الناجع، الذي يكونه خطاب ورؤية للأمور وللعالم وتمثل الواقع تسجن عصرا من العصور وتبلوره وتجمده في تجسيدات ثابتة. ف «عالم المعرفة» اليهودي ـ المسيحي ينعت ما يشكل ـ ابتداء من الأزمات الهستيرية للقديس بولس على طريق دمشق، وحتى الخطب التلفزيونية الكونية ليوحنا بولس الثاني في ساحة القديس بيير ـ إمبراطورية مفاهيم وذهنيات تنتشر في مجموع دواليب حضارة أو ثقافة معينة. وسأورد مثالين، من بين عدد كبير من

الأمثلة الممكنة، لكي أستشهد وأبين فرضيتي المتعلقة بالإشباع، هما: مثالي الجسد والقانون.

ـ إن الجسد الغربي مسيحي في أساسه، بما في ذلك جسد الملحدين والمسلمين والربوبيين واللا أدريين الذين تربوا أو تم ترويضهم ضمن المجال الجغرافي والأيديولوجي اليهودي ـ المسيحي، . . . فالجسم الذي نسكنه وذلك التصور الأفلاطوني ـ المسيحي للجسد الذي ورثناه وكذا رمزية الأعضاء ووظائفها المتراتبة ـ من سمو للقلب والدماغ، وتفاهة وابتذال الأحشاء والعضو التناسلي؛ أي أن المتخصص في جراحة الأعصاب يجد نفسه ضد المتخصص في المخارج البولية والشرجية ـ، وكذا إعطاء الروح بعدا غير مادي، والربط بين مادة ذات طبيعة شريرة وبين روح نورانية الجوهر، والدلالة الوجودية لهذين الكيانين ذوي التعارض المصطنع والقوى المقلقة لنظام شهواني يكون موضوع توجس أخلاقي؛ كل هذا يهيكل بنية الجسد من خلال ألفي عام من الخطاب المسيحي. صحيح أن علوم الطب والتشريح ووظائف الأعضاء تساهم في البناء المسيحي للجسد، لكن الفلسفة وعلم اللاهوت وعلم الجمال تساهم في ذلك أيضا.

إن النظر إلى الذات، نظر الطبيب وتقني التصوير الطبي؛ وفلسفة الصحة والمرض وتصور المعاناة ووظيفة الألم المقبولة ومن ثم العلاقة بالصيدلة وبالمواد والعقاقير؛ وخطاب المعالِج مع المعالَج؛ بَل وكذلك علاقة الذات بذاتها وهضم صورة للذات وبناء مثال للأنا من خلال علوم وظائف الأعضاء والتشريح والنفس؛ لا شيء من كل هذا يتأسس من دون الخطابات السالفة الذكر. ويصل الأمر إلى درجة أن كلا من علم الجراحة، وعلم الصيدلة وطب المداواة التقليدي والعلاجات المسكنة، وعلم الأمراض النسائية، ومبحث

بواعث الموت، وشعبة المستعجلات، ومبحث الأورام، والطب النفسي العقلاني، والعيادة، كلها تخضع للقانون اليهودي ـ المسيحي، دون أن تكون هناك إمكانية خاصة لرؤية أمارات هذه العدوى الوجودية.

إن الفزع الأخلاقي الذي يشهده علم الأحياء المعاصر ينجم عن هذه السيطرة الخفية؛ فالقرارات الرسمية العلمانية حول الموضوع تتوافق كثيرا مع المواقف المعلن عنها من قبل الكنيسة بشأن هذه المواضيع الكبرى. ولن نندهش من ذلك لأن أخلاقيات «أخلاق علم الأحياء» (bioéthique) تبقى في أساسها يهودية ـ مسيحية؛ فباستثناء تشريع الإجهاض ومنع الإنجاب الاصطناعي ـ، وهما مقدمة للمضي نحو الجسد ما بعد ـ مسيحي الذي سميته بالجسد الفوستوي، لا يزال الطب الغربي ملتصقا بدعوات الكنيسة.

إن **«ميثاق موظفي ومستخدمي قطاع الصحة»**، الذي وضعه الفاتيكان، يدين مبحث التعديل الوراثي، والتجارب على الأجنة، وتخصيب الأنابيب، والأمهات الحاملات، والإنجاب المؤازر طبيا بالنسبة لغير المتزوجين وللمثليين، والاستنساخ التناسلي، بل وحتى العلاجي وخليط تسكين الألم الذي يعلق الوعي عند نهاية الحياة، والاستعمال الاستشفائي لحشيش القنب، والقتل الرحيم، بينما يحتفي هذا الميثاق بالعلاجات المسكنة ويؤكد على الدور التكفيري للألم؛ وهي كلها مواقف ترددها جوقة لجان الأخلاق التي تزعم العلمانية وتدعي زورا استقلالها عن الأديان. . .

صحيح أن المعالجين في الغرب عندما يباشرون جسما مريضا ينسون أغلب الأوقات أنهم يفكرون ويشتغلون ويشخصون انطلاقا من تكوينهم الذي يقتضي «عالم المعرفة» المسيحي؛ فالوعي ليس رهانا هنا، بل هي سلسلة من الحتميات أعمق وأقدم ترجع بنا إلى لحظات تشكل طبع ومزاج ووعي ما. إن

لاوعي خبير المداواة ولا وعي المريض ينبثقان عن نفس البحر الميتافيزيقي. يقتضي الإلحاد اشتغالا على هذه التهييئات التي غدت خفية، لكنها تظل كثيفة الحضور في تفاصيل حياة جسدية يومية - إن تحليلا مفصلا للجسد المجنس والجنسي وللعلاقات المتعلقة من شأنها ملء كتاب بأكمله. . .

[٤]

## عذاب منحدر من الجنة

أما المثال الثاني فهو: القانون. وتعتبر الرموز الدينية البارزة والمبرزة ممنوعة داخل قصور العدالة الفرنسية؛ فصدور حكم قضائي لا يمكن أن يكون تحت رمز المصلوب، وبدرجة أقل تحت آية من التوراة أو سورة من القرآن معلقة على الجدران. إن القانونين المدني والجنائي يؤكدان زعما أن الحق والقانون مستقلان عن الدين وعن الكنيسة. والحال أنه لا توجد سلطة قضائية فرنسية تعارض في الجوهر تعليمات الكنيسة الكاثوليكية الرسولية الرومانية؛ فغياب الصليب عن قصر المحكمة لا يثبت استقلال العدالة بالنسبة للديانة المهيمنة.

ذلك أنه حتى أسس المنطق القانوني تصدر عن الأسطر الأولى «السفر **التكوين في العهد القديم**»؛ وهنا يكمن أصل البحث في الأصول اليهودية (التوراة) والمسيحية (الإنجيل) المؤسسة لـ **القانون** المدني الفرنسي. فجهاز وتقنية ومنطق وميتافيزيقا الحق والقانون تنبثق مباشرة عن ما توصي به خرافة الفردوس الأصلي: أي أن الإنسان حر، ثم مسؤول، وبالتالي مذنب بالقوة. ولأن الفرد قد وهب الله الحرية، فبإمكانه اختيار وانتقاء وتفضيل هذا الأمر بدل ذاك، ضمن مجال الممكنات. فكل فعل هو صادر عن اختيار حر وعن إرادة حرة مطلعة وظاهرة.

إن مسلمة الإرادة الحرة ضرورية لتصور ما يلي في كل عملية قمعية. ذلك أن

الاقتراب من الفاكهة المحرمة، والعصيان والخطيئة المقترفة في جنان الملذات، نتجت عن فعل إرادي، وبالتالي يمكن معاتبته ومعاقبته. لقد كان بإمكان آدم وحواء أن لا يذنبا لأنهما خلقا حرَّين، ولكنهما فضلا الرذيلة على الفضيلة، فأمكن بذلك محاسبتهما بل جعلهما يؤديان ثمن ذلك. ولم يعدم الإله ذلك، فحكم عليهما وذريتهما بالخفر والحياء والعمل وبالإنجاب الأليم وبالمعاناة والشيخوخة وبخضوع النساء للرجال، وبصعوبة كل اتصال جنسي. ومن ثم يمكن للقاضي أن يلعب دور الإله فوق الأرض، وفقا لهذا النموذج وبالتوافق مع المبدأ الذي تم سنه في أولى أزمنة الكتابات المقدسة.

فحين تشتغل محكمة دون رموز دينية، فإنها تنشط مع ذلك بالنظر لهذه الرؤية الميتافيزيقية: فمغتصب الأطفال يعتبر حرا ومتمتعا بحرية الاختيار بين حياة جنسية طبيعية مع شريك يقبله وعنف مذهل مع ضحايا يتم تحطيمهم إلى الأبد؛ فهو يقوم بذلك في هدوء تام، وباستعداد روحي وعقلي كامل، وفي إطار موهبة إرادة حرة تمكنه من أن يريد هذا الأمر بدل ذلك وأن يختار العنف ـ لمَّا كان بإمكانه اتخاذ قرار مغاير ـ؛ وذلك كله بشكل يمكن معه أن يطلب منه داخل المحكمة تقديم إفادته بهذا الشأن، ثم الاستماع إليه بغموض ودون إنصات، وإرساله بعد ذلك ليقضي سنوات في سجن يرجح أن يتعرض داخله للاغتصاب كتعبير ترحاب، قبل أن يمكث في خلية ليتم، في النهاية، إخراجه منها وقد تم إهمال المرض الذي يؤلمه...

من سيقبل أن يقوم مستشفى باحتجاز شخص اكتشف له ورم في الدماغ ـ فالأمر لا يقل تشابها عن ميول شخص للتحرش بالأطفال ـ داخل زنزانة، معرضين بذلك الرجل للعنف الزجري من قبل بعض رفاق حجرته اعتادوا على وحشية طبائع المجاوَرَة الحبسية، قبل أن يترك، دون علاج ودون اهتمام ودون

مداواة، لفعل الورم لمدة ربع عمره؟ من سيقبل هذا؟ الجواب: إنهم كل أولئك الذين ينشطون الآلة القضائية ويستخدمونها كما لو كانت آلة ميكانيكية وجدوها على أبواب الجنة، من دون أن يتساءلوا عن ماهيتها وعن سبب وجودها في ذلك المكان، ولا عن طريقة اشتغالها. .

تنتج آلة «مستوطنة السجن»، كما صورها الروائي كافكا، تأثيرها يوميا داخل المحاكم، المسماة «قصور العدالة» الأوروبية، وداخل السجون ذات الصلة. إن هذا التواطؤ بين حرية الإرادة والاختيار الطوعي للشر دون الخير الذي يعطي الشرعية للمسؤولية وبالتالي للذنب، ثم للعقاب، إنما يقتضي اشتغال فكر سحري يجهل ما يمكن أن يضيئه المسلك الما ـ بعد مسيحي عند فرويد في مدرسة التحليل النفسي ومعه فلاسفة آخرين الذين يبرزون قوة ونفوذ الحتميات اللاشعورية والنفسية والاجتماعية الأسرية والأخلاقية.

إن الجسد والقانون، حتى حينما يكونان موضوعا للتفكير الذاتي ويعتقدان أو يدعيان العلمانية، فإنهما ينبثقان عن «عالم معرفة» المسيحية ـ اليهودية. ويمكن أن نضيف إلى هذا، استكمالا لجرد الميادين المعنية ـ لكن ليس هذا هو المكان المناسب ـ، تحاليل حول علوم التربية والجمال والفلسفة والسياسة ـ مع الثالوث المقدس بها: عمل، أسرة، وطن. . . ـ، وما إلى ذلك من الأنشطة الأخرى التي بإمكاننا أن نبين تشبعها بالتأثير الديني الإنجيلي. ما زال الأمر يتطلب مجهودا أضافيا حتى نبلغ الفكر الجمهوري بحق. . .

[٥]

## حول الجهالة المسيحية:

يمكننا أن نفهم هذا الإنكار لاشتغال منطق الإشباع الديني إذا ما بَيَّنا أن عددا من محدداته تنتشر ضمن سجل اللاوعي، من خلال انفلاتها عن مستويات

البروز للوعي المطلع والبصير على ذاته؛ فيبرز هذا التداخل بين الأفراد وهذه الإيديولوجية خارج اللغة، ويكون دون علامات إعلان صريح عن الذات. فخارج الحكم باسم الحق الإلهي المعلن عن ذاته ـ عند الأنظمة السياسية التي تستلهم أحد الكتب المقدسة الثلاثة ـ، تبقى الأصول المسيحية ـ اليهودية للممارسات العلمانية غائبة في أغلب الأوقات عن نظر العدد الأكبر من الناس، بمن فيهم الممارسون والفاعلون والأفراد المعنيون.

إن عدم بروز هذه المسألة يرتبط فقط بطريقة انتشارها اللاشعورية. كما أن الأمر يفترض جهلا بالثقافة المسيحية ـ اليهودية لدى عدد من الأطراف المعنية، بمن فيهم المؤمنون والمتدينون قليلو الاطلاع، أو قل المطلعين فقط على العصارة الإيديولوجية التي تفرضها المؤسسة أو بدلاؤها. إن قداس الأحد الرباني لم يشتهر قط كمكان للتفكير والتحليل والثقافة ولنشر المعرفة وتبادلها، وأمر التعليم المسيحي لا يختلف عن ذلك، وكذلك الشأن بالنسبة لباقي مناسبات الطقوس والعبادة عند باقي الديانات التوحيدية.

وتنطبق الملاحظات نفسها على الصلوات عند حائط المبكى، أو عند الأوقات الخمسة لدى المسلمين؛ إذ يقوم المرء بأداء الصلاة وبترديد أدعية وابتهالات يمرن من خلالها ذاكرته، لا ذكاءه. وتشكل مواعظ بوسييه استثناء وسط محيط من الإسفاف الذي تشتم في رائحة ألفي عام من العتاقة.. كذلك كان أمر ابن رشد وابن سينا ـ كم هي مفيدة هذه الذرائع.. ـ في وسط كم لا يعرف عدده من الأئمة ذوي الذاكرة الخارقة والذكاء الخائب..؟

إن بناء الديانة، وتعلم النقاش والجدال، والدعوة للتفكير والنظر والنقد ومقابلة المعارف والمعلومات المتعارضة واعتماد المناظرات، تتألق من خلال غيابها عن الطائفة، التي تنتصر فيها النزعة الببغاوية والحكايات الخرافية التي

تكررها آلة دهنت دواليبها بالزيت جيدا وهي آلة تردد ولا تبتدع، وتستدعي الذاكرة دون الذكاء. إن الترتيل والاستظهار والترديد ليس تفكيرا؛ وكذلك الصلاة، فهي أبعد من أن تكون كذلك..

فأن ينصت المرء لنص القديس بولس للمرة المليون، ويجهل في نفس الوقت بوجود اسم «غريغوار دي نازيان»، وأن تتم إعادة مِذوَد المسيح مكان ولادته كل عام مع عدم العلم بالنزاعات التي أسست مذهب أريوس (المنكر لألوهية المسيح) وبمحفل الإيقونات الديني؛ وأن يحل المرء في المسيح من خلال الفطيرة القربانية ويجهل وجود عقيدة عصمة البابا؛ وأن يحضر قداس الميلاد، ولا يعرف أي شيء عن استعادة الكنيسة لهذا اليوم المؤرخ للانقلاب الشتوي عند الوثنيين المحتفلين خلاله بصلاة الشمس؛ وأن يشهد المرء احتفالات التعميد والزواج والجنائز أمام المنبر الكنسي، ولا يسمع أبدا بالأناجيل المزيفة؛ وأن يتقدم أمام رمز الصليب، ويمر مجانبا لمسألة أن الباعث على محاكمة المسيح كان لا يقضي بأن يصلب، بل أن يرجم وغير ذلك من المآزق الثقافية التي تسببت فيها نصب الطقوس والممارسات؛ هذا كله يعد مشكلة تواجه افتراض ممارسة متنورة للدين..

إن الدعوة القديمة في «سفر التكوين» إلى عدم البحث عن معرفة الأمور، وإلى الاكتفاء بالاعتقاد والطاعة وتفضيل الإيمان على المعرفة، وإلى دفع الميل إلى العلم والاحتفاء بشغف الخضوع والامتثال؛ إن مثل هذه الدعوة لا تساهم في الرفع من شأن النقاش. فالمعنى الأصلي لكلمة «مسلم» هو «الخاضع لله وللرسول»؛ فتشكل استحالة التفكير والتحرك بخصوص أدق تفاصيل الحياة من خارج التعاليم الميليمترية للتوراة إثناء عن تفضيل العقل على الرضوخ.. كما لو أن الدين يحتاج إلى البراءة والجهل وعدم الاطلاع حتى يمكنه التزايد والتكاثر والتواجد بأمان أكبر. !

وحين تكون هناك ثقافة دينية وتاريخية ـ لدى محترفي الدين في غالب الأحيان ـ، فإنها توضع في خدمة ترسانة يسوعية بلا إسم! إن قرونا من البلاغة، وألفية من السفسطة اللاهوتية وعدة مكتبات من الجدال اللاهوتي المدرسي التافه، تمكن كلها من استخدام المعرفة كسلاح: فينصبّ الاهتمام أكثر على إثبات عقائد النصرانية منه على الحجاج البرهاني؛ وقد برع في هذا الفن لفائدة المسيحية تيرتوليين؛ وهو فن يفترض إخضاع التاريخ بأكمله والمراجع كلها للمقتضى الإيديولوجي للمجادل. راجع في هذا الشأن المعنى المزدوج لنعت «يسوعي»[1]...

حين نقدم للمسيحي هذه الملاحظة: أي كيف أنه منذ اعتناق قسطنطين للمسيحية، اختارت الكنيسة خندق الأقوياء متجاهلة الصغار والبؤساء، فإنه يجيب بذكر «لاهوت التحرر» ـ، ناسيا في الوقت ذاته إدانة هذا اللاهوت التحرري من قبل البابا يوحنا بولس الثاني رئيس زعيم الكنيسة. وحينما نطرح هذه البديهية: كيف أن مسيحية القديس بولس، وبالتالي المسيحية الرسمية، قد ...ت من اعتبار الجسد والجسم والمتعة وكيف أنها تحتقر المرأة، فنفس المسيحي يرد بذكر «الانتشاء الصوفي» ـ مارّاً بصمت على أن كل المظاهر من هذا القبيل قد كانت موضوع إدانة داخل الفاتيكان... ـ ولما تحدثه عن التطهير العرقي للهنود الأمريكيين، باسم الدين الكاثوليكي العالمي، وعن إنكار روح وإنسانية الهنود التي جهر بها المستعمرون الأتقياء الورعون، يستغرب ضاحكا ذاكرا «بارتولوميو دي لاس كاساس» ـ، متناسيا أنه مهما دافع هذا المسيحي الشجاع نظريا عن الهنود، فإنه لم يغب عن تغذية محارق الكتب التي ألفها سكان غواتيمالا، مع حرص منه على أن يكتشف الناس، بعد وفاته فقط ومن خلال وصية، أنه يشبّه قضية السود بقضية الهنود...

---

(١) المعنى الثاني هو «خداع ومنافق» (المترجم).

نفس المنطق يحرك مفسري القانون القرآني ـ آيات الله والملالي ـ الذين يحاولون إعطاء معنى وتماسكا لنصوص متناقضة داخل جسم نصهم المقدس، وذلك من خلال اللعب بالسور والآيات وبآلاف الأحاديث وانتهاء بآيات الناسخ والمنسوخ! فحين نثير انتباههم إلى الحقد على اليهود وعلى غير المسلمين الذي يمتلئ به القرآن على طول الصفحات، يقومون بإحالتك على مبدأ أهل الذمة الذي يسمح، بطريقة غامضة، لأهل الكتاب غير المسلمين بالتواجد ويعطيهم الحق في الحماية؛ لكنهم يتجنبون توضيح أن هذه الحماية تحصل فقط بعد أن يعطوا ضريبة الجزية، وهو ما يجعل هذا التسامح الظاهري أقرب إلى ممارسة المافيا القاضية بحماية شخص يرضخ ويقبل بتمويل المقاولة التي تبتزه. . أو قل إنها طريقة ابتكار للضريبة الثورية!

إن هذا النسيان وهذا النقص في المعلومات وهذا الرضوخ للطاعة أكثر منه للذكاء، تفرغ الدين من محتوياته الصحيحة لتنتج فقط كتابا مقدسا باهتا ومهيأ بغموض للتوافق مع كل الصلصات الميتافيزيقية والاجتماعية. فعلى غرار الماركسيين، الذي يعتقدون أنهم كذلك وهم ينكرون الصراع الطبقي، ثم يتخلون عن دكتاتورية البروليتاريا، يختلق عدد من اليهود والمسيحيين والمسلمين أخلاقا، وفق القياس، تقتضي الاقتطاع من المتن بما يوافق تشكيل قاعدة للعمل وللانتماء الجماعي، على حساب كلية الدين. وهنا تكمن تلك الحركة المزدوجة: اختفاء ممارسات بارزة تمتد بالتوازي مع تعزيز لـ «عالم معرفة» السائد. . ومن هنا أتت النزعة الإلحادية المسيحية. . . .

[٦]

## النزعة الإلحادية المسيحية

طالما كان الملحد يُعتمد كصورة معاكسة للقس عنصرا بعنصر: فقد اقتبس

ناكر الإله المفتون بعدوه منه عددا من عاداته وعيوبه؛ لكن الكهنوتية الملحدة لا تمثل أي أهمية تذكر. فكنائس الفكر الحر الخاصة والاتحادات القومية التي لا تقل في نزوعها الدعوي الطائفي عن طبقة الكهنوت، والمجامع الماسونية تبعا لنموذج الجمهورية الثالثة، لا تستحق الانتباه الكثير. يجب منذ الآن التطلع إلى ما يسميه جيل دولوز **«النزعة الإلحادية الهادئة»**؛ أي انشغالا أقل سكونا في نفي الإله ومحاربة فكرته، ومنهجا أكثر نشاطا ينتهي إلى اقتراح إيجابي يستهدف البناء بعد النضال. إن نفي الإله ليس غاية في حد ذاته، بل وسيلة تروم بناء أخلاق بعد ـ مسيحية، أو علمانية بحق.

لرسم حدود النزعة الإلحادية الما بعد ـ مسيحية، لنتوقف عند ما يجب تجاوزه اليوم: أي النزعة الإلحادية المسيحية ـ أو المسيحية التي لا إله لها. ما أغربه من سراب مرة أخرى!الأمر واقع ويتعلق بمن ينفي الإله ويؤكد في نفس الوقت سمو القيم المسيحية ويثبت الطابع اللا متجاوز للأخلاق الإنجيلية. ويفترض عمله فصلا بين الأخلاق والسماء؛ فالخير بالنسبة له لا يحتاج لإله ولا لسماء ولا لترسيخ عقلي، بل يكتفي بذاته وينتمي إلى الضرورة الأرضية ـ إنه يطرح قاعدة عمل وقانون سلوك بين البشر.

لم يعد علم اللاهوت يشكل شجرة أنساب الأخلاق، فلقد أخذت الفلسفة الخلف. فحين تقتضي القراءة المسيحية ـ اليهودية منطقا عموديا ـ انطلاقا من دنيا البشر صعودا إلى أعالي القيم ـ، تعلن فرضية النزعة إلحادية المسيحية عرضا أفقيا: لا شيء من خارج ما يستنبط عقليا ومنطقيا، ولا ترتيب فوق أرضية غير أرضية عالم الواقع المحسوس. فالإله لا وجود له ومصدر الفضائل ليس الوحي، فهي لا تنزل من السماء بل تنبثق عن تدقيق ذي نزوع نفعي انتفاعي وواقعي. إن البشر هم من يضعون لذواتهم القوانين، وهم في هذا لا يحتاجون إلى تدخل قوة فوق أرضية.

إن الكتابة الملازمة لقوانين العالم هي ما يميز الملحد المسيحي عن المسيحي المؤمن؛ وليست القيم التي تبقى مشتركة بينهما. فالقس والفيلسوف، والفاتيكان وكنط، والأناجيل وكتاب «نقد العقل الخالص»، والأم تيريزا وبول ريكور، ومحبة القريب في المسيحية والنزعة الإنسانية المتعالية التي يعرض لها جيل فيري في كتابه «الإنسان ـ الإله»، والأخلاق المسيحية وكبرى فضائل أندري كونت سبونفيل، كلها تترعرع فوق أرضية مشتركة هي: الإحسان والاعتدال والرحمة والرأفة والتواضع، بل وكذلك محبة القريب والحلم والصفح، ومد الخد الأيمن حين نصفع على الأيسر، والزهد بخيرات الدنيا والعفة الأخلاقية التي ترد السلطة والتكريم والثروة باعتبارها قيما مزيفة تحيد بالمرء عن الحكمة الحقيقية. تلك هي إذن الاختيارات التي يتم الجهر بها نظريا...

يقوم هذا الإلحاد المسيحي في غالب الأحيان بإفراغ الكره المسيحي للجسد، المستوحى من بولس، ونبذه للرغبات والمتع وللدوافع والأهواء. يعتبر أنصار الرجوع للأناجيل هؤلاء ـ تحت غطاء العودة لكنط أو حتى لسبينوزا ـ، متوافقين في ذلك مع زمنهم حول مسائل الأخلاق الجنسية أكثر من توافق المسيحيين مع الإله، إن علاج النزعة العدمية في عصرنا لا تحتاج لجهد ما بعد ـ مسيحي، بل تتطلب مراجعة لمحتوى الرسالة التي خلفها المسيح تكون علمانية وملازمة للواقع. إن فلاديمير جانكيليفيتش ـ راجع «مؤلفه في الفضائل»ـ وإيمانويل ليفيناس ـ اقرأ «إنسانوية الإنسان الآخر» أو «شمولية وإطلاق» ـ وكذلك اليوم برنارد هنري ليفي ـ في «وصية الإله» ـ أو الان فنكلكراوت ـ في «حكمة المحبة» ـ، وهم القادمون من قارة اليهود، يشكلون جزءا من نماذج هذا المذهب اليهودي ـ المسيحي الذي لا إله له.

[٧]

## نزعة إلحادية ما بعد ـ حديثة

إن تجاوز هذه النزعة الإلحادية المسيحية يسمح بتصور «نزعة إلحادية ملحدة» بحق ـ دون أن يكون هذا النعت حشوا. . . صحيح أن هذا الذي يشبه الحشو في الكلام هو للدلالة على نفي للإله يزاوجه نفي لجزء من القيم المنبثقة عنه، لكنه أيضا لتبديل «عالم المعرفة» وللانتقال بالأخلاق والسياسة نحو الرسو على قاعدة أخرى، ليست عدمية بتاتا، بل هي ما بعد مسيحية. ولا يتعلق الأمر بتهيئة الكنائس ولا حتى بتهديمها، بل تشييد شيء آخر، في مكان آخر وبشكل آخر، لفائدة من لا يرغبون بالاستمرار في الإقامة فكريا داخل الأماكن التي كثيرا ما استخدمت.

إن المذهب الإلحادي ما بعد ـ الحديث يلغي المرجعية اللاهوتية، بل وكذلك العلمية، لكي يشيد نسقا أخلاقيا. فلا الإله ولا العلم، ولا السماء المعقولة ولا ترتيب المقولات الرياضية، ولا توماس داكان ولا أوغست كونت أو ماركس، بل هي الفلسفة والعقل والمنفعة والبراغماتية النفعية، ومبدأ السعادة الحسية الفردية والجماعية، وكل ما إلى ذلك من دعوات للتحرك فوق أرضية لزوم الواقع الخالص بحثا عن مصلحة الناس بهم ومن أجلهم، وليس بالله ولله.

إن تجاوز النماذج الدينية والهندسية يتحقق تاريخيا عند جهة الأنغلوساكسونيين، كجيريمي بنتمان على سبيل المثال ـ راجع كتابه «أدبيات» ـ أو تلميذه جون ستيوارت ميل. فكلاهما يشيدان بناءات فكرية هنا والآن، وكلاهما ينظران إلى صروح، صحيح أنها متواضعة، لكنها قابلة للسكن: فلا كاتدرائيات ضخمة جميلة المنظر مستعصية على العيش ـ كتلك البناءات المثالية

الألمانية ـ وعسيرة على الولوج، بل فقط مآوى قابلة للسكن بحق ويوجد فيها الخير والشر، ليس لأنهما يلتقيان بمفهومي المؤمن والكافر في دين من الأديان، بل بالنظر إلى الاستفادة والسعادة التي يجنيها أكبر عدد ممكن من الناس. فعقد مذهب المتعة ـ الذي لا يضاهيه شيء في لزومه الواقع ـ يعطي الشرعية لكل تواصل بين ذاتين، ويحدد شروط الفكر والعمل، ويستغني نهائيا عن الإله وعن الدين ورجاله. فلا حاجة هناك للوعيد بالنار، ولا لتصوير يتلألأ للفردوس، ولا فائدة من إرساء انطولوجيا الجزاء والعقاب بعد الموت بغية الدعوة للعمل الخيِّر والعادل والمستقيم. إنها أخلاق بلا واجب وبلا حساب سماوي.

[٨]

## مبادئ نفي اللاهوت

إن نفي اللاهوت يروم ثلاث مهمات: أولها ـ وهو موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب ـ تفكيك الديانات السماوية التوحيدية الثلاث، وإبراز كم يبقى مضمونها واحدا بالرغم تنوعها التاريخي والجغرافي، وبالرغم من الحقد المحرك لشخصياتها منذ قرون، وبالرغم من التنافر الطافح على السطح بين قانون موسى وأقوال المسيح وكلام النبي محمد، وبالرغم من الأزمنة الجنيالوجية المختلفة للروايات الثلاث المنجزة على مدى أكثر من عشرة قرون حول الموضوع الأوحد. فبالرغم من كل هذا فالمحتوى يبقى هو ذاته؛ والتغيرات تطال درجة الأمور، لا طبيعتها.

فماذا عن هذا المحتوى بالتدقيق؟ إنه سلسلة من الأحقاد فرضت على مدى التاريخ من قبل رجال يدعون أنهم مؤتمنون على كلام الإله وأنهم مفسرون له ـ وهم رجال الدين ـ : كره للذكاء الذي تفضل عليه الديانات السماوية الطاعة

والخضوع؛ وكره للحياة يعززه شغف أكيد للموت؛ وكره للدنيا التي لا تفتأ تعتبر أقل قيمة بالنظر للعالم الآخر، الذي هو الخزان الأوحد للمعاني وللحقيقة ولليقين وللهناء الممكن؛ وكره للجسد الزائل، الذي يتم الحط من قيمته في كل التفاصيل بينما ترتدي الروح الخالدة الأزلية والإلهية زينة كل الميزات وكل الفضائل؛ ثم أخيرا كره للنساء وللحياة الجنسية الحرة والمتحررة، باسم الملاك ـ أي ذلك النقيض النمطي للجسد الذي تشترك فيه الديانات الثلاث.

وبعد تفكيك لقابلية تفاعل الديانات التوحيدية تجاه الحياة الواقعية البهيجة إمكانا، يمكن لنفي اللاهوت أن يهتم بإحدى تلك الديانات للتأمل بكيفية تكوينها وقيامها وترسخها على أساس مبادئ تقتضي دائما الزيف والذهان الجمعي والكذب والتخييل والأساطير التي تمتع بمطلق السلطان. إن إعادة إنتاج جملة من المغالطات من قبل أكبر عدد من الناس ينتهي إلى أن تصير متنا لحقائق يحظر المساس بها، مخافة أفظع الأخطار لذوي الفكر المتحرر ـ تبدأ بمحارق ما قبل الأمس المسيحية وتصل إلى فتاوى اليوم المسلمة.

وفي محاولة للنظر في كيفية صناعة عالم الأساطير، يمكننا مباشرة تفكيك للمسيحية ـ موضوع الجزء الثالث. وبالفعل، إن بناء عيسى انبثق عن فن صناعة يمكن تحديده واختزاله في لحظات يمكن وسمها تاريخيا خلال قرن أو قرنين: ففي الأمر بلورة لهستيريا مرحلة من المراحل من خلال وجه يستحث الخارق ويُجمِّع التطلعات للخلاص وللنبوءة ولنهاية العالم التي عاصرت تلك اللحظة التاريخية، ويُجمِّعها في شخصية معنوية سميت عيسى؛ **والوجود المنهجي، وليس التاريخي بتاتا، لهذه الفكرة الخيال (أي عيسى)**؛ كما أن هناك بعد ذلك تضخيما لهذه الخرافة وترويجها من قبل القديس بولس، الذي يعتقد أنه مأذون

من الإله في حين أنه لا يعدو كونه يسير عصابه الخاص؛ وثمة كذلك كرهه للذات المتحول إلى كره للعالم؛ وعجزه وحقده وغيظه و«ثأر الجهيض» عنده ـ بتعبيره هو. . ـ المتحول إلى محرك لفردانية تنتشر على طول حوض المتوسط؛ وهناك التلذذ المازوخي لرجل امتد على مستوى طائفة، من بين آلاف الطوائف في ذلك العصر؛ كل هذا يبرز حين نفكر ولو قليلا، وحين نردُّ مبدأي الطاعة والرضوخ في ميدان الدين، ونقوم بإعادة إحياء فعل قديم ومحرَّم: قطف ثمرة شجرة المعرفة المحرمة. .

صحيح أن هذا التفكيك للمسيحية يقتضي تفكيك صناعة الخيال، لكنه يقتضي كذلك تحليلا للتطور الكوني لهذا العصاب. وهنا تكمن الاعتبارات التاريخية بخصوص قيام الإمبراطور قسطنطين باعتناق سياسي للديانة الطائفية، لأسباب محض انتهازية تاريخيا. كانت نتيجة ذلك أن صار هناك مصير إمبراطوري جلي لممارسة اقتصرت في الأصل على حفنة من الملهمين الإشراقيين: فقد انتقل المسيحيون من أقلية مضطهَدة إلى أغلبية مضطهِدة بفضل الكفالة الدينية لإمبراطور غدا منهم.

إن هذا «الحواري الثالث عشر»، كما أعلن قسطنطين نفسه خلال محفل ديني، قد أقام إمبراطورية شمولية تسن قوانين عنيفة تجاه غير المسيحيين، وتعتمد سياسة منهجية في اجتثاث الاختلاف الثقافي: فكانت المحارق وأحكام الموت، والاضطهاد الجسدي ومصادرة الأملاك، والنفي القسري والعنيف، والاغتيالات والاعتداءات الفجائية، وتحطيم بنايات الوثنيين، وتدنيس أماكن وأجسام عبادتهم وحرق مكتباتهم وإعادة استغلال عمران البنايات الدينية العتيقة في الصروح الجديدة، أو في ردم الطرق وما إلى ذلك. .

فباعتماد السلطات المطلقة لمدة قرون عديدة، اختلط المجال الروحي

بالميدان الدنيوي السياسي. . وهذا مكمن أصل تفكيك أنظمة الحكم بالحق الإلهي ـ الثيوقراطية، موضوع الجزء الرابع ـ، التي تقتضي التبني على أرض الواقع والسياسة لسلطان يدعي أنه يصدر عن الله الذي لا يتكلم والذي ـ بسبب ذلك ـ يجعله القساوسة ورجال الدين يتكلم. فباسم الله، ولكن من خلال خدامه المزعومين، تصدر عن السماء أوامر بخصوص ما يجب فعله واعتقاده وعيشه وممارسته على الأرض، حتى يحظى المرء بالمباركة! وهؤلاء الذين يزعمون نقل كلام الله يؤكدون أهليتهم لتأويل ما يظنه بخصوص الأفعال التي تنجز باسمه. . .

إن العلاج لأنظمة الحكم بالحق الإلهي يوجد في الديمقراطية: في سلطة الشعب وسيادة المواطنين اللازمة في مواجهة زعم سلطان الله الذي هو في الحقيقة سلطان من يدعون انتماءهم إليه. . قامت الديانات السماوية الثلاث ـ والتاريخ يشهد ـ بإراقة أنهار من الدم لا تخطر على بال، لمدة قرون، باسم الإله! حروب وحملات تأديبية ومجازر، واغتيالات، واستعمار، وتصفيات عرقية، وتطهير عنصري وحملات صليبية، ومحاكم تفتيش تعسفية؛ واليوم، ذروة الإرهاب الكوني. .

إن تفكيك الديانات التوحيدية وكشف خدعة ووهم اليهودية ـ المسيحية ـ وكذلك الإسلام بطبيعة الحال ـ، ثم تفكيك ثيوقراطيا نظام الحكم بالحق الإلهي: تلك ثلاث أوراش تدشينية لمشروع نفي اللاهوت. وانطلاقا منها، سيتم الاشتغال لاحقا على تقاسم أخلاقي جديد وعلى إنتاج شروط نسق أخلاق ما بعد ـ مسيحية حقيقية في الغرب، حيث يكف الجسد عن أن يكون عقوبة، وتكف الأرض أن تكون واديا للدموع، والحياة عن أن تكون كارثة والمتعة ذنبا، والمرأة لعنة، والذكاء غرورا واللذة الحسية هلاكا أبديا.

ويمكن أن تضاف إلى هذا لاحقا سياسة أقل افتتانا بالنزوع للموت منه بالنزوع للحياة، حيث لن يتم تصور الآخر كعدو وخصم واختلاف يجب إزالته وإضعافه وإخضاعه، بل كفرصة لتواصل بين ذاتين؛ تواصل يُبنى هنا والآن، لا تحت مراقبة الإله والآلهة، بل تحت نظر الشركاء فقط، وفي إطار لزوم جذري لقانون الواقع؛ وذلك بشكل تصير فيه الجنة مثالا للعقل في الحياة الدنيا أكثر منه تخيلا للسماء العليا. لنحلم قليلا...



# الجزء الثاني
# ديانات توحيدية

I

# العوالم الخلفية: طغيان واستعباد

## [١]

### العين السوداء لدين التوحيد

نعلم أن الحيوانات لا يمسها الإله؛ فهي معافاة من الدين ولا تعرف البخور ولا رغيف القربان المقدس، ولا السجود والصلوات؛ ولا نراها في حال انتشاء وجداني أمام الكواكب والكهان؛ ولا تبني لا كاتدرائيات ولا معابد، ولا نجدها أبدا تتضرع لكائنات من الخيال. لقد تم مع سبينوزا القول إنها لو خلقت لنفسها إلها لكانت صنعته على صورتها: أي بأذنين طويلتين بالنسبة للحمير وبخرطوم طويل بالنسبة للفيلة وبسهم بالنسبة للنحل. ذلك أن الإنسان حينما خطر بباله يوما أن يخلق إلها واحدا، فإنه جعله على صورته: عنيفا، غيورا، منتقما، كارها للمرأة، عدوانيا، غاشما ومتعصبا. إن الناس، بصريح العبارة، ينحتون غريزة الموت، ذلك الجانب المظلم في ذاتهم، ويجعلونها آلة تنطلق بسرعة مطلقة ضدهم...

ذلك أن الناس وحدهم يبتكرون عوالم خلفية، ويبتكرون آلهة، أو إلها واحدا؛ ووحدهم يسجدون ويتصاغرون وينحنون؛ ووحدهم يعتقدون اعتقادا في الحكايات التي صنعتها عنايتهم حتى يتجنبوا النظر المباشر لقدرهم؛

ووحدهم يبنون انطلاقا من هذه القصص الخيالية هذيانا يجرُّ معه سلسلة من السخافات الخطيرة ومن المنافذ الجديدة؛ ووحدهم يعملون بحدة ـ وفق مبدأ غريبوي ـ على تحقيق أكثر الأمور التي يتطلعون بالعكس إلى تجنبها: الموت.

فهل تبدو لهم الحياة لا تحتمل العيش، مع وجود الموت نهاية حتمية؟ إنهم سرعان ما يجدون الوسيلة لدعوة العدو لتسيير حياتهم؛ إنهم يرغبون بالموت قليلا وبطريقة منتظمة كل يوم، حتى إذا جاء اليوم الموعود اعتقدوا الوفاة سهلة جدا. إن الديانات التوحيدية تدعو لترك الحياة هنا والآن، بدعوى أنه يجب يوما ما القبول بهذا الأمر: إنها تمجد عالما آخر، (خيالياً)، حتى تحول دون الاستمتاع كاملا بهذا العالم الدنيوي، (الواقعي). ما وقودها في ذلك؟ غريزة الموت والتغيرات التي لا تتوقف على هذا الموضوع.

مفارقة غريبة! إن الدين يأتي استجابة لفراغ وجودي عند من يعلم أن عليه أن يموت يوما ما وأن استقراره على الأرض محدود في الزمن وأن كل وجود يندرج مسرعا بين عدمين. لكن الخرافات تسرِّع العملية لتجعل الموت يحل فوق الأرض باسم الخلود في السماء، وهي بذلك تفقدنا الشيء الوحيد الذي نملكه: المادة الحية لوجود يتم قتله في مهده، بدعوى زواله. لكن مبدأ (لا تكن حتى لا يكون عليك أن تموت ) هو حساب خاطئ؛ ذلك أننا نؤدي للموت ضريبة مرتين، في الوقت الذي كان بالإمكان الاكتفاء بمرة واحدة.

إن الدين ينبثق من غريزة الموت؛ أي من تلك القوة السوداء الغريبة الكامنة في أعماق الكائن التي تعمل على هدم كل ما يوجد. فحيثما يحيا شيء تنتشر وتتحرك قوة مضادة، ضرورية للتوازن الذي يريد توقيف الحركة وتجميد مد البحر. فحين تشق الحيوية ممرات لها وتحفر سراديب، ينشط الموت: تلك طريقة عيشها ومسلك وجودها. إنها تسيء لمشاريع الوجود حتى تقوض كل شيء. فقدوم الإنسان إلى هذه الحياة هو اكتشاف للوجود من أجل الموت؛

والوجود من أجل الموت هو أن تحيا يوما بيوم نقصان مدة الحياة. وحده الدين يعطي الانطباع بتعطيل هذه الحركة؛ لكنه في حقيقة الأمر يسرعها. . .

عندما يتم تحويل غريزة الموت ضد الذات، فإنها تولد كل السلوكات المغامرة والميول الانتحارية وتعريض النفس للأخطار؛ وعندما يتم تحويلها ضد الغير، تنتج العدوان والعنف والجرائم والقتل. تحتضن ديانة الإله الواحد هذه الحركات: إنها تعمل على كره الذات وعلى احتقار الجسم وعلى نزع الثقة بالذكاء وعدم اعتبار الشهوة الجسدية، وعلى الرفع من قيمة كل ما ينفي الذاتية المتفتحة؛ وهي بإسقاط الأمر على الآخر، تحرض على الاحتقار، والخبث، والتعصب، الذي يؤدي إلى تعبيرات العنصرية، وكره الأجانب والاستعمار، والحروب والظلم الاجتماعي. يكفي النظر إلى التاريخ لاستنتاج مدى البؤس وأنهار الدماء التي سالت باسم الإله الواحد. . .

إن الديانات التوحيدية الثلاث التي تحركها نفس غريزة الموت تتقاسم سلسلة من الاحتقارات المتشابهة: كره العقل والذكاء؛ كره الحرية؛ كره كل الكتب باسم كتاب واحد؛ كره الحياة؛ كره الحياة الجنسية والنساء والمتعة؛ كره المؤنث؛ كره الجسم والرغبات والغرائز. وبدل كل هذا، تدافع اليهودية والمسيحية والإسلام عن: الإيمان والاعتقاد، الطاعة والخضوع، وعن التطلع للموت والشغف بالعالم الآخر وعن ملاك العفاف الذي لا جنس له، وعن البكارة والإخلاص للزوج الواحد، وعن الزوجة والأم والروح والنفس. قل إنها تصلِّب الحياة وتحتفي بالعدم. . .

[٢]

## إدانة الذكاء والوشاية به:

- إن ديانة التوحيد تكره الذكاء؛ أي تلك الفضيلة النبيلة التي تعرف ذلك الفن

الذي يمكن من الربط بين ما يقدم لغالبية الناس قبليا على أنه ليس بينه رابط؛ فالذكاء يجعل الروابط السببية غير المتوقعة، والصحيحة مع ذلك، ممكنة: إنه ينتج تفسيرات عقلية مقنعة ومستندة إلى استدلالات منطقية، ويقوم برد كل تخيُّل مصنوع. فمعه نتجنب الأساطير وقصص الأطفال؛ فلا جنة بعد الموت هناك ولا أرواح ناجية أو هالكة؛ ولا إله يعلم كل شيء ويرى كل شيء. إن الذكاء، الملحد قبليا وصاحب المسار المستقيم وفق نظام الحجج المنطقية، يحول دون كل فكر سحري.

إن أتباع القانون الموسوي والهراء المسيحي ومستنسخاته القرآنية، يتقاسمون نفس الحكاية العجيبة حول أصل السلبية في العالم: ففي الآية ٦ من الباب الثالث من «سفر التكوين» ـ المشترك بين التوراة وبين «العهد القديم» في الإنجيل المسيحي ـ، وفي الآية ٢٩ من سورة البقرة القرآنية، نجد نفس حكاية آدم وحواء في جنة يحرم فيها الإله الاقتراب من شجرة، بينما يدعوهما شيطان للعصيان. إنها الرواية التوحيدية لأسطورة باندورا الإغريقية؛ فالمرأة الأولى تقترف طبعا ما لا يقبل الإصلاح لينتشر بفعلها الشر في أنحاء الكوكب كافة.

لقد كان لهذه القصة ـ التي تصلح في الزمن العادي لزيادة كم الحكايات والقصص التي تجعلك تنام واقفا ـ نتائج خطيرة على الحضارات! هناك الكره للمرأة ولشهوة الجسد المذنب والرغبة بالتوبة والبحث عن تكفير مستحيل والخضوع للضرورة وافتتان بالموت وشغف بالألم ـ وفي ذلك ما يكفي من مناسبات لتنشيط غريزة الموت.

فماذا نجد ضمن ملف هذه القصة؟ هناك إله يحرم على الزوجين الأصليين أكل ثمار شجرة المعرفة. بداهة الأمر تقول إننا أمام استعارة؛ فليس هناك غير آباء الكنيسة لكي يمنحوها بعدا جنسيا، أما النص فواضح جلي: فأكل هذه

الثمرة يزيل الغشاوة ويمكن من تمييز الخير من الشر وبالتالي يمكن من أن يصير المرء أشبه بالإله. فآية «سفر التكوين» المذكورة تتحدث عن شجرة مرغوبة لاكتساب الذكاء؛ ويعتبر تجاوز الإملاء الإلهي تفضيلا للمعرفة على الطاعة، واختيارا للفضول العلمي بدل الخضوع؛ أو بعبارة أخرى اختيارا للفلسفة ضد الدين.

ماذا يعنيه هذا التحريم للذكاء؟ ؛ لماذا يمكن للمرء، في هذه الجنة الرائعة، عمل كل شيء، لكن لا يمكنه أن يصير ذكيا ـ شجرة المعرفة ـ، ولا خالدا ـ شجرة الحياة ـ؟ ما هذا المصير الذي يخص به الله الإنسان: الغباء والفناء؟ لا بد أن يكون الإله بلا خلق لكي يقدم هكذا هدية لمخلوقاته. . . . فلنحتف، إذن، بحواء التي اختارت الذكاء بثمن الهلاك، في وقت لم يرصد فيه آدم للتو رهانات اللحظة الفردوسية: ذلك الهناء الأبدي للأبله السعيد.

فما الذي يكتشفه هؤلاء الأشقياء، ومنهم المرأة التي قضمت الثمرة السامية؟ إنها الحقيقة. الحقيقة ولا غير: يكتشفون ذلك العري وجانب الطبيعة فيهم ولكن كذلك ـ ومنذ الاكتساب الطري للمعرفة ـ جانب الثقافة، أو على الأقل إمكاناته من خلال ابتكارهم لمئزر من أوراق شجرة التين ـ وليس العنب ـ. . ويكتشفون أيضا: قسوة الحياة اليومية، ومأساة قدر الإنسان، وخشونة الاختلاف الجنسي، والهوة الفاصلة دائما بين الرجل والمرأة واستحالة تجنب العمل المضني، والولادة المتألمة، والموت المتسيد. وبمجرد تحررهم، واستباقا لإضافة انتهاك جديد يمكن معه بلوغ حياة الخلود ـ لأن شجرة الحياة كانت تجانب شجرة المعرفة ـ، يقوم الإله الواحد ـ وهو بالمناسبة طيب لطيف محب وكريم ـ بطرد آدم وحواء من الجنة. ونحن هنا منذ ذلك الوقت. . .

الدرس رقم ١: إذا رفضنا وهم الإيمان ومواساة فكرة الإله، وحكايات

الأديان الخرافية؛ وإذا فضلنا الرغبة بالعلم واخترنا المعرفة والذكاء، فإن الواقع يتجلى لنا كما هو: مأساة. لكن الحقيقة التي تصيب باليأس في الحال وتمكن المرء من أن لا يضيع حياة بكاملها في صيغة ميت ـ حي، هي خير من الحكاية التي تواسي فعلا في التو، لكنها تجعلك تجانب الثروة الحقيقية الوحيدة: حياة هنا والآن.

[٣]

## مسلسل المحرمات

لم يكتف الإله بتحريم أكل الفاكهة المحرمة مرة واحدة، ذلك أنه لا يبرز منذ ذلك اليوم إلا من خلال أصناف التحريم. فالديانات التوحيدية لا تحيا إلا من خلال التعليمات والدعوات: افعل ولا تفعل؛ قل ولا تقل؛ اعتقد ولا تعتقد؛ تحرك ولا تتحرك؛ حرام ومباح؛ جائز وغير جائز؛ موافق وغير موافق. فالنصوص الدينية تمتلئ بأصناف التقنين الوجودية والغذائية والسلوكية والتعبدية وغيرها. . . . . . .

ذلك أنه لا يمكن تمييز الطاعة تمييزا جيدا إلا من خلال المحرمات؛ فهي كلما كثرت، كلما ازدادت معها فرص الخطأ، وتقلصت احتمالات الكمال، واشتد بالتالي هاجس الذنب. وفي ذلك أمر جيد بالنسبة للإله ـ أو على الأقل بالنسبة لطبقة الكهنوت التي تحتمي به ـ، إذ يستطيع اللعب بهذا المحرك النفسي الجبار. فعلى كل واحد أن يعلم دائما أن عليه بالطاعة وباتباع السلوك المناسب والعمل كما يجب الفعل، وفق ما يدعو إليه الدين. لا يجب سلوك منهج حواء، بل نهج منهج آدم والاستسلام لإرادة الإله الأوحد.

إن أصل اشتقاق الكلمات يعلمنا أمورا في الموضوع: فالإسلام يعني الاستسلام. . . . وهل هناك طريقة لترك الذكاء خير من الإذعان لما حرمه

البشر؛ ذلك أننا لا نسمع جيدا، أو قلما نسمع، أو لا نسمع أبدا صوت الإله. فكيف له أن يبرز اختياراته المرتبطة بالغذاء واللباس والعبادة، عدا من خلال توسط طبقة الكهان التي تضع المحرمات، وتقرر باسمه في ما يجوز وما لا يجوز؟ إن إتباع هذه القوانين والقواعد قد يكون ربما امتثالا لله، ولكن الأكيد أنه امتثال لمن يستمد سلطته منه: أي الكاهن.

في جنان عدن، يخاطب الإله آدم وحواء؛ كان ذلك في العصر المبارك للاتصال المباشر بين الله ومخلوقاته... لكن الاتصال انقطع مع طردهما من الجنة. وهنا تكمن أهمية أن يبرز الإله حضوره في التفاصيل الدنيا للحياة اليومية وفي أتفه الأعمال. فليس مجال الإله السماء فقط، بل هو يراقب ويهدد في كل مكان ـ وكذلك هو الشيطان، إذن، يترصد في مخبئه...

إن الأهم يوجد في الحكاية الصغيرة: فاليهود يحرِّمون على أنفسهم القشريات مثلا، لأن الإله يشمئز من الحيوانات التي لا زعانف لها والتي تبرز هياكل عظمها للخارج؛ ونفس الأمر عند المسيحيين الذي يتجنبون اللحم يوم الجمعة المقدسة ـ اليوم المشهور بإفراط خضاب دم المسيح؛ وكذلك عند المسلمين المنشغلين بعدم التمتع بالخنزير. تلك ثلاث مناسبات، من بين أخرى، لإبراز الإيمان والعقيدة والتقوى والورع في عبادة الله..

فما يجوز وما لا يجوز يحتل مكانا مميزا في التوراة والتلمود، ويحتل بعض المكان في القرآن وخصوصا في الأحاديث. أما المسيحية ـ والمجد في ذلك للقديس بولس وإن كان الأمر لا يمثل القاعدة! ـ فإنها لا تربك نفسها بكل تفاصيل ما يتم فرضه ومنعه والإكراه فيه على جميع الأصعدة في سفر «الليفيتيك» و«السفر الخامس» (العبرانية)، من بين نصوص أخرى متضمنة لأوامر التحريم الكبرى: من استعمال المائدة والسلوك فوق الفراش وغلات

الحقول، ونسج الملابس وألوانها، واستغلال الوقت ساعة بساعة. . .

فالأناجيل لا تحرم لا الخمر ولا الخنزير ولا أي غذاء آخر، كما أنها لا تجبر على ارتداء ثياب بعينها. فالانتماء للجماعة المسيحية يقتضي التزاما بالرسالة الإنجيلية، لا بتفاصيل التعليمات المهووسة. ولن تخطر على بال مسيحي فكرة تحريم الوظيفة الدينية على شخص مشوه الشكل، أو أحدب، أو أعرج، أو أعمى، كما عند يهوا الذي يطلب من موسى الحرص على ذلك الأمر، بخصوص من يريد امتهان طقوس العبادة (الآية ١٦ من الفصل ٢١ من سفر «الليفيتيك»). لكن القديس بولس احتفظ بهلوسة ما يجوز وما لا يجوز على صعيد الجنس. وبخصوص هذه النقطة يشهد سفر **«أفعال الحواريين»** على وجود روابط وثيقة بين العهدين القديم والجديد.

يفرض اليهود والمسلمون ذكر الله في كل لحظة من الحياة اليومية؛ منذ الاستيقاظ وحتى النوم، مرورا بأوقات الصلاة، وبما يجب أكله وما لا يجب، وبطريقة اللباس؛ فليس هناك سلوك حتى أتفهه إلاً ويخضع لحرية التأويل. فلا مجال للتقدير الشخصي ولا للتقييم الفردي، بل فقط طاعة ورضوخ؛ ونفي لكل حرية في التحرك وإعلان لسلطان الضرورة. إن منطق الجائز وغير الجائز يحبس المرء داخل سجن يكون فيه التخلي عن الإرادة تعبيرا لتقديم الولاء ودليلا على سلوك مؤمن؛ وهو استثمار يؤدى ثمنه بسخاء، لكن متأخرا. . في الجنة

[٤]

## تسلط فكرة النقاء

إن الزوجين جائز/ وغير جائز يشتغلان ارتباطا بالزوجين نقي / وغير نقي. فما هو النقي؟ أو غير النقي؟ من يكون كذلك؟ ومن لا يكون؟ ومن الذي يقرر

في ذلك؟ وما هو، أو من هو مصدر سلطته وشرعيته؟ إن النقي يعني ما لا اختلاط فيه، وهو بعكس المزيج. ونجد في جانب النقي: الواحد، الله، الجنة، المثال، الروح؛ بينما نجد في الجانب المقابل: المختلف، المتعدد، العالم، الواقع، المادة، الجسم، الجسد. وتتقاسم الديانات التوحيدية الثلاث هذه النظرة للعالم وتحط من قيمة ماديته.

هناك جملة من الأمور غير النقية يشير إليها التلمود ويمكن تعليلها وفهم انبثاقها عن حكمة عملية: فاعتبار الجثة والجيفة ومجرى الفضلات والجذام أمورا غير طاهرة أمر مفهوم. فالعقل السليم يربط التحلل والعفن والمرض بأخطار قد تهدد الجماعة. فخطر الإصابة بالحمى أو بمرض، وخطر نشر وباء أو انتشار أمراض متنقلة جنسيا هو ما يبرر خطاب الوقاية، وهو طب شعبي ناجع. فعدم الاقتراب من الشر هو بداية الخير.

إن عدم النقاء معد طبعا: في المكان وتحت الخيمة وفي الأشياء وبين الناس الذين نتصل بهم؛ والشخص غير النقي يعدي بدوره كل ما سيقترب منه أو يلمسه مادام التطهير أو الوضوء لم يضع حدا لحالة الخطر الجماعي هذه. ويرى المكلف بشروط الصحة في ذلك إجراءات مرغوبة لتفادي انتشار الأذى؛ لكن الحجة الوقائية لا تصلح لأشكال أخرى من عدم النقاء. فما هو الخطر في الاقتراب من امرأة حائض؟ أو من أخرى نفساء؟ فكلتاهما غير نقيتين. فبقدر ما يمكننا أن نفهم الخوف من النزيف غير العادي الذي قد يعني خطر أمراض التعقيب والسيلان أو الزهري، بقدر ما نتساءل عن هذا الحط من قيمة الدم الشهري، أو من المرأة الحديثة الوضع، إلا إذا قدرنا فرضية أنها في هذه الفترة لا تكون خصيبة، وبالتالي يكون بإمكانها التصرف بجسدها وبحياتها الجنسية دون الخوف من الحمل ـ وهي حالة وجودية غير مقبولة عند الحاخامات، أنصار مثل الزهد والامتداد الديموغرافي. .

يشاطر المسلمون اليهود عددا من التصورات منها بالأساس هذا التعلق بالنقاء. فالجسد عموما غير طاهر بمجرد أنه جسد؛ وهنا يكمن الإلحاح على تطهيره باستمرار من خلال اعتناء خاص: الختان، وتنظيف اللحية، وقص الشارب والشعر، وتقليم الأظافر، وتحريم إدخال طعام لم يهيأ وفقا للطقوس، وحظر كل اتصال بالكلاب، والتحريم المطلق للخنزير والكحول بطبيعة الحال، ثم تجنب متطرف لكل مادة جسمية ـ من بول ودم وعرق ولعاب ومني وبراز.

صحيح أنه يمكن مرة أخرى تبرير الأمر بطريقة عقلانية: الوقاية الصحية والنظافة والطهارة، دونما أن نعلم لماذا الخنزير بالذات وليس لحم الجمل: هناك من يطرح مسألة أن الخنزير كان الحيوان الرمز لبعض الفيالق الرومانية فيكون في الأمر مسألة ذكرى سيئة؛ وهناك آخرون يرجعون الأمر إلى كونه يأكل كل شيء ويطعم على الفضلات العامة. . وكره الكلاب قد يرجع لخطر العض والسعار؛ وإدانة الكحول تعود لكون المناطق الحارة تبدو مناسبة للبطالة التامة والراحة وللمغالاة في الشرب، وبالتالي يفضل أن يتم الإكثار من الماء أو الشاي، بدل الكحوليات، نظرا لآثارها المستقرأة. قد توجد لكل هذا تبريرات عقلية.

فلماذا لا يتم الاكتفاء بممارسة علمانية؟ فما الغاية من تحويل هذه الاحتياطات الحكيمة إلى مناسبات لقواعد شديدة وملزمة ولقوانين غير مرنة، ثم ربط الخلاص والهلاك الأبديين بمدى التقيد بهذه الإملاءات؟ فوجوب النظافة عند الاستنجاء أمر لا يجادله أحد، خاصة في المناطق والأزمنة التي لا توجد بها لا دورات المياه ولا المياه الموزعة، ولا مجاري الصرف الصحي، ولا مواد التطهير كذلك.

لكن أن توصي الأحاديث بتفاصيل عملية تطهير الشرج: ليس أقل من ثلاث قطع حجر وعدم اللجوء للحثالة (!)، وللعظام (!)؛ وأن توصي بعدم التبول جهة الكعبة، وبشروط الطهارة السابقة للصلاة: عدم وجود سائل مسلكي وعدم خروج الريح والغيط، والحيض طبعا؛ بل وكذلك بالطبع ـ وهذه من بين أسباب الخروج من الإسلام ـ عدم معاشرة الزوجة خلال حيضها، وعدم مباشرتها من الدبر؛ ويكمن السبب هنا، مرة أخرى، في الحياة الجنسية المنفصلة عن النسل. . . ففي كل هذا يتعذر علينا العثور على الأسباب العقلانية المعقولة.

[٥]

## وضع الجسد موضع الاحترام

كيف يمكن فهم مسلسل المحرمات اليهودية والإسلامية ـ الكثيرة التشابه ـ ما عدا من خلال الربط المنهجي بين الجسد وغياب النقاء؟ الجسد القذر المتسخ المتعفن ذو المواد الخسيسة والجسد الشبق، وجسد السوائل والغازات؛ والأجساد النتنة والأجساد المريضة وأجساد الموتى والكلاب والنساء وأجساد الفضلات والقاذورات؛ والجسد المدمى والنتن والجسد اللوطي والعقيم وغير الخصيب، والجسد الكريه. . . .

هناك حديث يوصي بضرورة تطهير الجسد من خلال ممارسة الوضوء، ويؤكد أنه كلما كثرت هذه الممارسة كلما ازدادت حظوظ امتلاك جسد بهي في السماء، بالمعنى المسيحي للبهاء. فيوم البعث يولد الجسم من جديد وعليه علامات منيرة فوق الأماكن المتصلة بسجاد الصلاة. فهناك جسم ببشرة سوداء وداكنة في مقابل جسم بروح بيضاء ومتوهجة. فمَنْ، من بين ذوي العقول البسيطة، سيرغب بجسد دنيوي مذنب، حين يكون الأمل بجسم فردوسي بديل

يقينا يفتتن به كل مؤمن ينحني لمنطق الجائز وغير الجائز، وفقا لمبدأ النقي وغير النقي؟ من منهم سيرغب بذلك؟

إن طقوس التطهير هي مناسبات لوضع الجسد موضع الاحترام. . . فكل عضو يحتل مكانا داخل مسار صلاة منتظمة ومرتبة بدقة. فلا شيء يخفى عن نظر الله. هناك تأهيل للمواد المستعملة ـ ماء وحجر ورمل وتراب ـ وترقيم للأطراف وتقنين بالطقوس، وتسجيل لعلم التشريح ضمن ترتيب للمرور، ورسم لمسرح تكرار الحركات: الأصابع والمعصم الأيمن والسواعد والمرفقين، ثلاث مرات وما إلى ذلك. . . . ولا يجب نسيان الكعب، لأن هذا النسيان يؤدي إلى النار. . .

لنتجنب تحليلا عقليا خالصا مستندا إلى الرغبة بالنظافة فقط. فحين يتعلق الأمر بالتحذير من دنس البول فوق الثياب، أو باستعمال اليد التي لا نأكل بها عند الاستنجاء، فإن الحجة تصمد؛ لكنها تنهار حين نتأمل الأحاديث التي ترخص بتطهير القدم من فوق الخف، وحين يتم التصريح بأن العملية ممكنة حتى مع الاحتفاظ بالجوارب. أكيد أن للإله أسبابا أخرى غير أسباب النظافة الصحية الخالصة!

إن ترويض الجسد في التطهير يزاوجه الترويض نفسه في ممارسة الصلاة ـ خلال الصلوات الخمس اليومية التي يعلن عنها المؤذن من على المئذنة. فلا مجال للمرء للتصرف بوقته لنفسه، ولا بجسمه: فالقيام والنوم يرتبطان بالأذان، وكذلك مجرى اليوم، لأن كل شيء يتوقف من أجل الصلاة. وهناك اصطفاف خلال الصلاة تعبيرا عن انضباط وانتظام وعلى توافق بين الجماعة. لا مكان للنساء. الأكبر سنا في الصفوف الأولى؛ وسجود الأجسام يكون وفق تقنين دقيق: سبعة عظام يجب أن تتصل بالأرض ـ الجبين واليدين والركبتين وطرفي

القدمين. لن نعارض الإمام في أمور نافلة، لكن حساب قدم واحدة تساوي خمس أصابع وقدمين تعطيان عشرة؛ واعتمادا على اختصاص مبحث الأقدام نكون قد تجاوزنا نظرية السبعة عناصر . . .

تعتبر بعض وضعات الجسد محرمة لأن ليست مطابقة للشرع، وكذلك الأمر لبعض الركوع وبعض السجود: إن ذلك يجب أن تؤدى وفقا للقواعد. لا مجال لأن يتسلى الجسم هنا، بل عليه إثبات الخضوع والطاعة؛ ولا يمكن أن تكون مسلما دون إبداء استمتاع متحمس في الرضوخ للتفاصيل. ذلك أن الله يكمن في التفاصيل. كلمة إضافية: إن الملائكة لا تحب الثوم ولا البصل وبالتالي يجب على المرء تجنب التجول أمام المساجد حينما يكون معه بعضها؛ وأكثر من ذلك تجنب إدخال الكميات الكبرى إلى داخلها!

## II
# إعدام الذكاء

## [١]

### المعمل السري للكتب المقدسة

كره الذكاء والمعرفة، والدعوة للطاعة بدل التفكير، واشتغال الزوجين المزدوجين، جائز وغير جائز - نقي وغير نقي، من أجل توليد الطاعة والرضوخ في مكان التصرف الحر بالذات: كل هذا يوجد مقنّنا في الكتب المقدسة. إن التوحيد يقدم نفسه باعتباره ديانة الكتاب الأوحد - لكن يبدو جليا أنه مذهب ثلاثة كتب نادرا ما تقبّل أحدها الكتب الأخرى. فأتباع بولس لا يحبون التوراة كثيرا، والمسلمون لا يقدرون حقا التلمود والأناجيل، بينما يعتبر محبو التوراة أن العهد الجديد والقرآن تضليل وتدجيل.. وتوصي هذه الكتب كلها، بطبيعة الحال، بمحبة القريب. ولكنه كم هو صعب أن يكون سلوكك بلا موضوع مؤاخذة مع الإخوان من الديانات الإبراهيمية. !

إن نسج هذه الكتب المسماة مقدسة يدخل ضمن قوانين التاريخ الأساسية؛ إذ يجب مقاربة هذا المتن بعين فقه اللغة، والتاريخ والفلسفة والرمز، والمثال، وغيرها من الأسماء التي تعفي من الاعتقاد بكونه نابعاً من مصدر وحي ونتيجة

إملاء رباني. إنه لم يوح بأي من هذه الكتب. فمن أوحى بها؟ إن هذه النصوص لم تنزل من السماء ومثلها في ذلك مثل الخرافات الفارسية والأساطير الأيسلندية.

إن **التوراة** ليست قديمة مثلما تقدمها التقاليد : **فموسى** شخصية بعيدة الاحتمال، **ويهوا** لم يقم بإملائه أي شيء وخصوصا كتابا لم يكن موجودا أيام موسى! وليس بين الإنجيليين من عرف عيسى شخصيا؛ فقانون الوصايا صدر عن قرارات سياسية متأخرة خاصة عندما قام **«أوزيب دي سيزاري»** بتكليف من الإمبراطور **قسطنطين** بتكوين متن اعتمادا على سبع وعشرين رواية وذلك خلال النصف الأول من القرن الرابع؛ والكتابات الإنجيلية المزيفة هي أكثر عددا من تلك التي تشكل **العهد الجديد**. ومحمد لم يكتب **القرآن**، فهذا النص لم يوجد كما هو الآن إلا بعد خمسٍ وعشرين سنةً من وفاته؛ والمصدر الثاني للتشريع لدى المسلمين، أي كتب الحديث، فإنها لم تر النور إلا خلال القرن التاسع، أي بعد قرنين من وفاة النبي. وهو ما يمكن من خلاله استنتاج الحضور النشيط للبشر تحت ظلال الآلهة الثلاثة...

[٢]

## الكتاب الأوحد ضد الكتب

بهدف إرساء سلطة القرآن النهائي، قامت السلطات السياسية ـ الخليفة مروان حاكم المدينة ـ بجمع الروايات الموجودة، ثم إتلافها وحرقها من أجل الاحتفاظ برواية واحدة تجنبا للمقارنات التاريخية الكفيلة باستخراج آثار ابتداع إنساني؛ ابتداع مفرط في الإنسانية ( هناك على كل حال رواية نجت من محكمة تفتيش الروايات السبع الأصلية، وهي مازالت تسود حتى اليوم في بعض دول إفريقيا). إن في القصة استباقا لمحارق الكتب المتعددة باسم الكتاب الواحد.

فكل كتاب من الكتب الثلاثة يزعم أنه الأوحد ويؤكد تضمنه لما يجب الاطلاع من علم ومعرفة؛ فهو يجمع بطريقة موسوعية الأهم ويحذر من البحث في الكتب الأخرى، الوثنية والعلمانية، ما يحتويه هو أصلا.

لقد مضى المسيحيون في هذا الأسلوب مع القديس بولس دي تارس الذي دعا في جزء «أعمال الحواريين» (الفصل ١٩ الآية ١٩) إلى حرق كل المخطوطات الخطيرة. لم تسقط الدعوة في آذان صماء مع قسطنطين وأباطرة آخرين ـ مسيحيين جدا ـ، فقاموا بطرد ومنع فلاسفة، واضطهدوا قساوسة وثنيين، وحرموا أناسا من الحياة الاجتماعية وسجنوا، بل وقاموا حتى بقتل البعض. إن كره الكتب الغير المسيحية قد أنتج فقرا عاما في الحضارة: فكان ابتداع فهرس الكتب المحرمة، خلال القرن السادس عشر، الذي سيتمم مع محاكم التفتيش مشروع استئصال كل ما يحيد عن خط الكنيسة الكاثوليكية الرسولية الرومانية.

إن الرغبة بالانتهاء من الكتب غير المسيحية وبتحريم نوع من الفكر الحر (فكل الفلاسفة المهمين منذ مونتيني وحتى سارتر مرورا بباسكال وديكارت وكنط ومالبرنش وسبينوزا ولوك وهيوم وباركلي وروسو وبرغسون وعدد آخر منهم ـ دون الحديث عن أصحاب النزعة المادية والاشتراكية وعن الفرويديين ـ كلهم يوجدون على الفهرس المحرم. . ) تقوم بتفقير الفكر الذي يجبر على العدول، وعلى الصمت، وعلى الحذر المفرط. ؛ فالإنجيل يحول، تحت دعوى احتوائه كل شيء، دون كل ما لا يحتويه. لقد كانت الخسارة عظيمة طيلة قرون.

وكثيرة هي الفتاوى الصادرة ضد كتاب مسلمين وإن لم يكونوا يدافعون عن أطروحات ملحدة ولا يناقشون تعاليم القرآن ولا يلجؤون للقذف والسب بحق

المقدسات. يكفيك أن تفكر ببساطة وتعبر بحرية لكي تستجلب الصواعق. إن ثمن كل نزوة بالتفكير المستقل يكون باهظا: النفي والمطاردة والاضطهاد والوشاية وحتى الاغتيال؛ وكل المآسي التي جربها علي عبد الرازق ومحمد خلف الله وطه حسين ونصر حامد أبو زيد ومحمد إقبال وفضل الرحمن ومحمود محمد طه..

إن رهبان الديانات الثلاث يرفضون أن يفكر المرء ويتأمل بنفسه؛ وهم يفضلون منح الترخيص - «إجازات الطبع الكنسية» - للمشعوذين الذين يدخنون المستمعين لهم بمهاراتهم في اللعب باللغة وفي بسط المصطلحات وتجويف العبارات. فما الذي فعله علم الكلام اللاهوتي خلال قرون غير رمي غطاء لغوي، من خلال السجل المعتم للهيئة الفلسفية، على الخرافات المسيحية العتيقة وعلى العقائد الكنسية؟

إن اليهود والمسيحيين والمسلمين يحبون تمارين الذاكرة، ويستلذون بالخصوص لعبة المؤمنين المرتلين؛ فالمسلمون يحفظون في سن مبكرة سور القرآن، ويتعلمون قواعد تجويده وترتيله. والتجويد إنشاد بطيء وشجي، مع تنويعات غنائية غنية ومنمقة، وتصاحب كل ذلك وقفات هامة؛ أما الترتيل فهو استظهار بطيء. وتتبنى المدارس الدينية تقليديا سبع قراءات اعتبارا للتأويلات اللسانية والصوتية: حروف مخففة أو معززة دون معنى، وأخرى مهملة أو منطوقة بخفة، تنميق باسترجاع ضميري؛ وكل ذلك يساهم بإذهاب روح ومعنى وذكاء النص وراء الاشتغال الصوتي الخالص للحروف...

تشهد على ذلك التراتيل الجمعية التي نسمعها في المدارس التلمودية والقرآنية - وغالبا ما تستعمل المدرسة الدينية في محاربة الفلسفة - : يتم التعلم فيها بصوت مرتفع وفي جماعة، وفق نغمة تسير على إيقاع جماعي ومشترك.

فالغناء الرتيب يساعد على حفظ تعاليم **ياهوا والله**. وتقنية الاستذكار اليهودية للقراءة والحروف الأبجدية تقتضي حتى ربط الحروف بمضامين هي من صميم العقيدة التلمودية.

إن الكتاب يروم إذن ما يشبه نوعا من إتلافه المادي، بعد حفظه كاملا. وهي حيلة العقل الذي بحفظ التوراة والقرآن عن ظهر قلب، يتمكن في حال الاضطهاد والنفي، أو في أي ظرف آخر يحول دون الحضول على الكتاب، أن يستحضره ذهنيا ومعه تعاليمه..

[٣]

## مقت العلم

إن هذا القانون الملازم للكتاب الوحيد، الشامل، الكامل والذي يزاوجه الاعتقاد المؤسف بأن كل شيء يوجد داخل نص واحد، يقود إلى استبعاد اللجوء والاستغاثة بالكتب غير الدينية ـ دون أن يكون المرء بالضرورة ملحدا ـ، مثل الكتب العلمية. فالديانة التوحيدية لا تحب كثيرا، خارج الاستعمال المنتفع، العمل العقلي والعلمي. صحيح أن الإسلام يعز علم الفلك والجبر والرياضيات والهندسة والبصريات، ولكن من أجل التمكن من تدقيق حساب اتجاه الكعبة من خلال النجوم ومن أجل إرساء التقويم الديني وضبط أوقات الصلاة؛ وصحيح أنه يحب الجغرافيا، لكن من أجل تسهيل الالتقاء عند الكعبة خلال حجيج المؤمنين من العالم كله؛ وصحيح أنه يمارس الطب، ولكن من أجل تجنب الدنس الذي يمنع الاتصال مع الله؛ وصحيح أنه يثمن النحو والفلسفة والقانون، ولكن من أجل شرح أحسن للقرآن والحديث. إن استخدام الدين للعلم كأداة هو أمر يُخضع العقل لاستعمالات منزلية ولاهوتية. إن العلم على أرض الإسلام لا يمارس لذاته، بل للزيادة في الممارسة الدينية؛ فمنذ

قرون من الثقافة الإسلامية، لا نلمح أي ابتكار أو بحث أو اكتشاف في ميدان العلم العلماني. هناك حديث شهير يدعو لطلب العلم ولو في الصين، ولكن دائما ضمن منطق استعماله كأداة من قبل الدين وليس أبدا من أجل مثل أعلى، إنساني خالص أو مرتبط بالتقدم الاجتماعي.

وتعتبر المسيحية كذلك أن الإنجيل متضمن لكل العلم الضروري للسير الجيد للكنيسة؛ فقد ساهم الإنجيل منذ قرون في جعل كل بحث يتجاوز النصوص المقدسة، أو يقلقها، أو يسائلها، أمرا مستحيلا حتى وإن كان لا يناقضها بالضرورة. وإخلاصا منها للعبر التي يقدمها سفر التكوين (المعرفة ليست مرغوبة، فالعلم يبعد عن ما هو جوهري ـ الله)، تقوم المسيحية بعرقلة مسيرة الحضارة الغربية من خلال التسبب في خسائر وأضرار يصعب تقدير حجمها.

ومنذ انطلاق المسيحية بداية القرن الثاني، كانت الوثنية موضوع إدانة مطلقة: فكان كل ما تقدمه مردودا، ويربط بالآلهة المزيفة وبالشرك والسحر والضلال. رياضيات أقليدس؟ فيزياء أرخميدس؟ جغرافيا إراتوستين؟ علم خرائط بطليموس؟ وعلوم أرسطو الطبيعية؟ علم فلك أريستارك؟ طب أبوقراط؟ وعلم تشريح هيروفيل؟ كلها ليست علوما مسيحية بما يكفي!

إن الاكتشافات التي بلغتها هذه العقول الإغريقية النابغة، مثل فكرة مركزية الشمس على سبيل المثال لا الحصر ـ، لها قيمتها الثمينة بمعزل طبعا عن آلهة ذلك العهد، وعن نظامه الديني. فلا يهم كثيرا وجود الإله زيوس وأقربائه حين يتعلق الأمر بتحديد قوانين «علم توازن الموائع»، hydrostatique، وبحساب طول خط الزوال وابتكار خطوط الطول وخطوط العرض، وقياس المسافة الفاصلة عن الشمس، وإعلان دوران الأرض حول الشمس، وإتمام نظرية فلك

التدوير، ورفع خريطة السماء وإرساء مدة السنة الشمسية والربط بين المد والجزر وجاذبية القمر واكتشاف النظام العصبي وطرح فرضيات الدورة الدموية، وكل ما إلى ذلك من الحقائق التي لا تبالي بامتلاء السماء..

إن إهمال مكتسبات هذه البحوث، والتصرف وكأن هذه الاكتشافات لم يصلها الإنسان أبدا واستئناف الأمور من الصفر، فأقل ما يقود إليه هو الركود والدخول في جمود خطير؛ والأخطر من ذلك، أنه بينما يتقدم الآخرون، يكون التراجع والتقهقر بسرعة قصوى والتوجه بطريقة عمياء نحو الظلمات التي تحاول بطبيعة الأمور كل حضارة التحرر منها لكي تكون. يعتبر رفض الأنوار خاصية من خصوصيات ديانات التوحيد: فهي تعز العتمة العقلية من أجل ضمان دوام حكاياتها الخرافية.

[٤]

## إنكار المادة

في مجال العلم كانت الكنيسة تخطئ في كل شيء منذ الأبد؛ وعند حضور حقيقة معرفية، تقوم باضطهاد المكتشف. فتاريخ علاقات العلم بالمسيحية يحبل بجملة من السخافات والحماقات: بدءا برفض المسيحية لفرضية مركزية الشمس القديمة وانتهاء بإداناتها المعاصرة للهندسة الوراثية يكون هناك تراكم ٢٥ قرنا من الإرباك بالنسبة للإنسانية. لا يمكن تصور مسيرة الغرب دون مثل هذا الإزعاج الطويل للعلم!

وإن من بين خطوط القوة في هذا الانتحاء المعادي للعلم: الإدانة الثابتة والملحة للفرضيات المادية. إن نبوغ لوسيب وديموقريطس، اللذين اكتشفا الذرة خلال القرن الخامس قبل تاريخنا، دون أن يمتلكا أي وسائل مادية لإثبات حدسهما، ما زال يثير الانبهار. فبدون مجهر ولا أدوات تكبير، ولا عدسات،

بل فقط من خلال فكر تجريبي فعال: الاستنتاج والتعميم، عند رؤية حبات الغبار وسط شعاع ضوء، بوجود جزيئات، صحيح أنها لا ترى بالعين المجردة ولكنها موجودة بالفعل. والنتيجة أن تركيب هذه الذرات يفسر تكوين كل مادة وبالتالي تكوين العالم.

من لوسيب إلى ديوجين دينانذا مرورا بأبيقور ولوقريس وفيلوديم ديغادارا، كانت دائما تقاليد النزعة الذرية حية: ولقدت صمدت لمدة ثمانية قرون خلال الأزمنة الإغريقية والرومانية القديمة. ويقدم كتاب «**في طبيعة الأشياء**» العرض الأكثر تطورا للفيزياء الأبيقورية: وهو عرض لشكل وطبيعة ووزن وتكوين الذرات ولتنظمها في الفراغ، ولنظرية الميل والتوليد والفساد؛ لا ينقصه شيء لفك كامل لشفرات العالم. صحيح أنه إذا كان كل شيء مكوناً من المادة، فالروح والنفس والآلهة تكون كذلك. والناس أيضا. ومع بروز قوانين السببية الملازمة الخالصة، تتوقف الحكايات الخيالية والخرافية، وبالتالي تتوقف الديانات، وتختفي معها وسائل سجن روح وجسد سكان المدينة ـ الدولة.

تصدر الفيزياء القديمة عن منهج شعري؛ ومع ذلك تجد نفسها تتأكد مع مرور الزمن. تمر القرون، لكن في عصر المجهر ذي المسح الالكتروني وآلة تسريع الجزيئات والبوزيتونات والانفلاق النووي وعصر الوسائل التكنولوجية لدخول قلب المادة، يجد حدس ديموقريطس نفسه صحيحا. فتتلقى الذرة الفلسفية درع التكريم من عالم العلوم ـ والعلوم النووية منها بالخصوص. لكن الكنيسة مازالت تصر حتى الساعة على موقفها ذي النزعة المثالية الروحية اللامادية: أي أن داخل الروح تصمد حقيقة لا يمكن حصرها في أي مادة.

لن نجد غرابة إذن أن تكون النزعة المادية أمقت شيء للمسيحية منذ

بداياتها. ولا تتردد الكنيسة أمام أي وسيلة بهدف بث الشك بخصوص هذه الفلسفة المنسجمة التي تفسر كل العالم الواقعي بالمطلق. ومن أجل منع الوصول لفيزياء الفلسفة الذرية، أي وسيلة أحسن من الحط من قيمة أخلاق الفلسفة الذرية؟ أي القذف إذن بحق الأخلاق الأبيقورية: ألا يعرف أبيقور المتعة بأنها السكينة؟ فيكون تغيير هذا التعريف السلبي ـ أي غياب الاضطراب ـ إلى سخافة مطلقة بالقول إن أبيقور يمجد الاستمتاع البهيمي والفظ المبتذل للحيوانات! وهكذا ينتهي اعتبارها هذه الفيزياء الخطيرة في عين الطبقة المسيحية فكرة تستحق الذكر، بما أنها صادرة عن خنزير قذر يدعى أبيقور..

وهكذا فإن المسيحية تضرب بقوة حيثما ظهرت شبهة النزعة المادية. فحينما مات جيوردانو برونو فوق محرقة المسيحيين بكامبو دي فيوري، سنة ١٦٠٠، كان ذلك بسبب النزعة المادية أكثر منه بسبب الإلحاد ـ فهو لم ينف أبدا وجود الإله، بل تحدث عن الامتداد المشترك لله والعالم. فلا نجده في أي مكان يمس بالقدس كما أنه لا يدعو إلى إهانة إله الكاثوليك؛ لقد كتب وفكر وأكد أن الله، الموجود حقا، لا يمكنه أن لا يكون فوق العالم الممتد؛ أي تلك الماهية الممتدة التي سنجدها في المعجم اللاحق مع ديكارت.

فجيوردانو برونو، وهو بالمناسبة راهب دومينيكي، لا ينفي وجود الروح؛ لكنه، لسوء قدره، يؤطر وجودها في مجال الذرات الفيزيائي. فالجزيئات بالنسبة له مراكز حياة وأماكن تتجلى من خلالها الروح التي تشترك في الخلود مع الله. إن الألوهية حقيقة، لكنها تتعايش مع المادة، وهي لغزها المحلول. فالكنيسة تؤمن بتجسيد الإله هي أيضا، لكن فقط في ولد عذراء ونجار؛ لا في ذرات، أبدا........

ونفس الأمر مع غاليليو ـ الرمز المجسد لمقت الكنيسة للعلم، وللخلاف

بين الإيمان والعقل. مازالت تحتفظ الأسطورة بقصة فكرة الشمس مركزا للكون: فالبابا وأتباعه يدينون مؤلف كتاب «**حوار بخصوص أكبر نظامين للعالم**»، لأنه دافع عن فرضية أن الأرض قمر من أقمار شمس توجد في مركز الكون. فحدث اتهام، ثم محكمة، ثم انكماش؛ وكلنا يعرف القصة التي ستنتهي بقول غاليليو، خارجا من قصر المحكمة: «**وهي مع ذلك فهي تدور. .**» ـ كما في مسرحية برتولد بريشت، «**غاليليو غاليلي**». .

كان مسار الأمور مختلفا في حقيقة الأمر. فعلى ماذا أوخذ غاليليو حقيقة؟ لم يكن الأمر بسبب دفاعه عن الفلك الكوبيرنيكي ـ والذي يتعارض مع ذلك مع الموقف الأرسطي للكنيسة ـ، بل بسبب موقفه المادي. . ففي ذلك العصر، كانت فكرة مركزية الشمس تساوي أمام الحكم الإقامة الإجبارية مدى الحياة، وهي عقوبة خفيفة نسبيا؛ أما الدفاع عن فكرة ذرية الكون، فتقود نحو المحرقة مباشرة! وبالتالي، كان من الأجدر اختيار الموجب الأقل ضررا. . أي بالأحرى تبني معصية فكرة مركزية الشمس العرضية، بدلا من معصية الفكرة الذرية القاتلة. . .

[٥]

## فكرة وجودية مخبزية

ما السبب الذي يدفع بالكنيسة إلى الحرص بهذا الشكل على اضطهاد أنصار فكرة ذرية العالم؟ أولا، لأن وجود المادة حصرا دون غيرها يقود بالضرورة إلى إثبات وجود إله مادي؛ ومن ثم نفي طبيعته الروحية اللازمنية واللامادية وما إلى ذلك من صفاته الأخرى المثبتة على بطاقة هويته المسيحية؛ فينهار بالتالي ذلك الإله المتعذر الذي لا يمس الذي صنعته اليهودية ـ المسيحية.

وهناك سبب آخر، خبزي بالمناسبة؛ ذلك أن الكنيسة تؤمن باستحالة القربان

(تحول خبز القربان وخمره إلى جسم المسيح ودمه) وتؤكد ذلك انطلاقا من كلام المسيح: «هذا جسدي، وهذا دمي» (إنجيل متى؛ فصل ٢٦؛ آيات ٢٦ ـ ٢٨)؛ أي أن جسد المسيح ودمه الحقيقيين يوجدان في خبز القداس المسيحي. فالأمر ليس رمزا ولا أمثولة، بل حقيقة.. فعند رفع الفطيرة نحو فم المؤمن، يكون القس يحمل جسد المسيح عند طرف يديه.

عبر أي عملية يجعل الروح القدس خبز المخبزة ينتج سر جسم ودم يتوافران بكثرة على سطح البسيطة؟ ففي الوقت نفسه الذي يقيم فيه الرهبان قداساتهم في جميع أنحاء الأرض، يكون الأمر في كل مرة حقيقةً جسم المسيح الميت، المبعوث حيا، والذي يظهر ثانية في كامل طراوته الخالدة، وكأن الخلود لا يغير فيه شيئا. إن المسيح، الشغوف باللسانيات، يستعمل الفعل الإنجازي ويخلق الواقع من خلال كلامه فقط: إنه يجعل الأمور تقع بمجرد ما أن يصوغها كلاما ويقول بها قولا.

إن كنيسة الأزمنة الأولى تؤمن بذلك؛ وكذلك كنيسة الأزمنة الأخيرة. فالتعميد في الكنيسة الكاثوليكية ـ بشكلها في القرن الواحد والعشرين ـ، مازال يؤكد وجود المسيح حقيقة في سر القربان المقدس (بند ١٣٧٣). ومن أجل تشريع هذه الحكاية ـ الخرافة، تتلو ذلك إحالات على محفل الثلاثين الديني وعلى كتاب «مجمل القول اللاهوتي» للقديس طوماس داكان، وعلى أسرار الإيمان ـ المصنفة تحت رقم ٣٩ من قبل الكنيسة ـ، وعلى نصوص أخرى للقديس يوحنا كريزوستوم الذي كان في «العظة الأولى ضد الأنوميين» محقا بالانخراط في الدعوة التي أطلقها القديس بولس حين أعلن للكورنثيين في ما يشبه مناسبة مبهجة: «سيتم إبادة العلم». إن مثل هذه المسلمة الأولية تبدو ضرورية لبلوغ مثل هذه البلاهات.

لا تزال الكنيسة تعتقد بالحضور الفعلي للحم المسيح ودمه في خبز الخباز وشراب زارع الكروم. لكن من أجل تمرير مثل هذه الأقراص الوجودية، لا بد من بعض التشنجات الفكرية. . ولعل صندوق أدوات مفاهيم أرسطو فيلسوف الفاتيكان هو ما يسمح بالبراعة في هذا الدور المراوغ. من ثم جاءت سلسلة من منظري الأوهام الدائمين الذين يعتمدون مقولات هذا الفيلسوف.

تفسير: إن جسد المسيح يوجد **حقيقة وواقعا وجوهرا** ـ وفق اللغة الرسمية ـ في خبز القربان، ونفس الأمر بالنسبة للدم في الخمر. ذلك أن جوهر الخبز تختفي مع كلمات الراهب، في حين تبقى عناصره المحسوسة والعارضة ـ من لون ومذاق وحرارة وبرودة. تبقى العناصر بفضل الإرادة الإلهية بطريقة معجزة؛ فمن يقوى على إنجاز العظيم ـ خلق العالم ـ يقوى على الصغير ـ خدع بخصوص بضاعة خبزية. إن لذلك مذاق الخبز فعلا، لكنه ليس (أو لم يعد) خبزا. ونفس الأمر بالنسبة للخمر: إنه يشبهه بقوة؛ إنه أبيض مثل دم المسيح الأحمر، وهو لا يسكر (أو لم يعد يسكر)، لكنه مع ذلك من نوع الخمر الأبيض الخفيف.

فهذه الخداعات، وهذا اللعب بالجوهر وبالعناصر المحسوسة، ضرورية لجعل المؤمن يعتقد أن ما يوجد (الخبز والخمر) لا يوجد، وأن ما لا يوجد (جسد المسيح ودمه) يوجد حقا! خدعة شعوذة ميتافيزيقية لا نظير لها! فحين يتدخل فقه اللاهوت، يتخلى فن الأكل والخمر، بل قل كذلك علم التغذية ومبحث الدم، عن إدعاءاتهم. والحال أن مصير المسيحية يُلعب في هذه المسرحية الهزلية للعبة الورقات الثلاث الوجودية، المثيرة للرثاء.

[٦]

## أبيقور لا يحب خبز القربان

وما محل أبيقور من كل هذا؟ إنه يحب الخبز، لأن مأدبته فاخرة من قطعة

كبيرة مع قدر يسير من الجبن تعبر التاريخ وتترك في تاريخ الفلسفة ذكريات لا تموت. لكنه كان سيسخر من الأرنب القرباني الخارج من القبعة المسيحية؛ كان سيضحك ضحكة طويلة لا تنطفئ.. لأن خبز القربان المقدس، وفق القواعد التي ذكرها في «رسالته إلى هيرودوت»، ينحصر في ذرات. أما لوقريس، فسيفسر لنا كيف يمكن، من خلال دقيق قمح وماء ودون خميرة، إعداد هذه الفطيرة البيضاء الشاحبة التي تعجن في الفم وتذوب من خلال علبة ذرات متصلة بنظيراتها. لا يوجد شيء مما يفيد خيالات التحول الجوهري القرباني؛ هناك فقط مادة لا غير...

ذلك هو خطر الفكرة الذرية والنزعة المادية: إنهما تجعلان هراء الكنيسة اللاهوتي غير ممكن ميتافيزيقيا. فوفق المعايير الذرية المعاصرة، نجد في الخبز والخمر نبوءة أبيقور: أي مواد. فالإخفاء الذي صار ممكنا بسبب الهذيان حول الجواهر والعناصر المحسوسة، يصير مستحيلا مع النظرية الأبيقورية. ولذلك كان من الواجب إسقاط تلاميذ ديموقريط؛ وذلك من خلال الحط من قيمة حياتهم وسيرهم وتلبيس أخلاقهم الزاهدة لباس الانحلال والفسق والبهيمية.

ففي سنة ١٣٤٠، كانت لنيكولا دوتركور الشجاعة في طرح نظرية للضوء حديثة جدا، لكنها ذرية الفكرة: فقد آمن بطبيعة الضوء الجسيمية (وقد صدقت العصور الحديثة اليوم نظريته)، وهو ما يقتضي تماهيا بين الجوهر والصفات. ويتضمن ذلك خطرا على الخلطة الميتافيزيقية الأرسطية. ! أجبرته الكنيسة دون تردد على التبرؤ من أفكاره، وأحرقت كتبه. كانت بداية اضطهاد لكل البحوث العلمية التي تمر عبر المذهب الذري ـ والذي منعه اليسوعيون منذ ١٦٣٢ وطال هذا المنع قرونا. كما أن المادية (في البندين ٢٨٥ و٢١٢٤ من كتاب «العقيدة») تمثل على لائحة ما تستنكره الكنيسة المعاصرة...

[٧]

## انحياز الإخفاق

ولما كانت الخلطة الإنجيلية تغني عن كل علم، فإن الكنيسة تجانب كل الاكتشافات الكبرى التي تحققت طيلة القرون العشرة التي احتوت خلالها السلطات الكاثوليكية الرسولية الرومانية الذكاء، لكن دون أن توقفه. وتحقق التطور بفضل أفراد متمردين وباحثين مصممين، وأنصار علوم فضلوا حقائق العقل على معتقدات الإيمان. لكننا إذا نظرنا قليلا إلى ردود فعل الكنيسة تجاه الاكتشافات العلمية على مدى الألف عام الأخيرة، سنبقى مذهولين مشدوهين أمام الإخفاقات والخيبات المتراكمة!

يتعلق الأمر إذن برفض المذهب الذري باسم الأرسطية؛ ثم رفض كل آلية للعالم باسم قصدية إله خالق: ذلك أن سفر التكوين يروي أن الله انطلق من لا شيء وخلق العالم في أسبوع؛ فكان كل ما يناقض هذا الطرح يهيج صواعق الفاتيكان. وماذا عن السببيات العقلية؟ والترابطات المعقولة؟ والروابط المستنبطة من الملاحظة؟ والمنهج التجريبي؟ وجدال المنطق؟ وماذا بعد ذلك. . . إن الله يقرر، ويشاء ويخلق: هذا كل شيء! أما أي اختيار غير مذهب الخلق الإلهي؟ فأمر مستحيل.

وماذا عن علماء يؤمنون بخلود العالم؟ وبتعدد العوالم؟ (وهي أطروحات أبيقورية بالمناسبة) إن أمرها مستحيل: إن الله خلق العالم من لاشيء. فقبل لا شيء، لم يوجد. . شيء. الظلمات والخواء؛ ولكن وسط ركام العدم هذا، يوجد أيضا الإله ومعه تردد إراداته بتغيير كل ذلك: النور والنهار والليل والسماء والأرض والمياه، وكلنا نعرف التاريخ حتى البهائم والزواحف والدواب المتوحشة والدواب الإنسانية. ذلك هو التأريخ الرسمي: شجرة أنساب مؤرخة. أما أزلية العالم؟ فأمرها مستحيل. .

وبعد حسابات علمية دقيقة ومدققة، أكد بعض العلماء فكرة «أريستارك»: إن العالم يوجد بحق في مركز الكون. وتجيب الكنيسة أنه أمر مستحيل. فخلق إله كامل لا يمكنه أن يوجد خارج المركز: مكان الكمال. ثم إن فكرة مركزية الشمس تكاد تنعش طقوس عبادة الشمس الوثنية... ومحيط الدائرة يفترض أن يكون علامة عدم اكتمال يصعب تصوره وبالتالي لا يمكن إثباته بالعلم! فالواقع مخطئ، والخيال مصيب. أما فكرة مركزية الشمس؟ فأمر مستحيل.

قام لامارك أولا، ومن بعده داروين، بنشر اكتشافاتهما ليطرح أحدهما فكرة أن الأنواع تتحول، ورأى الآخر أنها تتطور وفقا للقوانين المسماة قوانين الانتقاء الطبيعي. وقراء الكتاب الأوحد يهزون رؤوسهم: إن الله خلق جملة الذئب والكلب وفأر المدينة وفأر البراري والقط والسرعوب والأرنب الصغير. ولا يوجد أي احتمال أن تكون المقارنة بين العظام إثباتا على التطور أو التحول. وماذا عن فكرة أن أصل الإنسان قرد؟ هو هذا الجرح النرجسي الذي لا يُحتمل حسب شرح فرويد. فهل يكون البابا ابن عم لقردوح؟ هذا بؤس.. ونظرية التحول؟ ونظرية التطور؟ هي أمور مستحيلة...

ويؤكد العلماء، من داخل أجواء مكاتب عملهم الشاقة، أن هناك تعددا جينيا - أي الوجود المتزامن في الأصل لمجموعة من البشر على نقاط جغرافية متعددة. هذا تناقض، تتجشأ الكنيسة: إن آدم وحواء هما فعلا وحقا أول رجل وأول امرأة وقبلهما لم يوجد شيء. إنهما الزوجان الأوليان، زوجا الخطيئة الأولى؛ فهما يسمحان بمنطق الخطأ والذنب والخلاص والتوبة. فما العمل برجال ونساء سبقوا الخطيئة، وبالتالي هم مبتعدون عنها؟ أأناس سابقون لآدم؟ أمر مستحيل...

من خلال تنظيفهم للأحجار وتمحيصهم للمتحجرات، يقدم علماء الأرض

تاريخا للعالم. فالصدف المكتشفة فوق الجبال والطبقات والفرشات تشهد على تسلسل زمني ملازم. لكن هناك مشكلة: فالأرقام لا توافق عداد الإنجيل المقدس. فالمسيحيون يؤكدون أن العالم له ٤٠٠٠ سنة لا أقل ولا أكثر؛ بينما يثبت أهل العلم وجود عالم قبل عالمهم. إن العلم مخطئ.. وعلوم الأرض، أتكون مبحثا موثوقا؟ مستحيل هذا..

إن رجالا ذوي عزيمة طيبة لا يحتملون الموت والمرض، ويرغبون، بغاية معرفة كيف يمكن رد الوباء والأمراض، بفتح جسم من أجل أخذ دروس من الجثة الميتة تفيد الأحياء. ما هي رغبتهم؟ أن تنقد الموت الحياة. تقوم الكنيسة لتعارض بالمطلق إجراء البحوث على الأجساد. لا لأسباب عقلانية، بل فقط لاعتبارات لاهوتية: فالألم والموت مرده لحواء المذنبة؛ والألم والمعاناة والمرض يصدرون عن مشيئة وإرادة ربانية: فيها امتحان إيمان الناس. فسبل الرب لا يمكن بلوغها؛ فهو يتبع مسارا يعلمه هو لوحده. وماذا بخصوص الأسباب المادية للمرض؟ وعن علم عقلاني لأسباب المرض؟ فذلك كله من المستحيلات.

اكتشف طبيب من فيينا، حوالي سنة ١٩٠٠، اللاوعي وأواليات الكبت والتسام ووجود نزعة الموت ودور الحلم، ومئات الاكتشافات الأخرى التي أحدثت ثورة بعلم النفس في زمن كان فيه هذا العلم يمر بمرحلته ما قبل التاريخية. كما أنه أوضح طريقة تداوي وتهدئ وتعالج العصاب، والأمراض العقلية والذهان. صحيح أنه يؤكد، عابرا على المسألة في كتاب «مستقبل وهم»، أن كل دين إنما ينتج عن حالة عصاب وسواسي ترتبط بعلاقات مع الذهان الهلوسي. تدين الكنيسة وتستنكر، وتصدر الفتوى، وتضعه على فهرس ما يحرم. فهل المرء تحركه قوة مظلمة كامنة في لاوعيه؟ هذا أمر يمس بمبدأ

حرية الإرادة التي كثيرا ما يحتاجها المسيحيون لجعل الشخص مسؤولا، ثم مذنبا، وبالتالي مستحقا للعقاب.. وهذا مفيد جدا أيضا لتبرير منطق الحساب والعقاب الآخر! أما فرويد واكتشافاته؟.. وعلم النفس؟ فكل هذا مستحيل..

ثم لإكمال القصة: يكتشف علماء المورثات في القرن العشرين بطاقة الهوية الجينية ويدخلون بهدوء ذلك العالم الذي يقدم ممكنات رائعة متعلقة بتشخيص الأمراض وتوقعها، وبعلاجات أكثر دقة ويمنع لأمراض وهم يشتغلون على بناء طب تنبئي يحدث ثورة في الميدان: يقوم **«ميثاق موظفي ومستخدمي قطاع الصحة»** الذي أصدره الفاتيكان ليستنكر الأمر. فـ **هل يحاول البشر** تجنب الألم والمعاناة؟ وهل يتصورون أنفسهم معفيين من أداء ثمن الخطيئة الأصلية؟ وهل يطمحون لطب إنساني؟ كلا، ذلك أمر مستحيل..

إن في الأمر انحيازا مذهلا للإخفاق! فهذا الاستمرار وهذا الثبات على خداع النفس ورفض الحقيقة، وهذا الإصرار على نزعة الموت التي يُقذف بها ضد حياة الأبحاث ونشاط العلم وحركية التقدم، لا تفتأ تذهل الأذهان. إدانة الحقائق العلمية ـ النظرية الذرية والخيار المادي وعلم فلك مركزية الشمس والتأريخ الجيولوجي ونظرية التحول ثم التطور وعلاج التحليل النفسي والهندسة الوراثية ـ : تلك هي نجاحات القديس بولس الذي دعا إلى قتل العلم. لقد نجح المشروع متجاوزا كل توقع!

إننا نفهم أنه لكي تبلغ هذه النسبة الهائلة من النجاح في الفشل، كان على الكنيسة أن تظهر إصرارا يصعب وصفه. فالاضطهاد والتسجيل على فهرس المحرمات والمحارق وآليات محاكم التفتيش والسجن والمحاكمات، لم تتوقف.. وقد كان هناك تحريم، لمدة قرون، لقراءة الإنجيل دون توسط الكهنوت. لم يكن هناك مجال لمقاربة هذا الكتاب بأدوات العقل والتحليل

والنقد؛ ولا مجال لمقاربته كمؤرخ وعالم لغة وعالم أرض ومختص بعلوم دقيقة. ستظهر مع ريشارد سيمون، في القرن ١٧، أولى الدراسات المسيحية الشارحة بخصوص العهدين القديم والجديد؛ فاضطهده بطبيعة الحال بوسييه Bossuet والكنيسة الكاثوليكية بشدة. إن ثمرة شجرة المعرفة تفرز مرارة يطول مذاقها في الفم...

# III
# الرغبة بعكس ما هي حقيقة العالم

[١]

## ابتكار عوالم خلفية

إن الديانات التوحيدية لا تحب الذكاء والكتب والمعرفة والعلم؛ وتزيد على ذلك مقتا شديدا للمادة وللواقع، وبالتالي لكل شكل من القوانين الملازمة. كما أنه بالإضافة إلى تمجيد الجهل والوداعة والسذاجة والطاعة والخضوع، تُظهر ديانات الكتب الثلاث اشمئزازا متشابها من نسيج العالم وأشكاله وقواه. فالعالم الدنيوي ليس له حقوق المواطنة، لأن الأرض بكاملها تحمل ثقل الخطيئة الأصلية حتى آخر الزمان.

وتعبيرا عن هذا المقت للمادة، قامت الديانات التوحيدية بخلق كل عناصر عالم بديل للمادة! ففي الأزمنة القديمة المشنعة كان أصحاب عقيدة الإله الواحد، كلما تعلق الأمر بالعلم، يستدعون فيتاغورس ـ الذي تكون هو نفسه وفق التفكير الديني الشرقي ـ وأفلاطون من أجل بناء مدينتهم التي لا جسد لها: فلقد كانت المثل تصنع العجائب في هذا الورش الفكري وهي تشبه إلى حد الخلط نماذج استنساخ للإله الواحد: فهي كما هو أزلية خالدة، بلا امتداد وبلا

زمان ولا تخضع للتوالد والفساد وتمتنع عن كل إدراك حسي ظاهري وجسمي، ولا تستوجب غير ذاتها للوجود والبقاء والدوام في كينونتها. . . وهي تطابق في هوياتها هويات إله اليهود وإله المسيح وإله الإسلام. فبمثل هذه الجواهر، تخلق الديانات التوحيدية قصورا مثالية لكي تحط من قيمة كل مسكن واقعي ومحسوس وملازم.

وهذا هو أصل مرض فصام الشخصية عند الديانات التوحيدية: إنها تقيس وتحكم على ما هو «هنا والآن» باسم العالم الغائب، وتتأمل المدينة الأرضية بالنظر فقط للمدينة السماوية، وتهتم بالبشر لكن وفق معيار الملائكة، وتعتبر القوانين الملازمة فقط إذا كانت تصلح كمصعد نحو العالم المتعالي، وترغب في الاهتمام بالواقع المحسوس لكن من أجل قياس علاقته بالعالم المعقول، وتتأمل الأرض بشرط أن تتيح فرصة لبلوغ السماء. ومن فرط ما يوجد المرء بين هذين الكيانين المتناقضتين، يخلق عنده فغور عميق في كيانه، ويتكون لديه جرح وجودي يصعب التئامه. ومن هذا الفراغ الوجودي الذي لا يجد ما يملأه، ينشأ قلق الناس الحياتي.

وهنا أيضا تسمح فكرة أحادية الوجود الذرية والوحدة المادية بتجنب هذه الميتافيزيقيات المثقوبة؛ فمنطق من يتصور الواقع متكونا من المادة حصرا ومختزلا فقط في مظاهره الأرضية والحسية والدنيوية والظاهرية، هو منطق يحول دون التيه الذهني ودون القطيعة مع العالم الحقيقي. أما الثنائية الفيتاغورية والأفلاطونية والمسيحية، فإنها تمزق الكائن الذي يخضع لها. فباستهدافه الجنة، يخطئ المرء الأرض. كما أن الأمل بالعالم الآخر والتطلع إلى العالم الخلفي يولدان، حتما، يأسا مما هو موجود «هنا والآن». إنها الغبطة الغبية للرضيع المخطوف في مهده. .

[٢]

## طيور الجنة

إن هذا العالم، الموجود خارج العالم، ينتج مخلوقين فريدين: الملاك والجنة. يشتغل الأول كنموذج لبديل الإنسان والثاني كبديل للعالم. وفي ذلك ما يشكل دعوة إلى الناس لكره وضعهم، وازدراء واقعهم من أجل التطلع إلى جوهر آخر، ثم إلى وجود آخر. فجناح الملاك يدل على عكس لزوم الناس فوق الأرض؛ وجغرافيا الجنة تشهد على نفي تام للمكان وعلى يوتوبيا خالدة وتجاوز أصيل للزمان.

يمتلك اليهود زريبتهم الخاصة لتربية المخلوقات ذات الأجنحة: فالملائكة المجنحون يحرسون مدخل جنة عدن، والملائكة المقربون يرافقونهم، كما نذكر ذاك الملاك الذي زار إبراهيم، أو نظيره الذي صارع مع يعقوب. ما وظيفة هذه الكائنات؟ التسبيح لله داخل قصر سماوي. ذلك أن الله يجهل صغائر البشر، لكنه يحب مع ذلك الاحتفاء بعظمته. فالتلمود وتفاسير القبلانية تعج بذلك. إنهم خدام الإله إذن، بل وكذلك حراس للصديقين ولأبناء إسرائيل ونراهم يتركون بيوتهم بالسماء لحمل رسالة إلهية إلى الناس. أما هرميس الوثني فلا يسكن أبدا بعيدا عن هذا المكان، فهو أيضا له ريش، لكن فوق رأسه وعلى رجليه...

باعتبارها أرواحا خالصة من نور ـ وهو ما لا يمنع، بكل منطق، ريشا وأجنحة تكون بتأكيد روحانية ونورانية ـ، تستحق الملائكة انتباهنا؛ ذلك أنها بلا جنس. فهم ليسوا رجالا ولا نساء: شيء من الاثنين، وخليط بينهما؛ بل قل هم طفوليون حتى، معفيون من آلام الزواج. هي طيور سعيدة تجهل الوضعية الجنسية: لا رغبة ولا شهوة؛ طيور مغتبطة لا تعرف الجوع ولا

العطش، ومع ذلك تتغذى على عسل الندى ـ وهو طعام الآلهة الوثنية ـ، لكنها لا تغوط طبعا؛ عصافير سعيدة تجهل الفساد والسقوط والموت.

ثم إن هناك ملائكة ساقطين متمردين: هي تلك المخلوقات التي لا تخضع. ففي جنان عدن يجهر الشيطان ـ أي «النمام، ذلك الذي يقذف» بحسب معجم Littré ـ بما يعلم: إمكانية العصيان وعدم الرضوخ، وقول «لا». قام إبليس ـ أي «المعارض، المتهِم» دائما بحسب معجم Littré ـ بنفخ نَفَس الحرية فوق المياه القذرة لعالم الأصول التي تنتصر فيها الطاعة وحدها ـ وتسود العبودية القصوى. وتجاوزا لمبدأي الخير والشر، ودون أن يكون الشيطان تجسيدا للشر فهو يقول بالممكنات التحررية. إنه يعيد للناس سلطتهم على ذواتهم وعلى العالم ويحررهم من كل وصاية. إن تلك الملائكة الساقطة تستثير مقت الديانات السماوية؛ لكنها بالمقابل تحظى بشغف الملحدين المتأجج..

[٣]

## الرغبة بعكس ما هي حقيقة العالم

إن مكان هذه المخلوقات المستحيلة مستحيل هو كذلك: الجنة ـ دائما بحسب معجم Littré فهي: *«حديقة محوطة»* ـ. وتوافق التوراة وسفر التكوين والقرآن على هذه الجغرافية الهستيرية. لكن المسلمين يقدمون لها الوصف الأكمل: إنها تستحق ما يقدم من أجلها! فهي مجار وجنان، وأنهار وينابيع ونضارة مزهرة وفاكهة وأشجار عجيبة وحور عين بتول، وشباب جذاب، وفراش وفير، ولباس ناعم وأثواب فاخرة، وحلي رائعة، وذهب ولآلئ وعطور وأوان ثمينة. لا شيء ينقص في هذا المطبوع لإعلان نقابة للمبادرة الوجودية.

ما تعريف الجنة؟ إنها العالم البديل، أي نقيض الواقع. إن المسلمين يحترمون الطقوس بدقة وينخرطون ضمن المنطق المتشدد للجائز وغير الجائز

ويطيعون القوانين الجذرية التي تنظم تقسيم الأمور إلى نقية وغير نقية. أما في الجنة فكل ذلك يتوقف: لا فرائض ولا طقوس ولا صلوات. فعلى الأرائك بالجنة، يشرب الخمر (سورة المطففين؛ ٢٥ وسورة محمد؛ ١٥ ) ويُؤكل الخنزير (سورة الطور؛ ٢٢ )؛ ويُؤدى الغناء ويلبس الذهب (سورةالكهف؛ ١٨) ـ المحرم خلال الحياة ـ، ويُتناول الطعام في الأواني والأكواب الثمينة ـ التي لا تجوز على الأرض ـ ويُلبس الحرير ـ المقزز فوق الأرض باعتباره براز يرقانة، وتُباشر الحور العين (سورة الدخان؛ ٥٤)، وتُمتلك بتول خوالد (سورة الرحمان؛ ٧٠) وغلمان (سورة الواقعة؛ ١٧)، فوق مضاجع من أحجار ثمينة. أما تحت خيمة الصحراء، فهو سجاد واحد والنساء الشرعيات، ثلاثة على الأكثر. . . : في حقيقة الأمر، كل ما كان محرما يصير مستباح البلوغ. . . .

تكون الأواني في المخيم من الخزف، وهي في الجنة من أحجار ومعادن ثمينة؛ وتحت الخيمة، يتقاسم الناس، الجالسون على سجاد من جلد خشن، معاشا بسيطا يصعب الحصول عليه كل يوم: حليب ناقة ولحم غنم وشاياً منعنعاً. وفي السماء تتوافر الموائد والمشارب بمقادير خرافية منتظمة، فوق أثواب سندس خضراء وديباج؛ وتكون الروائح تحت ظل خيمة القبيلة خشنة وقوية وشديدة ـ عرق وقذارة وجلد وشعر دواب وأدخنة ورشح: أما صحبة الرسول فقط عبير رائع من كافور ومسك وزنجبيل وبخور ومر مكاوي وقرفة؛ وإذا ما شرب الخمر اعتباطا حول النار فإن خطر الثمالة يكون حاضرا: أما في ديار خلد المسلمين فلا سكر (سورة الصافات؛ ٤٧)، ولا صداع الرأس (سورة الواقعة؛ ١٩)، كما أن الإسراف في الاستهلاك لا يتضمن خطر السقوط في الذنب!

ودائما في إطار منطق الجنة باعتبارها عالما بديلا مرغوبا للقبول بالعالم

الواقعي، الذي غالبا ما يكون غير مرغوب: فالإسلام أصلا دين صحراء ذات جو قاس وحار وشديد البأس؛ أما الجنة فيسود فيها فصل ربيعي أزلي وضياء خالد، فلا شمس ولا قمر، ولا نهار ولا ليل؛ فالريح الشرقية تدبغ الجلد والغربية تحرق الأجساد أما في سماء الإسلام، فإن الريح المعطر بالمسك يملأ بلطف أنهار اللبن والعسل والخمور والماء لينشره بسخاء؛ وأما الثمار في الصحراء، فهي غالبا ما تكون أمرا في خطر، قد توجد وقد لا توجد؛ وحين توجد نادرة تكون عنبا هزيلا وتمرا يعد بالوحدات وتينا قليلا. أما في رفقة الرسول محمد، فيوجد عنب كبير بحجم يجعل الغراب الذي يريد الالتفاف حول عنقود منه يحتاج إلى ما يربو الشهر لينتهي من هذه الرحلة! وعلى امتداد رمال الصحاري التي لا تنتهي، يندر لطف الظل ندرة مفرطة. فمرحبا بكم! في فندق المثل المسلمة التي يحتاج فيها الخيل لمائة سنة حتى تخرج من تحت ظل شجرة موز. إن القوافل طويلة فوق تلال الصحراء والمسار بطيء والمسافات لا تنتهي على الرمال؟ أما زريبة النبي في السماء، فتحتوي خيولا مجنحة، خلقت من ياقوت أحمر ومتحررة من إكراهات المادة، تسير بسرعة فلكية..

وأخيرا، نفس الملاحظة تنطبق على الجسد. فهذا الشريك المتعب الذي يطلب باستمرار حصته من الماء، وكميته من الطعام وإشباع شهوته، وهي كلها مناسبات تدعو للابتعاد عن الرسول وعن الصلاة وأسباب للعبودية للحاجات الطبيعية، في الوقت الذي يشرق الجسد في الجنة من خلال لا ماديته: لا طعام إلا للمتعة الخالصة. في حال إدخال الطعام لا يكون هضمه عسيرا ـ فعيسى الذي كان يأكل الخبز والخمر والسمك، لم يكن يبرز أبدا... : فلا انتفاخ بالبطن ولا ريح، لأن هذه الأدخنة التي تكون نتنة فوق الأرض، تصير في السماء تجشؤا من مسك يفوح به جسم ندي!

فهناك لا نعود خاضعين لحاجيات التناسل بهدف ضمان الخلف؛ ولا ننام لأننا لا نعرف آنئذ التعب؛ لا نغتسل هناك ولا نبصق ولا نعرف الأمراض حتى نهاية الزمان؛ وهناك تحذف من اللغة كلمات الحزن والخوف والذل التي تتسلط على الأرض؛ كما لا نشتهي ـ فالاشتهاء ألم وحرمان بحسب التقاليد الأفلاطونية ـ ويكفي أن تظهر الرغبة لتستحيل للتو متعة: يكفيك النظر إلى فاكهة برغبة لتذوق طعمها ولحمها وعبيرها في الفم. . .

من له أن يرفض هذا؟ إننا نفهم جيدا دافع الملايين من المسلمين ـ الذين تغريهم عطلة الحلم الأزلي هذه ـ الذي ينطلقون نحو ساحات المعارك منذ الغزوة الأولى للرسول محمد في النخلة وحتى الحرب العراقية الإيرانية؛ ونفهم دافع القنابل البشرية الإرهابية الفلسطينية، التي تنشر الموت فوق أرصفة المقاهي الإسرائيلية؛ ونفهم دافع قراصنة الجو الذين يهوون بالطائرات المدنية على البرجين التوأم بنيويورك؛ ونفهم دافع من شقوا بطن قطار امتلأ بأشخاص متوجهين نحو أعمالهم في مدريد. والبداية تكون قبولا بهذه الحكايات التي تصعق الذكاء البسيط. . .

[٤]

## الانتهاء من النساء

هل يجب أن نرى في كره المرأة المشترك بين اليهودية والمسيحية والإسلام نتيجة منطقية لكره الذكاء؟ لنعد للنصوص: فالخطيئة الأصلية والخطأ والرغبة بالمعرفة تمر أولا من خلال قرار امرأة: حواء. أما آدم البليد، فيكتفي بالطاعة والانصياع. فحين تتكلم الأفعى (والتي يقابلها في القرآن إبليس الذي يرجمه ملايين الحجاج في مكة على شكل نصب بدائي) ـ والأمر طبيعي فكل الأفاعي تتكلم. . . ! ـ، فإنها تخاطب المرأة وتباشر حوارا معها. أفعى غاوية وامرأة تُغوى، وبالتالي امرأة غاوية إلى الأبد؛ يتم الانتقال بسهولة. .

يبدو كره النساء فرعا من موضوع بغض الذكاء؛ ويضاف إلى ذلك مقت لكل ما تمثله بالنسبة للرجال، من رغبة ومتعة وحياة. وهناك حب الاستطلاع الفضولي أيضا ـ فيذكر معجم Littré أن كل امرأة فضولية تدعى «بنت حواء». فهي تمنح الرغبة، وتعطي الحياة أيضا ومن خلالها يسترسل مسلسل الخطيئة الأولى التي يؤكد بخصوصها القديس أوغسطين أنها تنتقل منذ الولادة في بطن الأم، عبر مني الأب. تجنيس الخطيئة!

يفضل التوحيديون ألف مرة الملاك على المرأة. فبالأحرى عالم الملائكة المقربين والعروش بدل عالم نساء، أو عالما مختلطا على الأقل! وهم لا يفضلون الجنس أبدا! فتجد اليهودية والمسيحية والإسلام في الجسد والدم والشهوة، المرتبطين طبيعيا بالمرأة، ما يكفي من فرص لتقرير ما لا يجوز وما ليس نقيا، وبالتالي إثارة معارك ضد الجسد المرغوب وضد دم النساء المتحررات من الأمومة وضد طاقة مبدأ المتعة، ولا يتوقف الإنجيل والقرآن عن قذف سهام اللعن والتحريم ضد مثل هذه المواضيع.

إن الديانات التوحيدية تكره النساء ولا تحب غير الأمهات والزوجات. فمن أجل تخليص النساء من سلبيتهن الجوهرية، لا سبيل غير حلين اثنين ـ بل هو حل واحد على مرحلتين ـ : التزوج برجل وإنجاب أطفال له. فحين تهتم النساء بالزوج وتهيئن له الطعام وتنظمن له شؤون البيت، وحين تزدن على ذلك غذاء الأبناء ورعايتهم وتربيتهم، فلا يبقى هناك مكان للمؤنث فيهن: فالزوجة والأم تقتلان المرأة وهو ما يراهن عليه الحاخامات والرهبان والأئمة لضمان طمأنينة الذكورة.

إن اليهودية المسيحية تدافع عن فكرة أن حواء ـ التي توجد في القرآن كزوجة لآدم، لكنها لا تذكر أبدا بالاسم؛ وكأن من لا يذكر اسمه لا يستحق الاسم! ـ

قد خلقت ثانويا (سورة آل عمران) وكماليا من ضلع آدم (سفر التكوين)!، أي أنها قطعة واطئة من جسم أصلي وأصيل. ففي البدء يكون الذكر، ثم تليه كقطعة منفصلة وناتئة وفتات: الأنثى. فكل شيء يثقل كاهل المرأة: التتابع في الوجود وطريقة العيش المشتركة والمسؤولية بالخطيئة. وهي تؤدي الثمن غاليا منذ ذاك.

إن جسد المرأة ملعون، بل هي نفسها ملعونة في عمومها. فالبويضة غير المخصبة تهيج الأنوثة غير الممتلئة من خلال نفي الأمومة؛ وهنا تكمن مسألة عدم نقاء الحيض. فالدم الشهري يتضمن أيضا الخطر المرتبط بفترات عدم الإخصاب؛ ذلك أن المرأة العاقر وغير الخصيب تمثل المفارقة الأسوأ عند أحد أتباع التوحيد! كما إن هذه الفترات غير المخصبة لا تمثل خطرا على الأمومة، حيث لا إمكان لخطر الحمل، وبالتالي يمكن للحياة الجنسية أن تنفصل عن كل قلق وأن تمارس لذاتها. فاحتمال حياة جنسية لا يزاوجها التوالد، حياة جنسية خالصة ونقية؛ فهو ذاك الشر المطلق بعينه.

باسم المبدأ نفسه، تحكم الديانات التوحيدية بالموت على اللوطيين. وما السبب؟ لأن حياتهم الجنسية تمنع ـ لحد اليوم ـ أقدار الأب والأم والزوج والزوجة، وتؤكد بصراحة أولوية الفرد الحر (!) وقيمته المطلقة. إن الأعزب نصف إنسان، تقول التلمود (!) وهو ما يرد عليه القرآن بنفس العبارة ( في سورة النور؛ ٢٤)؛ بينما يرى القديس بولس في الإنسان الوحيد خطر الشبق والزنا والحياة الجنسية الحرة. وفي هذا تكمن دعوته إلى الزواج، في حال استحال العفاف، وهو أفضل أشكال التقليل من الشهوة.

نجد كذلك نقدا متشابها للإجهاض عند الديانات الثلاث؛ فالأسرة تشتغل كأفق لا يمكن تجاوزه باعتبارها خلية أساس للجماعة، وهي تقتضي أبناء

تعتبرهم اليهودية شرطا لبقاء شعبها، الذي تريد الكنيسة إكثاره ومضاعفته من جانبها، في حين يرى فيهم المسلمون علامة على بركة الرسول. فكل ما يعرقل هذه الديموغرافية الميتافيزيقية يستثير غضب التوحيديين. إن الله لا يحب برامج التخطيط العائلي.

وفي نفس المنحى، تدخل المرأة الحديثة الإنجاب في دورة عدم النقاء. إنه الدم، دائما الدم. ولما يكون المولود ولدا، يحرم عليها دخول المعبد مدة أربعين يوما وتكون المدة ستين يوما في حال البنت!. نعرف أن صلاة الصباح اليهودية تدعو كل إنسان إلى شكر الله لأنه جعله يهوديا، وليس عبدا. . ، وليس امرأة؛ كما أننا نعرف أن القرآن لا يدين صراحة التقليد الجاهلي الذي يبرر عار أبوة البنت وهو يشرع لهكذا سؤال: **هل الاحتفاظ بالمولود أم دفنه حيا بالتراب** (سورة النحل؛ ٥٨) ؟ (و للتخفيف من بربرية الأمر، **توضح طبعة لا بلياد المنحازة على الهامش أن هذه الممارسة كانت خوفا من الفقر** ـ !!!)

وسيطرح المسيحيون من جهتهم للنقاش ضمن مجمع ماكون الديني، سنة ٥٨٥، كتاب **ألسيدالوس فالوس** المعنون: **«مقالة مفارقة لمحاولة إثبات أن النساء ليست مخلوقات بشرية»**. . . لسنا ندري أين يوجد وجه المفارقة (!) ولا إن كان البحث قد تم تغييره ولا حتى إن كان **ألسيدالوس فالوس** قد نجح في إقناع جمهور الكهنة المسيحيين الذين يوجدون أصلا في صف أطروحته ـ إذ يكفي في ذلك الانخراط في آلاف صلوات اللعنة ضد المرأة عند القديس بولس ـ. ويظل تنبيه الكنيسة تجاه النساء من نكبات الواقع الراهن.

[٥]

## الاحتفاء بالخصاء

نعرف فصول حوادث أوريجين الذي اتبع أقوال متى حرفيا. فقد كان هذا

الإنجيلي يناقش موضوع المخصيين (١٩ ؛ ١٢)، ويقيم في ذلك تصنيفا ـ من يولد محروما من الخصيتن ومن خصاه آخرون، ومن بتروا ذواتهم بسبب مملكة الله ـ، ثم يختم: «ومن يستطيع الفهم فليفهم». ذكيا كان أوريجين، فقد حذف للتو بضربة شفرة أعضاء ذكورته ـ قبل أن يكتشف ربما أن الرغبة ليست مسألة أكياس، بل قضية دماغ. لكن ذلك كان بعد فوات الأوان. . .

وتغتني أدبيات الديانات التوحيدية بالإحالات على إخماد الشهوة وتدمير الرغبة: فهناك تمجيد التعفف واحتفاء بالعفاف في المطلق، ثم في النسبي؛ ولأن الناس ليسوا آلهة ولا ملائكة، بل دواب يجب التعايش معها، تم إنعاش الزواج في إطار الإخلاص للزوجة ـ أو للزوجات في حالة اليهود والمسلمين ـ وبالنهاية تركيز كل حياة جنسية باتجاه التوالد. إن الأسرة والزواج والزوج الواحد والإخلاص، كلها، تغييرات في موضوع الخصاء. . أي كيف يصير المرء أوريجين افتراضيا.

يثبت سفرا «الليفيتيك» و«الأعداد» القاعدة في مجال اللقاء الجنسي الثنائي عند اليهود: لا حياة جنسية خارج الزواج؛ تشريع التعدد؛ حرية الزوج في التطليق دون شكليات كبيرة ـ فمجرد إرسال رسالة للزوجة المطلقة يكفي ـ؛ عدم جواز الزواج من غير اليهودي؛ انتقال الهوية اليهودية من خلال الأم ـ لأن لها تسعة أشهر لتثبت أنها الأم بالفعل، في حين أن الأب لا يتأكد أبدا؛ تحريم دراسة التوراة على النساء ـ وهي فريضة على الرجال؛ لا ترخيص لسليلات حواء بترتيل الصلوات، ولا بحمل الشال وإبراز التميمة، ولا قرع «الشوفار» ولا بناء الكوخ الطقوسي ـ «السوقا» ـ، كما لا يمكنها أن تكون عنصرا من مجموعة العشر، العدد الأدنى لإقامة الصلاة؛ وعدم إمكان انتخابها للوظائف الإدارية والقضائية؛ مع ترخيص لها بالملكية، لكن لا بتسيير وإدارة الأموال

التي هي مسؤولية الزوج. وذلك لإثبات أن الله خلق الرجل على صورته، لا على صورة المرأة. . .

إن قراءة القرآن تبين القرابة البديهية بين هاتين الديانتين. فالإسلام يؤكد بوضوح تفوق الذكر على الأنثى، لأن الله فضل الرجال على النساء (سورة النساء؛ ٣٤). من ثم جاءت سلسلة إملاءات: تحريم ترك الشعر مكشوفا ـ الحجاب (سورة النور؛ ٣٠) ـ، وكذا لحم الساعد والساق. ؛ وحظر كل حياة جنسية خارج العلاقة الشرعية مع شريك من نفس الجماعة الذي يمكنه أن يمتلك زوجات عديدات (سورة النساء؛ ٣)؛ واستنكار تعدد الأزواج بالنسبة للمرأة بالطبع؛ وتمجيد للعفاف بطبيعة الحال (سورة الإسراء؛ ٣٢) والأحزاب؛ ٣٥)؛ وتحريم الزواج من غير المسلم (سورة النساء؛ ٢٨)؛ وتحريم ارتداء لباس الرجال؛ ومنع الاختلاط بالمساجد والمصافحة مع رجل، ما عدا بارتداء قفاز؛ واعتبار الزواج فريضة، ولا تسامح مع العزوبية (سورة النور؛ ٣٢) حتى لو كانت باسم التدين؛ ولا ينصح بالحب والشغف في زواج يتم الاحتفاء به من أجل خير الأسرة والقبيلة والأمة؛ والدعوة لتلبية جميع رغبات الزوج الجنسية ـ الذي يحرث زوجته أنى يشاء، مثلما تحرث الأرض والاستعارة هنا قرآنية (سورة البقرة؛ ٢٢٣)؛ وتشريع ضرب الزوجة في حال الشبهة، دون أن يحتاج الأمر إلى إثبات الذنب (سورة النساء؛ ٣٤)؛ ونفس السهولة في التطليق، وكذا نفس القصور الوجودي (سورة البقرة؛ ٢٢٨) ونفس الدونية القضائية ـ فشهادة امرأة تساوي نصف شهادة الرجل ـ؛ والمرأة العاقر وأخرى تم الدخول بها قبل الزواج لهما نفس القيمة: لاشيء.

هنا يكمن أصل تمجيد الخصاء: إن النساء كثر؛ وكثيرة هي الرغبة والمتعة والخلاعة والجنس والهذيان. . أنهن يهددن رجولة الذكر. ويجب بالتالي

الميل جهة الله والتأمل والصلاة وإقامة الشعائر ومراقبة ما يجوز وما لا يجوز واستحضار الألوهية في كل صغيرة من الحياة اليومية. ويجب التوجه نحو السماء، لا نحو الأرض وبدرجة أقل نحو أسوأ أمورها: الأجساد.. إن المرأة، تلك التي أغواها الشيطان في الماضي السحيق والتي صارت الغاوية الأبدية، تهدد التمثل الذي للرجل عن ذاته، أي قضيبا منتصرا ومحمولا مثل تميمة الكينونة. إن قلق الخصاء يحرك كل وجود يحياه المرء تحت نظر الإله.

[٦]

## زيادات في جلدات العضو الذكري!

هل لنا أن نندهش إذن من حرص اليهود على الختان ـ ويتبعهم المسلمون في هذا المسار كما في مسارات أخرى ـ، ومن أن القديس بولس، المختون هو نفسه، قد حل المشكلة بالنسبة للمسيحيين الذين قرروا توفير الجسد المادي، ليفضلوا عليه «ختان القلب» (كتاب **أعمال الحواريين**) والروح، وغير ذلك ـ شفتي الفم الحقيقيتين والعيون والآذان، وغيرها من أجزاء الجسم التي أدرج **العهد الجديد** فهرستها. هذا هو ما يعفي المسيحيين اليوم ـ باستثناء أقباط مصر ـ من قطع جلدة القضيب الزائدة في الهواء الطلق..

ويثير ختان الفتيات الغريب ـ كما هو غريب ختان الرجال ـ اضطراب الرجل الغربي، لكنه لا يثير أي إدانة عندما يمارس على الأطفال الذكور. يبدو أن الإجماع مطلق، إلى حد يدفع للتفكير في مدى شرعية هذه العملية الجراحية القاضية بقطع جزء سليم من جسم طفل، غير راض عن الأمر، دون داع طبي ـ إنه التعريف القانوني... للبتر.

عندما تناولت فيلسوفة كندية ـ مارغريت سومرفيل ـ المسألة بعيدا عن كل

روح مجادلة، اعتمادا على حجج عقلية، مستخدمة في ذلك المقارنة والتحليل وعندما قدمت معلومات تشريحية حقيقية علمية، عصبية ـ مرضية ونفسية، تأكيدا لأطروحة البتر والاستئصال، واجهت ردود فعل شديدة من مواطني بلدها إلى حد أنها بعد هذه الهبَّة أصرت على تحليلها، لكنها علقت حكمها ووافقت على شرعية الختان لاعتبارات. . . دينية (وللإخبار، فقط ٦٠ بالمائة من الأمريكيين مختونون و٢٠ بالمائة بين الكنديين و١٥ بالمائة من الاستراليين، لاعتبارات ليست دينية بل ترتبط بالنظافة الصحية )

يعتبر تضميد الصينيين للأرجل، وتطويل البادونج للعنق من خلال حلقات صقل الأسنان وثقب الأذن والشفاه عند قبائل الأمازون، وشق ووشم الجلد عند البولينزيين، وضغط الصندوق الدماغي عند البيروفيين، تعتبر كلها ممارسات تصدر عن نفس الفكر السحري الذي يؤسس لختان الفتيات وللتعقيم عند الأفارقة، وللختان عند اليهود والمسلمين. إنه طبع الجسد لاعتبارات دينية، وفي ذلك معاناة تعبدية تروم إنجاح دخول المرء إلى الجماعة وكذا ممارسات قبلية تهدف استجلاب لطف الإله، والدواعي لا تنتهي هنا ـ بغض النظر عن استدعاء افتراضات علم النفس التحليلي.

لماذا السخرية من تثبيت جلدة العضو الذكري عن الأوقيانوس، ومن ممارسات شبيهة عند طائفة السكوبي الروسية ـ وهي طائفة مسيحية كانت تقيم قداساتها بين القرن ١٨ وسنوات ١٩٢٠ . . ـ، ومن الشق الداخلي للجلد عند الاستراليين ـ أي القضيب المقسوم طولا من التجويف حتى الصفن[1] . . ؟ ـ؛ فالمنطق العقلي والمقتضيات الوجودية وجرعات الفكر السحري هي نفسها هنا وهناك، بدقة كبيرة. إلا إذا كنا نعتبر متوحشا من لا يشترك في عاداتنا ـ وقد

---

(١) كيس الخصيتين (المترجم ).

ذكر مونتيني ذلك سابقا . . ـ؛ فكيف نقبل ونشرِّع البتر عندنا ونرفضه عند جيراننا؟

ذلك أن البتر متحقق. فالمبدأ القانوني يقول: إن القانون يحظر كل تدخل جراحي دون سبب طبي مرتبط بمرض مثبت. لكن جلدة الذكر ليست مرضا خاصا؛ ثم إنه في مجال علم وظائف الأعضاء: تساوي مساحة الجلد المحذوف نصف أو ثلثي الغطاء الغشائي للقضيب. ومنطقة ال ٣٢ سنتمتر مربع هذه ـ من جلد خارجي وداخلي ـ تحتوي عند الراشد ما يفوق ألفاً من النهايات العصبية، منها ٢٥٠ عصباً. وفي ذلك قطع إحدى أقل البنيات تزودا بالأعصاب في الجسم.

بالإضافة لذلك فإن اختفاء هذه الجلدة ـ التي تقوم الأقوام البدائية بدفنها، أو أكلها، أو تجفيفها أو سحقها أو تصبيرها ـ يتسبب بندبة مستديرة تتقرتن مع مرور الوقت: يؤثر التعرض الدائم للاحتكاك بالثوب، بطريقة مبرد يبرد الجلد الذي يتصلب، ويفقد من حساسيته. كما أن جفاف هذا السطح واختفاء شحمه يقضي على الراحة الجنسية لطرفي العملية.

[٧]

## إن اللّه يحب الحيوات المبتورة

إن القرآن لا يدعو إلى الختان ولا يفرضه، لكنه لا يدينه. ومن أجل إتقان الأمور، تحكي التقاليد أن الرسول محمد قد ولد مختونا. ولا يحظر الكتاب كذلك ختان الفتيات وتعقيمهن؛ لكنه في القرن الأفريقي، حيث تمارس هذه الأصناف من البتر، يعتبر قطع برنس البظر «سنة طيبة» وقطع رأس البرنس «سنة مغيرة». والسنة تعني: «تقاليد ومنهج الرسول».

يصر اليهود أيضا على هذا البتر كعلامة انتماء إلى الطائفة. إن رمز التشدد في

هذا المجال مرعب: فقد طلبه الله من إبراهيم الذي لبى النداء وهو في سن التاسعة والتسعين، وقد أطرى على الأمر بالنسبة لكل أعضاء البيت الذكور، حتى العبيد منهم؛ وقننه في اليوم الثامن من الولادة، وجعل من ذلك علامة الالتحام الخاصة مع شعبه المختار. ويكون الختان مهما أكثر إذا ما توافق مع احتفال السبت، حتى أن كل المحرمات المرتبطة بهذا اليوم تسقط. وحتى حين يموت الطفل قبل قطع جلدة ذكره، فإن المُحِلَّ يقوم بعمله.

يحكي لنا مونتيني عن حالة ختان في كتابه «مذكرات رحلة» يقول: يستعمل الخاتن شفرة تحط مسبقا تحت مخدة الأم، قبل أن يحظى بكل الامتيازات. فيخرج القضيب ويجمع الجلد، ويبعد الغلفة، ثم يشق اللحم الحي دون مخدر. وبعد أن يأخذ جرعة خمر يحتفظ بها في فمه، يقوم بمص الجرح - ويسمى هذا الامتصاص الطقوسي «ميزيزا» -، ثم يمتص الدم من أجل تجنب أن يبقى داخل الجرح، وفق قول التلمود. ثم يبصق ثلاث مرات. وبذلك يلتحق الطفل بالطائفة: وتتم تسميته. لم يتغير هذا الطقس منذ مونتيني، بما في ذلك عادة الـ «ميزيزا» -

لقد قيل كل شيء حول هذا الطقس البدائي وحول استمراره على مدى العصور. وقد تحدث فرويد - الذي يسجل من كتبوا سيرته ذكراه السيئة مع الختان - ومن بعده عدد من علماء التحليل النفسي، كتبوا عن حذف المؤنث لدى الرجل (ختان الغلفة) كصدى لحذف المذكر لدى المرأة (ختان البظرة )؛ وتحدثوا عن إنذار أبوي، يتلوه تحذير، للابن ضد كل رغبة أوديبية قد تؤدي إلى خصي أكبر؛ وتكلموا عن تكرار لتجربة فصل الحبل السري، كعلامة على ولادة جديدة. فعلا، فإضافة إلى طقس الانتماء للهوية وللطائفة، فلكل هذه الأمور اعتبارها في الأمر كذلك.

وكذلك الفرضية التي صاغها فيلسوفان يهوديان اثنان هما «فيلون السكندري»، في كتابه «أسئلة في الوراثة»، وموسى الميموني، في «دلالة الحائرين»: أي إن هذه العملية تهدف وتروم إضعاف العضو الجنسي؛ وتقوم بإعادة تركيز الفرد على ما هو جوهري، من خلال تجنيبه تضييع طاقة يكون استعمالها في تمجيد الله وليس في التطلعات الشبقية. إنها عملية تضعف الشهوة، وتيسر عملية السيطرة على اللذة. كما يمكننا أن نضيف أنها تفسد الإمكانات الجنسية، وتمنع الاستمتاع الخالص والاستمتاع من اجل الاستمتاع، كما تكتب على الجسد وبه كره الرغبة والشهوة والحياة؛ وهي تعني سلطان الأهواء القاتلة تجاه الميول الحياتية ذاتها؛ وهي تكشف كذلك إحدى صيغ نزعة الموت التي يقلبها المرء ضد الغير، من أجل مصلحته كما هو الأمر دائما...

صار الختان مع المسيحية ومع قرارات القديس بولس قضية ذهنية. فلم تعد هناك حاجة لعلامة على اللحم، ولم يعد البتر يوافق أي واقع حقيقي. وحده ختان القلب يهم، إذن. ولأجل ذلك يجب تجريد الجسد من كل الخطايا الناتجة عن الشهوة الجسدية. وهنا يكمن بالفعل أصل التعميد؛ ولكن أيضا وبالخصوص، حال الزهد في حياة يتم إفناؤها إتباعا للمسيح وتقليدا لمعاناته وآلامه. فمع مجيء القديس بولس، صار المؤمن يحتفظ فعلا بكامل قضيبه، لكنه يفقد كامل جسده؛ إذ يتعلق الأمر بالانفصال عنه جملة وبنفس الطريقة التي يحذف بها الخاتن غلفة العضو الذكري. لقد بدأت مع المسيحية نزعة الموت تنهش في جسم كامل الكوكب الأرضي..

# الجزء الثالث
# المسيحية

# I
# بناء المسيح

## [١]

### تواريخ المزورين

من البديهي أن يكون عيسى قد وجد فعلا ـ مثلما وجد عوليس وزرداشت الذين لا يهم كثيرا معرفة ما إن كان وجودهما حقيقة من لحم ودم، وفي زمن ومكان محددين ـ؛ لكنه وجود لم يتحقق، عبر التاريخ، بأي وجه من الوجوه. فلا وجود لوثيقة معاصرة للحدث، ولا وجود لدليل حفري ولا شيء مؤكد مما يمكن معه اليوم استنتاج حقيقة حضور فعلي عند نقطة اتصال بين عالمين، تلغي الواحد وتعلن الثاني.

فلا قبر ولا كفن ولا وثائق، ما عدا ضريح ابتدعته ـ سنة ٣٢٥ ـ القديسة إيلين، أم الإمبراطور قسطنطين، تلك المرأة الموهوبة جدا التي ندين لها باكتشافي كولغوتا وتيتلس، أي قطعة الخشب التي سجل عليها القضاة موضوع الحكم والإدانة بحق المسيح. وهناك ثوب، أثبت التحليل بالكربون ١٤ أنه يعود للقرن الثالث عشر، والتي وحدها المعجزة قد تكون جعلت منه غطاء لجسد المسيح، قبل أكثر من ألف عام على الجثة المزعومة! وأخيرا هناك

بالفعل ثلاث أو أربع إشارات غاية في الضبابية، ضمن نصوص قديمة ـ عند **فلافيوس جوزيف وسيوتن وتاسيت** ـ، لكنها توجد على نسخ أنجزت بضع قرون بعد الصلب المزعوم للمسيح، وخصوصا بعد نجاح حملة من حملوا مباخره. .

لكن بالمقابل، كيف يمكن نفي وجود المسيح كمفهوم؟ ومثله في ذلك مثل نار **هيراقليطس** وصداقة **امبيدوكليس**، وعالم مثل **أفلاطون**، ومتعة **أبيقور**: إن عيسى يؤدي وظيفته كفكرة مثالية تنتظم حولها رؤية للعالم، وتصور للواقع، ونظرية للماضي الممتلئ بالخطيئة، وللمستقبل الواعد بالخلاص. لندع هواة النقاش المستحيل استنتاج مسألة وجود المسيح ولنرتبط بالمسائل المهمة: ماذا عن هذا البناء المسمى عيسى؟ وما الغرض منه؟ ومن خلق هذه الفكرة الخيالية؟ وما هي المادة التي تجسد هذا الخيال؟ وكيف تطورت هذه الخرافة عبر القرون؟

تقتضي الإجابة على هذه التساؤلات الالتفاف من خلال **«الحواري الثالث العشر»** المصاب بالهستيريا: **القديس بولس**؛ ومن خلال **«أسقف الشؤون الخارجية»**، كما كان يسمي نفسه الإمبراطور قسطنطين، قائد انقلاب عسكري ناجح؛ ومن خلال أتباعه الذين حثوا المسيحيين على النهب والتعذيب والقتل وحرق مكتبات **جوستين وتيودوز وفالينتين**. وابتداء من الشبح الخفي وحتى النفوذ الكامل لهذا الطيف على إمبراطورية بأكملها، ثم على العالم بأسره، يصادف تاريخنا شجرة أصول حضارتنا التي بدأت في ضباب تاريخي بفلسطين واستمرت في روما، ثم بيزنطة في إطار ذهب وفخامة وأرجوان السلطة المسيحية وهي ما تزال تجتاح وتعذب ملايين من العقول التي شكلها هذا التاريخ العجيب، المؤسس على الخواء وعلى ما لا يحتمل وقوعه وما ليس

دقيقا، وعلى كل المتناقضات التي تكنسها الكنيسة دائما بقوة العنف السياسي.

نفهم من ذلك أن الوثائق الموجودة في معظمها مزيفة بإتقان ومهارة. فالمكتبات المحروقة والحرائق العرضية، وأصناف الاضطهاد وأحكام التفتيش والزلازل، وثورة المستندات التي أطاحت يوما ما بمكانة المخطوط البردي لصالح الجلد وقضت للناسخين، أنصار المسيح المتحمسين، بأن يختاروا بين الوثائق التي يجب الحفاظ عليها وتلك التي سترسل إلى العدم؛ وكذلك الحرية التي اعتمدها الرهبان أثناء إقامة طبعات للمؤلفين القدامى، إذ أضافوا في كتبهم ما كان ينقص في نظر الاعتبارات الاستذكارية للمنتصرين. وفي كل هذا مادة لجنون فلسفي.

فلا شيء مما بقي جدير بالثقة. إن الأرشيف المسيحي هو من الصناعة الإيديولوجية، وحتى كتب **فلافيوس جوزيف وسيوتن وتاسيت** التي تحتوي حفنة كلمات تشير إلى وجود المسيح وأتباعه خلال القرن الأول، فإنها تخضع لقانون الخداع الفكري. فحين يقوم قس مجهول بنقل كتاب **«العالم القديم»**، للمؤرخ اليهودي المعتقل والمتحول إلى متعاون مع السلطة الرومانية، وحين تكون بين يديه النسخة الأصلية لـ **«حوليات»** تاسيت ولكتاب سيوتن **«حياة الإثني عشر قيصرا»**، ويندهش من غياب ذكر هذه النصوص للتاريخ الذي يؤمن به، فإنه يضيف بحسن نية فقرة من عنده ـ دون حياء، ولا مركب، ودون أن يحس أنه يسيء فعلا أو أنه يصنع زورا، خاصة وأنه لم يكن آنذاك يُنظر للكِتاب بعين الإنسان المعاصر المهووس بالحقيقة، وباحترام نزاهة النص وحقوق المؤلف... ولا نزال نقرأ حتى يومنا هذا كتابات العصور القديمة اعتمادا على مخطوطات متأخرة بعدة قرون عن مؤلفيها، ومعاصرة للناسخين المسيحيين الذين أنقذوا محتوياتها باعتماد ترتيب يجعلها تنخرط في الخط الصحيح للتاريخ...

## [٢]

### بلورة الهستيريا

يرجح في العقلانيين المتطرفين ـ منذ بروسبير ألفاريك وحتى راؤول فانيغيم ـ أنهم يقولون صدقا بخصوص عدم وجود المسيح تاريخياً. فالمتن المغلق للنصوص والوثائق والمعلومات الذي يوجد بين أيدينا، قد تم تقليبه في كل اتجاه خلال عقود دون التمكن من الوصول إلى نتيجة نهائية يجتمع حولها الرأي العام. فبين عيسى ـ **الخيال** وعيسى ـ ابن الله يظل الطيف شاسعا، بحيث يمكِن كم الافتراضات من إعطاء الشرعية للتيار الإلحادي العدواني والمناضل ضمن **«الاتحاد العقلاني»** بنفس قدر التبريرات التي يتيحها للانخراط في جوقة **اللاهوت**. .

إن ما يمكن قوله بهذا الشأن، هو أن العصر الذي يُزعم أن المسيح ظهر فيه كان يعج بأفراد من شاكلته وبأنبياء مجنونين، وإشراقيين معتوهين وبمصابين بالهستيريا، مقتنعين بسمو حقائقهم المضحكة، ومبشرين بنهاية العالم. إن تدوين تاريخ لهذا القرن المشرق سيحتوي أحداثا كثيرة من هذا القبيل؛ فلقد انبثق الفلاسفة العرفانيون عن هذا الغليان وهذا الجنون الأهوج الذي مس ذاك العصر القلق والخائف، والمتأرجح وسط عالم يجهله الجميع. فقد كان العالم القديم يتداعى ويتصدع ويهدد بالانهيار، فولَّد هذا الاختفاء الموعود خوفا وقلقا أجاب عليه بعض الأفراد، من خلال أطروحات صريحة في ابتعادها عن العقلانية.

على ضفاف نهر الأردن وهي منطقة ألفها عيسى وحواريوه، كان هناك شخص يدعى **«تودة»** اعتمد نفسه **«عوسيه»**، أي نبي الخلاص الموعود ـ وهو مصدر اشتقاق **«عيسى»**. لقد جاء من مصر، بلده الأصلي، ومعه أربعة آلاف

من أنصاره عازما على الصمود وعلى القضاء على السلطة الرومانية ومدعيا قدرته على شق النهر بكلماته لتمكين عساكره من العبور والانتهاء من الحكم المستعمِر؛ فقام الجنود الرومان بضرب عنق موسى الجديد هذا قبل أن يبرز مواهبه وسط المياه.

ومرة أخرى، في سنة ٤٥، سيقوم يعقوب وشمعون، كما كان قد فعل أبوهما يهودا ابن قرية الجليل ـ وهي مرة أخرى بلاد مألوفة عند عيسى ـ، سيقومان بقيادة ثورة عصيان كانت نهايتها سيئة كذلك؛ فقد قام النظام العسكري الفظ بسحق الأتباع وصلبهم. أما ميناحيم، سليل عائلة اعتادت تقديم أبطال محررين، فقد حاذ حذو أسلافه وثار، سنة ٦٦، محرضا على الحرب اليهودية التي انتهت، سنة ٧٠، بتدمير أورشليم.

فخلال النصف الأول من القرن الأول كانت الدنيا تعج بالأنبياء والمخلصين والمبشرين. وكانوا كلهم يدعون أتباعهم لمرافقتهم إلى الصحراء من أجل مشاهدة علامات خارقة، ومتابعة آيات الله وتجلياته. فهناك أشراقي قدم من مصر، برفقة أربعين ألف حليف مؤتمن، فبلغ جنان الزيتون ـ ودائما ضمن مجال تحرك المسيح ـ، كان يزعم أن أسوار أورشليم ستنهار بصوته، لتسمح للثائرين بالمرور. فقامت الميليشيات الرومانية هناك أيضا بتشتيت هذا الشمل. كثيرة هي القصص التي تحكي كلها هذه الرغبة اليهودية بإرباك الحكم الروماني من خلال سلاح وحيد، هو الخطاب الديني الروحاني والنبوي المبشر ببشارة احتواها العهد القديم.

إن المقاومة أمر مشروع؛ فالرغبة بدفع جيوش محتلة تفرض لغتها وقوانينها وعاداتها بالقوة إلى الخارج وتعطي دائما الشرعية للمقاومة والتمرد والرفض والقتال، حتى لو كان عسكريا. لكن الاعتقاد بأنه بالإمكان مجابهة أقوى

الجيوش تمرسا وأكثرها احتكاكا بأكبر صراعات عصرها، والمدربة احترافيا، والممتلكة لأدوات هائلة وسلطات كاملة، من خلال التسلح المتحمس بالإيمان بالمستحيل فقط، فهذا هو ما يحوِّل هذا الصراع النبيل إلى معارك خاسرة سلفا. إن رفع راية الله في مواجهة جحافل الرومان لا يؤثر بميزان القوى. .

يعتبر عيسى إذن تسمية لهستريا ذلك العصر ونعتاً لذلك الاعتقاد بأن الانتصار ممكن فقط من خلال العزيمة الثابتة والتحرك باسم الله؛ فجعل أسوار تنهار من خلال صوت إنسان، بدل الآلة الحربية، وشق المياه من خلال كلمات، وليس من خلال أسطول عسكري، ومجابهة عساكر خبروا ساحات المعارك بأناشيد وصلوات وتمائم، وليس برماح وسيوف وفرسان، فهذا ما لا يمكنه إقلاق السلطة الرومانية المستعمرة. فكل ذلك ليس سوى خدشات على جلد الإمبراطورية. . .

إن اسم عيسى يبلور الطاقات المنتشرة والمتباينة المبددة في مواجهة الآلة الإمبراطورية لذلك العصر؛ وهو يقدم الاسم الرمزي الجامع لكل اليهود الذين يرفضون جيش الاحتلال الروماني، وسلاحهم الوحيد في ذلك صدق نيتهم المسنود بيقين في أن الإله قادر على تحقيق المعجزات، وتحريرهم من القبضة الرومانية. لكنه لو كان الإله موجودا كذلك، ويحب شعبه المختار، لأعفاه من تحمل القانون الجائر ولحال دون هذا الظلم. فلماذا سمح بهذا الجور قبل أن يجعل نهايته ممكنة؟

فعيسى، الذي لم يوجد أو الذي لا يعدو أن يكون فرضية، قد يكون ابنا لنجار وعذراء، ولد في الناصرية ودرَّس وهو طفل علماء القانون الديني، ثم لما بلغ الرشد أعطى دروسا لصيادين وحرفيين وأناس عاديين يشتغلون على ضفة بحيرة طبرية؛ كما قد يكون عاش بعض المتاعب مع الطوائف اليهودية، أكثر مما

عاشها مع السلطة الرومانية التي اعتادت الثورات المتفرقة التي لا أهمية لها: إن عيسى يلخص ويركز ويرفع ويبلور ما كان يشغل بال ذلك العصر وذلك القرن الأول من ميلاده.. إنه اسم الرفض اليهودي للهيمنة الرومانية.

ذلك أن الاشتقاق يعلمنا أن عيسى يعني: «إن الله يخلص، وقد خلص وسيخلص». ولا يمكننا التعبير أوضح من ذلك عن الحمولة الرمزية؛ فهذا الاسم العلم ذاته يعني القدر. وهذا الاسم الجامع يستدعي المستقبل المعروف ويقتضي تلك المغامرة المكتوبة سلفا في مكان ما بالسماء؛ وبالتالي يكتفي التاريخ بجعل كشف هذا القدر المحتوم ممكنا يوما بيوم. إن التاريخ يصير علما لعوالم الآخرة. فكيف يمكننا أن نتصور أن مثل هذا الاسم المعتمد لا يجبر على تحقيق النبوءات وكل ما يوجد بالقوة؟ أو: هل هناك طريقة أحسن للتعبير على أن خلق عيسى يقتضي في تفاصيله صناعة ـ يستخدم فيها اسمه ذريعة ومناسبة لهذا الحفز الأنطلوجي؟

[٣]

## حفز للخارق

يتركز تحت اسم عيسى تطلع العصر إلى المهدي المخلص، وهو اسم يلخص بنفس الطريقة الصور الجاهزة العتيقة المستخدمة للحديث عن شخص عجيب ومعجز. فأن يولد شخص لأم عذراء أبلغها بالأمر، لحسن حظها، وجه سماوي وملائكي، وأن يحقق شخص معجزات، وأن يمتلك شخصية ذات هيبة وتأثير يعطي تلامذة شغوفين، وأن يتمكن من إحياء الموتى؛ فتلك قوالب جاهزة تعبُرُ أدب العصور القديمة. ومن البديهي أن اعتبار النصوص الإنجيلية نصوصا مقدسة يعفي المرء من دراسة مقارنة تجعل العجيب في الكتاب المقدس نسبيا، وترسيه ضمن العجيب القديم، لا أقل ولا أكثر. فعيسى، الذي

خلقه القديس بولس، يتبع نفس قوانين الجنس الإبداعي المتبعة مع عوليس عند هوميروس، أو مع أبولونيوس عند تيان دي فيلوسترات، أو أونكلوب عند بيترون: إنه بطل جموعه.

فمن هو مؤلف عيسى؟ إنه مرقص. يعتبر الإنجيلي مرقص أول مؤلف لقصص المغامرات العجيبة للمسمى عيسى. ويرجح أن يكون من رفقاء القديس بولس خلال رحلته التبشيرية. لقد حرر مرقص نصه حوالي سنة ٧٠، ولا يوجد شيء يثبت أنه تعرف على عيسى شخصيا: ذلك أن أي معايشة حقيقية يفترض أن يكون لها بروز واضح في النص. والحال أنه لا يمكن معاشرة أمر خيال.. بل إنه يُمنح له وجود، مثلما يؤمن مشاهد السراب في الصحراء فعلا بحقيقة وصحة واحة النخيل المتجلية داخل أتون النار الحامية. فوسط التوهج الهستيري لذلك العصر، يروي هذا الإنجيلي هذه الحكاية الخيال، مؤكدا كامل صحتها دون نية سيئة.

قام مرقص Marc بتحرير إنجيله بغية هداية الناس. لكن من كان جمهوره؟ هم أفراد يجب إقناعهم، وأشخاص لم يأبهوا برسالة المسيح، ينبغي إثارة اهتمامهم وسحرهم وفتنهم. يندرج النص ضمن سجل الدعاية الواضح؛ وفي الدعاية لا يستبعد اللجوء إلى الحيل التي من شأنها أن ترضي وتؤدي للقبول والاقتناع. ومن ذلك اللجوء إلى لعجيب والخارق. فكيف يمكن إثارة اهتمام الجمهور من خلال رواية قصة تافهة لإنسان بسيط، لا يختلف عن عامة الناس؟ إن الأناجيل تكرر أعراف الكتابة في العصور الوثنية القديمة، والتي تقتضي تزيين وتوسيم وتجميل الرجل الذي يراد تحويله إلى نذير حرب يجند الناس.

فلنقرأ من أجل الاقتناع أشهر الصفحات في العهد الجديد ولنقرأ معه الكتاب الذي خصصه ديوجين لايرس لأقوال وآراء وحكم الفلاسفة البارزين. ولنعط

لهذين النصين نفس الصفة الأدبية، أي صفة نصوص تاريخية مؤرخة ألفها بشر، لم تلهمهم أبدا الروح المقدسة؛ بل اعتبارهم يكتبون للتأثير في قرائهم بغية جرهم، وهم يحدثونهم عن أناس استثنائيين ورجال عظام وأشخاص متميزين، إلى اقتسام قناعاتهم. فحين يتم النظر إلى فيتاغورس وأفلاطون وسقراط وعيسى بنفس العين، أي عين قارئ النصوص القديمة، فما الذي يتم اكتشافه؟

نكتشف عالما يتشابه وصيغا أدبية تتطابق عند المؤلفين، ونفس النزوع البلاغي إلى تحرير السحري والعجيب والغريب بهدف منح الموضوع ما يلزم من البروز والبهاء والبريق لبناء قرائهم. أراد مرقص أن يجعل من عيسى شخصا محبوبا، ونفس الأمر فعله ديوجين لايرس مع كبار فلاسفة تقاليد العصر القديم. فهذا الإنجيلي يروي سيرة حياة امتلأت بأحداث خرافية؛ بينما الآخر يحشو نصه بحوادث لا تقل مفارقة للحياة العادية.. ذلك أن الأمر يتعلق بوصف أناس استثنائيين. فكيف لهم أن يولدوا ويحيوا ويتكلموا ويفكروا ويموتوا مثل عموم البشر؟

لنكن دقيقين: فمريم، أم عيسى، حملت، وهي عذراء، من خلال عمل الروح المقدسة؛ هناك حكاية تافهة شبيهة: ولد أفلاطون كذلك من أم في مقتبل العمر، لكنها كانت محفوظة البكارة. وأخبر الملاك الأكبر جبريل زوجة النجار أنها ستلد دون حاجة لزوجها، الذي وافق دون تأفف؟ وكذلك أفلاطون يفتخر بكون الإله أبولون قد حضر شخصيا! فابن يوسف هو بالخصوص ابن الله؟ لا مانع في ذلك: فهناك فيتاغورس كذلك الذي قد رأى فيه تلامذته أنه الإله أبولون جاء شخصيا عند الهيبوريبين. وعيسى يأتي بالمعجزات يبصر الأعمى ويحيي الموتى؟ مثل امبيدوكليس الذي يعيد الروح للميت. عيسى يبرع في النبوءات؟ نفس المواهب تميز أناكزاغور الذي يتنبأ صادقا بسقوط النيازك.

لنذهب بعيدا: فعيسى يتكلم عن وحي من السماء، وهو بذلك يعطي صوته لمن هو أكبر وأقوى وأشد منه؟ وكذلك سقراط المسكون بروح الدايمون. ويوصي هذا المنذور للصلب تلامذته، ويهدي الناس، بفضل مواهبه الخطابية والبلاغية؟ وكذا كل الفلاسفة القدامى، من الكلبيين حتى الابيقوريين، يتحركون اعتمادا على نفس المواهب. وعلاقة عيسى بيوحنا تلميذه المفضل؟ هي نفسها علاقة أبيقور مع ميترودور. يتكلم ابن الناصرة هذا استعارة ويأكل رمزا ويتصرف لغزا؟ وفيتاغورس كذلك.. إنه لم يكتب أبدا ما عدا مرة واحدة فوق الرمل بعصاه التي مسحت للتو الحروف المرسومة على الأرض؟ نفس الأمر عاشه بوذا أو سقراط، فيلسوفا الشفاهة والكلمة والقول الشافي. مات عيسى في سبيل أفكاره؟ وسقراط كذلك. عاش النبي ليلة حاسمة في غتيساماني؟ وخبر سقراط نفس الانتشاء في ظلمة شبيهة بـ «بوتيدي». علمت مريم بقدر عذريتها من خلال رؤيا؟ بينما رأى سقراط في الحلم إوزا عراقيا فالتقى غداة اليوم ذلك بأفلاطون.

وما إلى ذلك؟؟.. ويبدو أن جسد عيسى يمتص الرموز ولا يهضمها، إذ لا يمكن أن تبرز مفاهيم... إنه جسد غريب الأطوار لا يخضع لنزوات البشر: فالمخلص لا يجوع، ولا يعطش ولا ينام ولا يغوط، ولا يجامع ولا يضحك. وسقراط كذلك لا يعرف كل هذا. فلنتذكر كتاب أفلاطون، «تقريض سقراط»، الذي يقدم فيه شخصية تجهل تأثير الكحول والتعب والسهر. ويبدو فيتاغورس ذاته لابسا لجسم بديل ولجسد ذي طابع روحاني، ولمادة سماوية لا تفسد ولا تطالها أهوال الزمان والواقع.

يعتقد كل من أفلاطون وعيسى بوجود حياة بعد الموت وبوجود روح غير مادية وخالدة؛ ويعود صانع المعجزات بين الناس بعد الصلب. وقد مارس

فيتاغورس الأمور قبله وفق نفس المبدأ؛ لكنه كان أبطأ: ذلك أن عيسى انتظر ثلاثة أيام، في حين صبر الفيلسوف المرتدي للكتان مائتين وسبع سنين قبل أن يعود إلى بلاد الإغريق العظيمة. وغير ذلك من الحكايات التي تصلح دون تمييز للفيلسوف الإغريقي وللنبي اليهودي، عندما يرغب كاتب أسطورة بهداية قارئه إلى الطابع الاستثنائي للموضوع والشخصية التي يحدث عنها..

[٤]

## بناء خارج التاريخ

إن الخارق يدير ظهره للتاريخ؛ إذ لا يمكن التصدي بطريقة عقلانية لأمطار تصاحبها الضفادع والسنادين، ولا لأموات يتركون قبورهم ليشاركوا عائلاتهم العشاء؛ ولا يمكن الصمود ولا الثبات أمام مشلول ومعاق وصاحب بواسير يسترجع صحته من خلال ضربة عصا سحرية. قول يشفي وكلمة تداوي، وحركة تستدعي خوارق فيزيولوجية لا يمكن فهم معناها إذا ما بقي المرء ضمن مجال العقل الخالص. فمن أجل الفهم، يجب التأمل بالأمور باعتبارها رموزا وترميزا وبلاغة وبيانا. إن قراءة الأناجيل تتطلب الاقتراب ذاته الذي نعتمده مع النثر الروائي أو الشعر الملحمي: أي الاستسلام للتأثير الأدبي، والتخلي عن الحس النقدي. فأشغال هيركوليس العظيمة تسمى القوة الخارقة للعادة، ومكائد عوليس تبرز حيلته ومواهبه. والأمر نفسه ينطبق على خوارق عيسى التي تكمن حقيقتها، لا في توافقها مع الأحداث المؤكدة، بل في تطابقها مع ما تعنيه: القدرة الخارقة والقوة الهائلة لإنسان هو جزء من عالم أكبر منه.

إن الجنس الإنجيلي «قول إنجازي» إذا ما أردنا استعمال مصطلح عالم اللسانيات «أوستين»: أي أن التلفظ يخلق الواقع. لا تهتم قصص العهود كثيرا بالحقيقة ولا بما يبدو كذلك ويطابق الحقيقة. لكنها بالمقابل تبرز قوة اللغة التي

من خلال تأكيدها لما تقول، تخلقه. هذا نموذج على «القول الإنجازي» : كلام الراهب الذي يعلن زوجين متزوجين؛ فهو من خلال التفوه بعبارة[1]، يطابق الحدث الكلمات التي تعبر عنه. وعيسى لا يخضع للتاريخ، بل للقول الإنجازي في العهود.

إن الإنجيليين يحتقرون التاريخ، وإن خيارهم المتعلق بالدفاع عن العقائد يسمح بذلك. فلا حاجة لأن تكون الأحداث قد وقعت فعلا ولا فائدة من أن يتطابق الواقع مع الصياغة والرواية التي يقدم من خلالها؛ يكفي أن يحدث الخطاب تأثيرا: هداية القارئ والحصول على قبوله بوجه الشخصية وبتعاليمها. فهل كان ابتداع هذه الأسطورة واعيا عند مؤلفي العهد الجديد؟ لا أظن الأمر كذلك. فلم يكن الأمر لا عن وعي، ولا عن إرادة، ولا عن قرار متأمل. إن مرقص ومتى ويوحنا ولوقا لا يخدعون الناس عن قصد. بل هم مخدوعون، لأنهم يقولون بصدق ما يعتقدون، ويعتقدون ما يقولون صدقا. فلا أحد منهم التقى بعيسى حقيقة، لكنهم كلهم يمنحون لهذا الخيال وجودا حقيقا، لا من باب الرمز أو الاستعارة أبدا. ويبدو أنهم يؤمنون فعلا بما يقولون: في الأمر تسميم فكري ذاتي وعمى وجودي...

كلهم يمنحون الخيال وجودا واقعيا. ومن خلال إيمانهم بالخرافة التي يروونها، يمنحونها متانة وتماسكا أكبر. فالدليل على وجود حقيقة يقتصر غالبا على مجموعة من الأخطاء المتكررة، التي تصير يوما ما حقيقة يتعارف عليها الناس. فيخرج في نهاية المطاف، من صلب عدم وجود مرجع لفرد يروي الناس تفاصيل حياته على مدى قرون، عالم أسطورة تقبل بها مجالس وحواضر وأمم وممالك وكوكب بكامله. إن الإنجيليين يخلقون الحقيقة من خلال تكرار

---

(١) العبارة الرسمية: «أعلنكما متزوجين» (المترجم).

حكايات الخيال باستمرار، بينما تكلف بالباقي الشراسة النضالية لبولس والانقلاب العسكري لقسطنطين، والقمع الذي قادته الأسر الحاكمة الفالنتية والتودوزية.

[٥]

## نسيج من التناقضات

إن بناء الأسطورة ينجز على مدى عدة قرون يتم خلالها حذف أمور ونسيان أمور وتلبيس أخرى، عن عمد أو عن غير عمد. وفي نهاية المطاف، يتم الحصول على متن هائل من النصوص المتناقضة. وهنا يكمن أصل الاشتغال الإيديولوجي الذي يقتضي باجتزاء مادة، من وسط هذا الكل الهائل، تصلح لتاريخ موحد ومتناغم. والنتيجة: اعتماد أناجيل على أنها صحيحة، واستبعاد الأناجيل التي من شأنها أن تعيق قداسة المشروع ومصداقيته. فكانت بذلك الأناجيل الأربعة المتوافقة، والأخرى المزيفة. بل هناك حتى الكتابات المتبادلة بين العهدين التي يعطيها الباحثون صفة غريبة من الحصانة ضد القانون الميتافيزيقي!

عيسى الذي يتغذى على النبات فقط، أو الذي يقوم بإحياء ديك طهي خلال مأدبة؟ وعيسى الطفل الذي يخنق صغار الطيور، لكي يستمتع بدور إحيائها، أو ذلك الذي يعيد توجيه مجرى الجداول بصوته، أو يصنع طيورا من طين ليحولها إلى طيور حقيقية، والذي يحقق بخوارق أخرى وهو لم يبلغ سن العاشرة؟ وعيسى الذي يداوي لسعة الأفعى بنفخه فوق موضع اللسع؟ ما العمل بخصوص موت أبيه يوسف في سن ١١١ سنة؟ وأمه مريم؟ وماذا بخصوص عيسى الذي يقهقه؟ وما إلى ذلك من قصص تمت روايتها على مدى آلاف الصفحات من «الكتابات المزيفة» المسيحية. لماذا تم استبعادها؟ لأنها لا

تسمح بخطاب موحد ومتواطئ.. من يؤلف هذا المتن، ومن يحدد مجموع الكتب السماوية؟ إنها الكنيسة ومحافلها الدينية ومجامعها الكهنوتية خلال نهاية القرن الرابع.

ولم يحل، مع ذلك، هذا الفرز لقشدة النصوص دون بروز ما لا يحصى من التناقضات ومما يبدو مستبعد الحدوث، داخل جسم نص «الأناجيل الصحيحة». مثال: بحسب يوحنا، فإن قطعة الخشب التي سجل عليها القضاة موضوع الحكم والإدانة قد ثبتت على خشب الصليب فوق رأس المسيح؛ وبحسب لوقا، فإنها توجد حول عنق المصلوب؛ فيما لا يعطي مرقص، الذي تنقصه الدقة، ما يفيد الحسم في المسألة.. فبخصوص هذه القطعة الخشبية، نجد أن النص يقدم أربعة أمور متباينة اعتبارا للوقا ويوحنا ومتى ومرقص... ففي طريقه عيسى نحو غولغوتا، يقول يوحنا إنه كان يحمل صليبه لوحده. لكن لماذا يضيف الثلاثة الآخرون أن شمعون سيرين كان يعينه في ذلك؟ وبالنظر إلى هذا الإنجيل أو ذاك، نجد أن عيسى قد تجلى بعد موته لرجل واحد، ثم لبضعة أشخاص، ثم لمجموعة كاملة من الناس.. كما أن هذه التجليات تتحقق في أماكن مختلفة.. ولا يمكننا التوقف عن الإشارة إلى هذا النوع من التناقضات، حتى داخل نص الأناجيل التي قد اعتمدتها مع ذلك الكنيسة الرسمية، بهدف صناعة متواطئة لأسطورة واحدة وموحدة.

بالإضافة للتناقضات، يمكن الإشارة إلى «ما يبدو مستبعد الحدوث» Invraisemblable. فعلى سبيل المثال، نورد تبادل الحديث بين المحكوم عليه بالإعدام وبونس بيلات Ponce PILATE، وهو حاكم رفيع في الإمبراطورية الرومانية. فزيادة على أن التحقيق في مثل هذه الحالات لا يقوم به الرئيس مباشرة، بل أحد مرؤوسيه، يصعب تصور «بونس بيلات» مستقبلا عيسى،

الذي لم يكن قد صار المسيح بعد ولا كل ما صاره بفضل التاريخ ـ أي نجما كونيا. فقد كان يتعلق الأمر آنذاك بأحد معتقلي الحق العام، مثل معتقلين آخرين داخل سجون المحتل. ويبدو ضعيف الترجيح أن يقبل هذا الموظف السامي بمحادثة صياد محلي صغير. ثم إن «بونس بيلات» يتكلم اللاتينية بينما لغة عيسى هي الآرامية. فكيف يمكنهما التحادث، كما نفهم ذلك من الأناجيل، دون ترجمان ولا مترجم ولا وسيط؟ إنها حبكات خيال. .

و«بونس بيلات» هذا لا يمكنه أن يكون «واليا رومانيا»، كما تنعته الأناجيل، بل كان محافظا على يهودا، لأن مصطلح «والي روماني» لم يظهر إلا سنة ٥٠ من الميلاد. . كما أن هذا الموظف الروماني لا يمكنه أن يكون ذلك الشخص الودود اللطيف والعطوف الخير نحو عيسى، كما تصوره الأناجيل، إلا إذا كان هدف مؤلفيها تحميل الوزر لليهود، المتورطين بقتل بطلهم ومغازلة السلطة الرومانية للتعاون معها بعض الشيء. ذلك أن التاريخ يحتفظ لهذا المحافظ الروماني بصورة القسوة والشراسة والوقاحة وبميله للقمع. إن في الأمر إعادة بناء لأحداث التاريخ. .

هناك حدث آخر يندرج ضمن «ما يبدو مستبعد الحدوث»: قصة الصلب. ويشهد على ذلك التاريخ: ففي ذلك العصر كان اليهود يُرجمون ولا يُصلبون. فعلى ماذا أوخذ عيسى؟ أوخذ على أنه أعلن نفسه ملكا على اليهود؛ أما مسألة التخليص والنبوة، فلم يكن الرومان يعيرونها غير الازدراء. أما عقوبة الصلب فتقتضي المساس والتشكيك بالسلطة الرومانية، وهو ما لم يجهر به المصلوب أبدا. وإذا سلمنا بمسألة الصلب، ففي هذه الحالة يترك المجرم المعدوم معلقا هدفا للجوارح والكلاب التي تمزق الجثة بسهولة، لأن الصلبان قلما تتعدى المترين ارتفاعا، ومن ثم يرمى بالجسد في الحفرة العمومية. . أي أن أمر الدفن في قبر خاص يعتبر مستبعدا. خيال. . .

القبر إذن. . في ذلك مناسبة أخرى لـ «ما يبدو مستبعد الحدوث». فقد حصل تلميذ سري لعيسى، يدعى جوزيف داريماتي، على جسد شيخه من عند «بيلات» ليضعه في قبر. من دون طقوس غسل الميت؟ التي لا يمكن تصور الدفن بدونها بالنسبة ليهودي. . يشير أحد الإنجيليين إلى طيب وصبر ومر مكاوي ـ ثلاثين كيلو ـ وصيغة مصرية للعطر؛ بينما لا يذكر الإنجيليون الثلاثة الباقون هذه التفاصيل. . لكن يبدو أن حل هذه التناقضات يكمن في معنى اسم المكان الذي قدم منه جوزيف: «أريماتي» ـ أي «ما بعد الموت». فـ «جوزيف الأريماتي» في مبدأ اللغة الإنجازية يسمي من يأتي من بعد الموت، ويهتم بجسد المسيح وهو أشبه ما يكون بالمؤمن الأول. اختلاق وابتكار. .

تقود القراءة المقارنة للنصوص إلى جملة من الأسئلة الأخرى: لماذا غاب تلاميذ المسيح يوم الصلب؟ وكيف يمكن أن نصدق أنهم، بعد هذا الزلزال ـ اغتيال مرشدهم الروحي ـ، يعودون لديارهم دون رد فعل، ودون اجتماع ودون استكمال المشروع الذي أوجده عيسى؟ ذلك أن كل واحد منهم عاد لعمله في قريته. . . وما الذي منع أحد الحواريين الإثني عشر من أن ينجز العمل الذي قام به القديس بولس ـ الذي لم يعرف عيسى: أي التبشير بالإنجيل ونقل البشارة إلى أبعد نقطة ممكنة؟

ماذا يمكن قوله بخصوص كل هذا؟ ما الذي يمكن عمله بكل هذه التناقضات وهذه الأشكال لـ «ما يبدو مستبعد الحدوث»: نصوص مستبعدة؛ وأخرى مرسخة، لكن بعد أن تشحن بالابتداع والاختلاق والخيال والتخيل والتخمين، وبكل ما يدل على بناء بعدي وجداني ومناضل لقصة عيسى. ولذلك فنحن نفهم أن تكون الكنيسة قد منعت رسميا ولقرون كل قراءة تاريخية للنصوص المقدسة، فلقد كانت قراءتها، كما يُقرأ أفلاطون أو تيسيديد، غاية في الخطورة!

إن عيسى، إذن، شخصية متعلقة بمعنى وتصور ومفهوم؛ وتكمن كل حقيقتها في هذا التعريف. لقد وجد عيسى فعلا، لكن ليس بصفته وجها تاريخيا ـ وإلا لكان الأمر بطريقة غاية في ما ليس يحتمل الحدوث. لقد وجد باعتباره بلورة للتطلعات النبوئية لعصره، ولعوالم العجيب والخارق المختصة بالكتاب القدامى، وذلك وفقا لسجل اللغة الإنجازية، التي تخلق الأمر من خلال تسميته. لقد كتب الإنجيليون قصة يروون من خلالها مستقبل دين أكثر منه ماضي رجل. تلك حيلة العقل: إنهم يخلقون أسطورة ويُخلقون بها. إن المؤمنين يبتكرون مخلوقهم، ثم يعبدونه: فذاك جوهر مبدأ الحمق والاستلاب...

# II
# انتشار عدوى بولس

## [١]

### هذيان مصاب بالهستيريا

لقد استولى القديس بولس على هذه الشخصية المفهوم (عيسى) وألبسها ثم منحها أفكارا. فعيسى البدائي نادرا ما تكلم ضد الحياة. هناك جملتان (إنجيل مرقص٧: ١٥؛ و١٠: ٧) تظهران أنه لا يعارض الزواج، ولا يبدو أبدا مفتتنا بمثل الزهد المتقشفة؛ كما أننا نبحث دون جدوى عن تعاليمه الصارمة بخصوص الجسد والحياة الجنسية واللذة. ويزاوج هذا اللطف النسبي، بخصوص أمور الحياة، امتداح للبشاشة وممارسة لها. إن بولس يحول صمت المسيح بخصوص هذه المسائل إلى ضجيج وصخب يصم الآذان، من خلال نشره لكره الجسد والنساء والحياة. فالتطرف المعادي للاستمتاع في المسيحية مصدره القديس بولس ـ لا عيسى، تلك الشخصية التصورية الصامتة بخصوص هذه المسائل...

كان بولس، هذا اليهودي المتطرف والمصاب بالهستيريا، يستمتع في الأصل باضطهاد المسيحيين، وبمتابعة مشاهد جلدهم. فحين كان المتعصبون يرجمون

إيتيان، كان هو بصحبتهم. وقد كان معه آخرون على ما يبدو. أما التحول الذي حصل له في طريقه إلى دمشق ـ سنة ٣٤ ـ، فيندرج ضمن العاهة الهستيرية الخالصة: إذ يسقط من طوله (لا من الحصان كما يبينه كارافاج ومعه تقاليد اللوحات المرسومة. . ) فتعميه أنوار حادة، ليسمع صوت المسيح ويغيب بصره، لمدة ثلاثة أيام ظل خلالها بلا أكل ولا شرب. ويعود له بصره، بعد أن باركه «أناني» ـ وهو مسيحي بعثه الله في مهمة خاصة. . . ـ بوضع يديه على رأسه؛ فتغذى بعد ذلك، وباشر المسير ليقضي سنوات في التبشير الأهوج بالإنجيل، على طول الحوض المتوسط. .

إن التشخيص الطبي يبدو سهلا: تحدث الأزمة دائما في حضور أشخاص آخرين ـ والحال كذلك ـ، ثم السقوط و«العمى الهستيري» كما يسمى ـ وهو عمى جزئي عابر ـ والصمم وفقدان الشم والذوق ـ لمدة ثلاثة أيام، في الميول الهلوسية ـ، ثم يحثه عيسى شخصيا ـ البهلوانية أو الاستعراضية الأخلاقية ـ، ويلي ذلك ثلاثون سنة في استعراض مسرحي لشخصية خيالية انتقاها الله واختارها لتغيير شكل الكوكب. إن وصف هذه الأزمة تشبه إلى حد الخلط ما تبينه كتب طب الأمراض النفسانية، في باب العصاب، فصل الهستيريا. . إنها هستيريا حقيقية. . هستيريا الاهتداء.

[٢]

## جعل العالم عصابيا

كيف يمكن للمرء أن يحيى عصابه الشخصي؟ ذلك يتم من خلال تحويله إلى نموذج ومثال للعالم، أي جعل العالم عصابيا. . لقد صنع بولس العالم على صورته. صورة محزنة: صورة متعصب متقلب المسعى ـ انتقل من المسيحيين إلى الوثنيين، وهي علامة أخرى على الهستيريا ـ وصورة مريض

يكره المرأة ويستلذ تعذيب الذات.. كيف لنا أن لا نرى في عالمنا انعكاسا لأوصاف هذا الرجل الذي تسيطر عليه غريزة الموت؟ ذلك أن العالم المسيحي يجرب اعتماد هذه الطرق في العيش والاشتغال: أي الخشونة الإيديولوجية، والتعصب الفكري، وعبادة الصحة العليلة، وكره الجسد المبتهج، واحتقار النساء والتلذذ بالألم الممارس على الذات وعدم تقدير الحياة الدنيا باسم حياة أخرى راقية.

لا يقدم لنا بولس ـ ذاك الرجل النحيل الصغير القامة الأصلع والملتحي ـ تفاصيل مرضه الذي يحدثنا عنه استعارة: لقد كان يسر لنا أن الشيطان قد عاقبه «بشظية في جسمه» ـ وقد اقتبس كييركيغارد هذه العبارة لحسابه. فلا نجد تفاصيل تذكر، ما عدا مرة واحدة وردت فيها تأملات بخصوص حالته التي طلع بها يوما على جمهوره وهو رث الثياب، بعد أن أَنهكه بعضهم ضربا ترك آثاره... كل ذلك بشكل جعل النقد يراكم، على مدى قرون، افتراضات تتعلق بطبيعة هذه «الشظية»؛ ولم يتم في ذلك تجنب الجرد الساخر لذلك: التهاب المفصل، المغص الكلوي، التهاب الوتر العصب الوركي، المفاصل، خفقان القلب، التهاب لوزتي الصدر، حكة، جرب، جمرة، دمل، بواسير، شقوق شرجية، قوباء، جذام، طاعون، سعار، حمرة الجلد الملتهب، المغص، ألم المعدة، التهاب الأذن المزمن، والتهاب الجيوب الأنفية، احتباس البول، حمى المستنقعات، السعفة، غنغرينة، تقيح فواق مزمن (!) تشنجات وصرع.... المفاصل، والوتر، والأعصاب، والجلد، والأمعاء، والشرج، والأذنين، وجيوب الأنف، والمثانة، والرأس.. كل ذلك مندرج..

نجد كل شيء، باستثناء الحقل الجنسي.. والحال أن علم أسباب الأمراض المتعلق بالهستيريا يقتضي ضعف الطاقة الجنسية، أو انعدامها تماما. اضطرابات

بالحياة الجنسية؛ الميل على سبيل المثال إلى رؤية الجنس بكل مكان، وإلى المغالاة في الرؤية الشبقية. فكيف لا يمكننا أن نتصور ذلك عندما نقرأ، ونحن نحصر الغثيان، بقلم بولس مقتا واحتقارا وحذرا لا ينقطع نحو كل أمور الجسد؟ إن كرهه للحياة الجنسية وتمجيده للعفاف، وتقديسه للامتناع في ذلك، ومدحه للوحدة، والعزلة، وشغفه بالعزوبة، ودعوته لسلوك مسلكه بالحياة التي عبر عنها بوضوح في «رسالته للكورنثيين» (٧؛ ٨)، ثم تنازله للقبول بشرعية الزواج ـ لكن باعتباره أسوأ الحالات، أما أحسنها فهو التخلي عن كل شهوة ـ، كل ذلك علامات على هذه الهستيريا التي تتجلى أكثر كلما غصنا في التفاصيل.

تتميز هذه الفرضية بتأكيد بعض الأمور اليقينية: لا نجد اعترافا بأي عاهة مهما كانت؛ لكن يمكن للمرء أن يعترف، دون عقدة، بآلام في المعدة وبالتهاب المفاصل؛ كما أن التهابات الجلد المنتشرة تلاحظ وكذلك الفواق المتكرر. لكنه لا يمكن البوح بنفس الطريقة بعجز جنسي يمكن للمرء كشفه جزئيا، تحت غطاء استعارة ـ ذلك هو دور «الشظية». وكذلك الأمر بالنسبة لكل تركز للطاقة الجنسية على موضوع محرم اجتماعيا ـ أو على شخص من نفس الجنس، أو كل انحراف بالمعنى الفرويدي. يؤصل فرويد الهستيريا في الصراع ضد أنواع القلق المكبوتة، ذات الأصل الجنسي وفي تحققها الجزئي على شكل انحراف ـ بالمعنى الذي يتداوله التحليل النفسي؛ لكن المعنى الآخر للكلمة يعتبر مناسبا هو كذلك. . .

ويبدو أن هناك نوعا من القانون يسود الأرض منذ القدم. سنقوم بتسميته، تكريما للكاتب الكبير لافونتين، بـ «عقدة الثعلب والعنب»: يقتضي قانون تحويل الضرورة إلى فضيلة بهدف إنقاذ ماء الوجه. فلقد آلمت الحياة بولس

بضربة قدر وبضرورة: عجز جنسي أو طاقة جنسية مشكلة؛ كان رد الفعل أن توهم أنه حر، من خلال اعتقاده أنه تحرر مما يتحكم به، فأكد أن ما جاءه كان اختيارا قرره في كامل وعيه وقواه. قرر بولس العاجز عن سلوك حياة جنسية جيدة جديرة بهذا الاسم، بأن هذه الحياة لا تليق به ولا تليق كذلك بباقي العالم. إنها الرغبة بأن يكون مثل الناس، من خلال دعوة الناس إلى تقليده؛ فهنا يكمن أصل النشاط بجعل الإنسانية قاطبة تخضع لقاعدة الحتمية الخاصة به...

[٣]

## ثأر جهيض

إن هذا المنطق عند بولس يبدو جليا في إعلان ورد «برسالته إلى الكورنثيين» (١٢؛ ٢ ـ ١٠) حيث يؤكد: «**إني أستمتع بأشكال الضعف والإهانة والإكراه والاضطهاد والقلق من أجل المسيح! ذلك أنه حين أكون ضعيفا أكون آنذاك قويا**»؛ هذا لب الاعتراف بمنطق التعويض الذي يوجد عليه هذا الهستيري الذي وهن على طريق دمشق. فانطلاقا من بناء عضوي منهار، يناضل بولس من أجل عالم يشبهه.

إن مقته لذاته يتحول مقتاً شديداً للعالم، ولما يفيد العالم: أي الحياة والحب، والرغبة والمتعة، والأحاسيس، والجسم والجسد والابتهاج والحرية، والاستقلال والتحرر. إن مازوخية بولس، المستلذ بتعذيب الذات، لا تشكل سرا. فهو يقدم حياته كاملة تحت علامة الضجر، ويتقدم نحو الصعوبة والعسر، ويحب المشاكل ويستمتع فيها، ويرغب بها ويتطلع إليها ويختلقها. ففي «رسالته» المذكورة، التي يؤكد فيها ميله للإذلال، يقوم بجرد لكل ما تحمله وكابده في سبيل نشر بشارة **الإنجيل** بين الجموع: لقد جلد خمس مرات

ـ تلقى خلال كل مرة ٣٩ ضربة . . ـ، وعُنف ثلاث مرات بالقضيب ورجم مرة في «ليستر» بالأناضول ـ حيث كاد يهلك، عندما ترك على الأرض كأنه ميت . . ـ وغرق ثلاث مرات ـ قضى خلال إحداها يوما وليلة وسط مياه جامدة ـ، دون ذكر الأخطار المرتبطة بالسفر على طرق تمتلئ بقطاع الطرق، والعبور الخطير للأنهار، وتعب المشي تحت الشمس العمودية، والسهر المتكرر، والصوم الاضطراري وفقدان الماء، وبرد ليالي الأناضول. ولنزد على ذلك الإقامة بالسجون ـ سنتين داخل قلعة ـ والمنافي. . كل ذلك لاستلذاذ عذاب الذات عند هذا المازوخي.

كان يجد نفسه أحيانا في وضعيات مذلة؛ فمثلا في الساحة العمومية بأثينا، حيث حاول أن يهدي فلاسفة رواقيين وأبيقوريين إلى المسيحية من خلال الحديث عن بعث الجسد، وهو ما كان بلاهة لدى الإغريق. فما كان لتلاميذ زينون وأبيقور إلا أن سخروا منه في وجهه. استقبل مسامير الاستهزاء هذه دون تعثر. . وفي مرة أخرى، ولكي يفلت من الانتقام الشعبي ومن غضبة الوالي الروماني على دمشق، فر متخفيا في قفة تم إنزالها من نافذة إلى ما تحت أسوار المدينة. فنجا بولس من الموت. .

يحوِّل بولس هذا الكره للذات إلى كره للعالم ـ لكي يتمكن من العيش به والتخلص منه بعض الشيء، والاحتفاظ به على بعد بعض المسافة. إنه عملية قلب لما يشغل دواخل المرء ليستقر في الواقع. يتحول احتقار بولس لجسده، العاجز على أن يكون في مستوى ما ينتظر منه، إلى الحط من قيمة كل جسد بصفة عامة، وكل الأجسام وكل العالم. إنه يعترف للكورنثيين في رسالته: «إنني أولم جسمي وأجره إلى العبودية» (١ ؛ ١٠ ؛ ٢٧)؛ ويطلب من الإنسانية: آلموا أجسامكم وجروها إلى العبودية. قلدوني في فعلي. . .

فهنا يكمن أصل تمجيد ومدح العزوبة والعفاف والصوم. لا دخل لعيسى

بهذه القضية؛ بل هو «ثأر جهيض» ـ كما يسمي هو نفسه في «رسالته الأولى إلى الكورنثيين» (١٥؛ ٨). ولما كان عاجزا عن بلوغ النساء، مقتهن. وكان عاجزا جنسيا؛ فاحتقرهن. فهذه مناسبة رائعة لتكرير كره النساء الموجود في الفكر التوحيدي اليهودي ـ الذي ورثت منه المسيحية والإسلام. فالآيات الأولى للكتاب الأول من الإنجيل تعلن عزف هذه النغمة: يدين «سفر التكوين» المرأة تماما وبصفة نهائية، فهي أول ساقطة بالخطيئة وسبب الشر في هذا العالم. ويستعيد بولس لحسابه الخاص هذه الفكرة المشؤومة.

وهنا يكمن أصل التحريم المتعدد الذي يطالهن في أدبيات بولس ورسائله وأفعاله؛ وهنا يكمن أيضا أصل النصائح والآراء التي يقدمها حول مسألة النساء: فباعتبارهن ضعيفات بالمطلق، فإن قدرهن أن يطعن الرجال بصمت وخنوع؛ وإن على سليلات حواء أن يخشين أزواجهن وأن لا يعلمن الرجل، الذي يُزعم أنه جنس خشن، وأن لا يقاضينه. ولما كن غاويات وفاتنات، فيمكنهن بالفعل التطلع للخلاص، لكن فقط في الأمومة وبها ولأجلها. لقد تمت معاقبة النساء لمدة ألفي عام، فقط من أجل التكفير عن عصاب جهيض.

[٤]

## مدح العبودية

يعرض بولس المازوخي الأفكار التي ستنتصر بها المسيحية يوما ما. أي مدح الاستمتاع بالخضوع وبالطاعة وبالسلبية وبالعبودية للأقوياء، تحت الذريعة الخداعة القاضية بأن كل سلطان يأتي من الله وأن كل وضعية اجتماعية فقيرة وضعيفة وذليلة هي منبثقة عن إرادة سماوية وعن قرار رباني.

فالله الرؤوف والرحيم وما إلى ذلك... هو من يريد مرض المرضى وفقر الفقراء وعذاب المعذبين، وخضوع الخدم. كان بولس يعلم الرومان، الذين

كان يغازلهم بانتهازية في قلب الإمبراطورية الرومانية، الخضوع للولاة والموظفين السامين وللإمبراطور؛ وكان يدعو كل واحد إلى أداء واجبه: دفع الضرائب والمكوس للقابضين وخشية الجيش والشرطة والأعيان، وتشريف الشيوخ والوزراء والأمير...

ذلك أن كل شيء مصدره الله. ويعتبر كل عصيان لأحد هؤلاء البشر تمردا على الله. ويدخل مديح الخضوع للنظام وللسلطة في هذا الإطار. فبإتباع الكنيسة لاستهواء الأقوياء، وتبريرها وتشريعها فاقة البؤساء وبمغازلتها لأصحاب السيوف، تكون قد بدأت رحلة رفقتها الطويلة للدولة؛ وهي رحلة ستسمح لها منذ بداياتها بأن تكون دائما بجانب الطغاة والمستبدين وأصحاب السلطة المطلقة...

إن العجز الجنسي الذي تحول إلى قوة على العالم، وعدم القدرة على بلوغ النساء الذي صار كرها للمؤنث، واحتقار الذات الذي استحال حبا للجلادين، والهستيريا التي تم التسامي بها إلى عصاب اجتماعي؛ كل ذلك يعتبر مادة دسمة لتوصيف رائع خاص بالطب النفساني العقلي! لقد صار عيسى متينا، عندما تحول إلى رهينة في يد القديس بولس! فقد بدأ معه ابن الناصرة الباهت، والذي لا رأي له بمسائل المجتمع والحياة الجنسية والسياسة ـ فالشبح لا يتجسد في يومين ـ، بدأ يبرز. كانت هذه الأسطورة تبنى بوضوح متزايد.

لم يقرأ بولس أي إنجيل من الأناجيل خلال حياته؛ وهو نفسه لم يعرف المسيح أبدا. فقد كتب مرقص الإنجيل الأول خلال سنوات حياة بولس الأخيرة، أو ربما بعد موته. ونشر بولس الأسطورة، منذ النصف الأول من القرن الأول، وزار جمهورا من الناس راويا لهم حكاياته العجيبة في عشرات الدول: في آسيا الصغرى، حيث عاش فلاسفة ما قبل سقراط وفي أثينا مدينة

أفلاطون وأبيقور وفي كورنثيوس مدينة ديوجين، وفي إيطاليا حيث كانت جماعة أبيقوريي كامباني أو رواقيي روما، وفي صقلية حيث امبيدوكليس، كما زار مدينة سيرين، التي رأى فيها مذهب السعادة بمتعة النور مع أريستيب، ومر كذلك على الاسكندرية، مدينة فيلون. كان ينشر عدواه بكل مكان؛ فسرعان ما شاع مرض بولس في كامل جسد الإمبراطورية الرومانية. . .

[٥]

### مقتا للذكاء

كره الذات وكره العالم وكره النساء وكره الحرية؛ يضيف بولس لهذه اللوحة المحزنة كرها للذكاء. يلقن «سفر التكوين» مسبقا هذا الكره للمعرفة: ذلك أنه لا يجب أن ننسى أن الخطيئة الأولى، التي لا يمكن غفرانها، كانت التطلع لتذوق ثمار شجرة المعرفة. فأن يكون المرء قد أراد المعرفة، ولم يكتف بالطاعة والإيمان المطلوبين من قبل الله لبلوغ السعادة الهنيئة، هو مما لا يغتفر. أن يشارك المرء الله في العلم وأن يفضل الثقافة والذكاء على غباء الطائعين، كلها ذنوب قاتلة. . .

ما ثقافة بولس؟ لاشيء، أو قل ثقافة قليلة جدا: العهد القديم واليقين أن الله يتكلم بلسانه. . وما تكوينه الفكري؟ لم يبلغنا أن نجمه لمع في سماء المدارس والدراسة الطويلة. . يرجح أن يكون له تكوين حاخامي. . وما حرفته؟ صانع وتاجر خيام للرحل. . وما أسلوبه؟ هو في الحقيقة أسلوب ثقيل ومستعار ومعقد وشفهي، ولغته الإغريقية غير مستوية ويرجح أنه كان يمليها بينما هو مسترسل في شغله اليدوي ـ يستنتج بعضهم من ذلك جهله للكتابة. . وهو نقيض فيلون الاسكندري، الفيلسوف الذي عاصره.

إن هذا الرجل الأمي الذي أثار سخرية الرواقيين والأبيقوريين في الساحة

العمومية بأثينا، والرجل المخلص لمسلكه بتحويل الضرورة إلى فضيلة، قد حول جهله وأميته إلى مقت للثقافة. لقد دعا إلى ترك بحوث الفلسفة «الخرقاء والبلهاء» وإلى تجنب «خدعها الفارغة»؛ وتعتبر المراسلات بينه وبين سينيقا تزييفا من الطراز الرفيع: فالأمي الجاهل لا يخاطب الفلاسفة، بل يخاطب من هم مثله. لم يكن جمهوره، في كل مكان تنقل فيه حول الحوض المتوسط، يتكوَّن من مثقفين أو فلاسفة وأدباء، بل من أناس بسطاء: صناع أكواخ وصباغين وصناع تقليديين ونجارين، وقد وضع لائحتهم سيلس في كتابه «ضد المسيحيين». لا حاجة إذن للثقافة؛ فالغوغائية تكفي ومعها حليفها الأبدي: مقت الذكاء.

# III
# الدولة الشمولية المسيحية

## [١]

### هستيريون، تابع . . .

بنفس الطريقة التي تأسست عليها العقلانية الفرنسية، انطلاقا من ثلاثة أحلام رآها ديكارت (!)، تدخل المسيحية التاريخ بصخب وضجيج من خلال خبر عن حدث منبثق عن لب التقاليد الوثنية: رموز علم التنجيم. . كان ذلك في سنة ٣١٢؛ وكان **قسطنطين** يتقدم نحو روما ويحارب ضد خصمه ماكسنس محاولا أن يخطف منه إيطاليا. كان اجتياحه لشمال شبه الجزيرة مذهلا: سقطت **تورينو وميلانو وفيرونا** بسهولة كبيرة. كان الإمبراطور متعودا على الاتصال المباشر مع المطلق: فقد تجلى له الإله **أبولون** شخصيا في معبده الأكبر **بالفوسج** ليعده بحكم يدوم ثلاثين عاما؛ لم تكن الوثنية تزعجه في ذلك الوقت. بل لقد قدم أضحية قربان للشمس التي لا تهزم. .

لكن هذه المرة تغير الرمز؛ وعلى طريقة **بولس** المطروح في طريق دمشق، سيكتشف **قسطنطين** في السماء إشارة تبشره بأنه سينتصر من خلالها. وهناك تفصيل له أهميته، فقد شاهدت أسراب الجنود هذا الحدث معه، واستنتجوا

كلهم نفس الرسم المقدس! فإن أوزيب دوسيزاري، مثقف الأمير العضوي ـ والأسقف زيادة على ذلك ـ والمزيف الذي لا نظير له والمتخصص الفذ في أطروحات إثبات العقائد المسيحية، هو من يقدم تفاصيل ذلك: فقد كانت تلك الإشارة وسام صليب من نور فوق الشمس. وهناك زيادة على ذلك ـ يضيف أوزيب ـ نص سبق وأكد أن الإمبراطور سينتصر ضد ماكسنس من خلال ابتهاله إلى هذه الإشارة. واعتماد احتياطين خير من احتياط واحد: فقد تجلى عيسى لمحميه قسطنطين خلال الليلة التالية وعلمه إشارة الصليب المفيدة للانتصار في كل المعارك، على شرط تحصنه بهذا الفأل. وكما نفهم، فإنه لما صار مسيحيا قوي الإيمان قام بإنكار علم الأبراج والسحر والوثنية ـ لأن القدر من العقلانية الفلسفية الذي تحتويه هذه المجالات يعتبر بالنسبة لقسطنطين مثار استلاب وخبل..

بعد بضعة أيام انتصر الإمبراطور، بطبيعة الحال.. ومات ماكسنس غرقا عند جسر ماليفوس، وصار قسطنطين، المدعوم بالشبح الناصري، سيد إيطاليا. فدخل روما وذوب الحرس الحاكمي وأهدى البابا ميلتياد قصر لاتران. يقال فعلا إن «مملكة المسيحيين ليست من هذا العالم»، لكن ما الداعي لإهمال العالم حين يسمح زيادة على ذلك بالأبهة والذهب والأرجوان والفضة والسلطة والقوة، وبكل الفضائل المستقاة بطبيعة الحال من رسائل ابن النجار؟!...

وماذا عن هذه الإشارة؟ فهل هي رسالة من المسيح أم أنها هلوسة جماعية؟ وهل هي رسالة عيسى الثابت في الأزل السماوي، والذي يحتفظ مع ذلك بعين على العالم في تفاصيله الدقيقة، أم هي دليل إضافي على أن عصر القلق ذاك وذلك العالم المتصدع، كانا مواتيين لأشكال العصاب الجماعي، ولأصناف الهستيريا الموصى بها من قبل الآلهة؟ هل هي دليل تجدد وولادة جديدة، أم

هي شهادة على الانهيار والتقهقر؟ هل هي أولى خطوات المسيحية، أم إنها خطوات الوثنية الأخيرة؟ بؤس الناس في غياب الإله ـ وبؤس أكبر مع وجوده . .

تُقرأ اليوم هذه الإشارة بطريقة عقلانية، بل قل بفكرة مغالية في العقلانية: لا علم تنجيم هناك، بل علم فلك. يطرح علماء العصر الحديث المختصون فرضية قراءة هستيرية، وبالتالي دينية، لحدث ينخرط ضمن علاقات سببية هي من أبسط ما تكون. ففي اليوم العاشر من أكتوبر سنة ٣١٢ ـ أي ثمانية عشر يوما قبل الانتصار الشهير على ماكسنس، يوم ٢٨ أكتوبر ـ، كانت كواكب المريخ وزحل والزهرة في هيئة تسمح لعملية إسقاط ما من قراءة أمارة خرافية في السماء الرومانية.

فإذا لم يكن قسطنطين قد لمع نجمه في سماء ثقافة الكتب، فإنه يبدو خبيرا حذقا بخطط الحرب وسياسيا ماهرا. هل كان يعتقد فعلا في الإشارة المسيحية؟ أم إنه أخرجها واستعملها بمهارة لغايات انتهازية؟ يمكن أن يكون هذا الوثني المحتك بالسحر، والمقتنع بعلم التنجيم، مثله مثل كل الناس في ذلك الوقت، قد أدرك كل الفائدة التي سيجنيها في صفوفه بوجود القطيع المسيحي المطيع والخاضع للسلطان، والذي لا يتمرد أبدا على النظام والسلطة والمخلص لها. . . .

كان أبوه كونستانس كلور قد نهج سياسة تسامح مع أنصار المسيح، فوجد نفسه مرتاحا معهم: فهل يكون هو قد أعاد الصلة بهذه السياسة السياسية المحترفة الماهرة، تبعا لنصيحة من بعض المتآمرين المسيحيين الناشطين؟ وهل كان، باعتباره صاحب رؤى، يتبين الفائدة من استعمال هذه القوة المهمة من خلال إلحاقها بمشروعه ـ لنقل مشروعه الغرامشي ـ المتعلق بتوحيد

الإمبراطورية؟ ومع ذلك، ففي فترة بداية القرن الرابع، كان عيسى، المشكوك به والذي صرخ باسمه بولس في كل مكان، قد صار الأداة الشعار لأبواق وصخب الإمبراطورية الجديدة.

[٢]

## انقلاب قسطنطين

قاد قسطنطين انقلابا هائلا. ولا نزال نحن نعيش حتى يومنا هذا على هذا الإرث المشؤوم. لقد فهم هذا الرجل فعلا ما يمكن كسبه من شعب خاضع دعاه بولس إلى الرضوخ للسلطة الزمنية، وإلى قبول البؤس والفقر دون تردد، وإلى طاعة ولاة الإمبراطورية وموظفيها وحرم عليه العصيان الدنيوي باعتباره سبّاً وقذفا يتوجه للرب، كما أوصاه بالتعايش مع الاستعباد والاستلاب والتفاوت الاجتماعي. فمشاهد الآلام وبعض مظاهر الاضطهاد أثبتت للسلطة روعة هذا الجمهور من الرعاع بالنسبة لمن هم في قمة هرم الدولة.

فقد منحهم قسطنطين ضمانات. بل لنقل: لقد اشتراهم. وتمت الصفقة... فقد أدرج بنودا جديدة في القانون الروماني ترضي المسيحيين، وتجعل من مثل الزهد المتقشف مذهبا رسميا. ولكي يحارب الانحلال الأخلاقي بين قاعدة الإمبراطورية، والحياة الجنسية الحرة واتساع الألعاب على المدرج الروماني والممارسات التهتكية في بعض الطقوس الوثنية، قام هذا الإمبراطور بسن قوانين صارمة وبتعقيد مسطرة الطلاق ومنع الارتباط الزوجي الحر، كما جعل من الدعارة جنحة وأنكر التحرر الجنسي الفاسق. وقام في الوقت ذاته بنسخ القانون الذي يمنع العزاب من الإرث، بشكل يمكن معه لرجال الكنيسة من ملء جيوبهم بعد موت شخص ما. ولم يقم بمنع الاستعباد، بعكس ما يؤكده أتباع المسيح، بل تم فقط تهذيبه بطريقة غامضة... بينما تم

بالمقابل تحريم السحر وممارسة قتال المصارعين. وأصدر قسطنطين أوامره ببناء كنيسة السان بيير، وكذلك بعض الكنائس الثانوية. فابتهج المسيحيون وصارت مذاك الوقت مملكتهم جزءا من هذا العالم..

خلال ذلك الوقت، قامت الزوجة الثانية لهذا المسيحي الجديد بإقناعه بأن ابن زوجته الأولى راودها عن نفسها؛ فقام، من دون استجلاء للأمر، بإرسال قتلة مأجورين ليعذبوا ويضربوا عنق ابنه، وابن أخيه المتورط معه في التآمر. وبعد علمه أن الإمبراطورة قد خدعته في القضية، أرسل نفس المنفذين الذين استغلوا أحد حمّاماتها لإغراقها في الماء المغلي... اشترى هذا الإمبراطور المؤمن جدا ـ قاتل الابن والزوجة والإنسان ـ خلاصه وسكوت الكنيسة ـ التي لا تدين القتلة ـ بهدايا جديدة: إعفاء الأملاك العقارية للكنيسة من الضرائب ودعم سخي، وإنشاء كنائس جديدة ـ كنيستي سان بول وسان لوران. تغيرات تطال مبدأ محبة القريب..

وقامت طبقة الكهنة بائتمان الأمير على السلطات كاملة وهو الذي غطاها بمكرماته وأغدق عليها وأغناها بأمواله، وذلك خلال مجمعهم بنيسي سنة ٣٢٥. وغاب البابا عن الحفل ـ ويفترض اليوم أن يقال إنه كان لأسباب صحية. وخلال هذا المجمع أعلن قسطنطين نفسه «الحواري الثالث عشر». فصار بالتالي للقديس بولس مخلص متفان صاحب جناح مسلح؛ وأي جناح مسلح! وبذلك شكلت الكنيسة والدولة ما أسماه هنري إريني مارو ـ وهو مؤرخ اتهم بمعاداة الكنسية وبالإلحاد وبالنزعة اليسارية ـ : «الدولة الشمولية». وهي أول دولة مسيحية.

في ذات الوقت، قامت هيلين، المهتمة بخلاص ابنها الهائج الذي قتل ابنه وزوجته، برحلة إلى فلسطين. وخلال الرحلة، ستكتشف هذه المسيحية

الملهمة في عين المكان ثلاثة صلبان مع تيتلس الشهير (أي قطعة الخشب التي سجل عليها القضاة موضوع الحكم والإدانة بحق المسيح) وهو للمسيح بطبيعة الحال. كانت فرصة أن مكان آلام المسيح يوجد تحت معبد الإلهة أفروديت ـ الذي يجب بالطبع تحطيمه. . . ـ فأنفقت، وهي في سن الثمانين، أموالا هائلة قدمها قسطنطين لبناء ثلاث كنائس: الضريح المقدس وجنة الزيتون وكنيسة الميلاد حيث رصعت رفات المسيح المقدس. وبالرغم من أن هذه الأماكن قد وجدت لهذه المناسبة دون أن تكون أحداث التاريخ قد بررت أو شرعت هذه المزاعم المكانية، فإن تقديسها ما يزال قائما. . . ولأداء ثمن مقابل هذا العمل الكبير، انتهت الكنيسة إلى اعتبار أن الله يغفر جرائم الابن، وأنه يجعل من أمه بطلة أساطيره؛ ومن ثم قدست وغدت أول إمبراطورة رومانية تدخل مجمع عظماء المسيحية الشغوفين بالموت. .

في عيد العنصرة لسنة ٣٣٧، سيتم تعميد قسطنطين وهو على فراش الموت من قبل أسقف آري ـ ذي عقيدة مبتدعة بالنظر إلى قوانين الإمبراطور في مجمع نيسي. . إنه قرار سياسي يبين نبوغ الإمبراطور في هذا المجال. فهو من خلال هذه الحركة قام فعلا بجمع الأرثوذكس والمبتدعة، وأعاد بهذه الطريقة تشكيل وحدة الكنيسة، مهتما بالمستقبل وخاصة ما بعد حكمه؛ لقد كان يعمل على وحدة الإمبراطورية حتى بعد وفاته.

ونظرا لكونه كباقي المستبدين الذين يعجزون عن تهيئة خلافتهم، فإن موته قد خلف فراغا في السلطة وخلخلت كبار موظفي الكهنوت والدولة؛ وكان ذلك بشكل جعل الوزراء والعسكريين ورجال الدين يقدمون، يوميا، على مدى ثلاثة أشهر ـ من ٢٢ ماي وحتى ٩ سبتمبر، أي في عز الصيف ـ، التقارير عن قراراتهم لجثمانه المعروض. ذلك يشكل الحلقة التالية للعصاب، وبداية طقس الافتتان بالأموات والجثامين وبرفات القديسين عند المسيحيين.

[٣]

## قدر المضطهَدين أن يضطهِدوا الناس:

كانت المسيحية بالفعل موضوع اضطهاد؛ لكن الأمر لم يكن دائما كما تدعيه الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس. فأعداد من فقدوا حياتهم في سبيل هذه العقيدة ما فتئت تتناقص بعد مراجعتها من قبل المؤرخين المستقلين عن الدعوة المسيحية والذين يحكمون ضميرهم في إنجاز عملهم. يتحدث أوزيب سيزاري، المفكر الرسمي لقسطنطين، في كتبه عن آلاف القتلى، بينما تدور الأعداد الحالية حول ثلاثة آلاف ـ وعلى سبيل المقارنة، فقد كانت هناك عشرة آلاف مصارع يتصارعون خلال ألعاب «تراجان» فقط للاحتفال بنهاية الحرب ضد «الداسيين»، سنة ١٠٧ من تاريخنا. . .

إن التعريف المعاصر للدولة الشمولية ينطبق نقطة بنقطة على الدولة المسيحية، كما صنعها خلفاء قسطنطين: استعمال الإكراه والاضطهاد والتعذيب والأعمال الهمجية وتهديم المكتبات والأماكن الرمزية وإفلات القتلة من العقاب وهيمنة الدعاية المذهبية، وسلطة الزعيم المطلقة، وإعادة تشكيل وهيكلة المجتمع وفقا لمبادئ إيديولوجيا الحكم، وإبادة المعارضين، واحتكار العنف الشرعي ووسائل الاتصال، وإلغاء الحدود بين الحياة الخاصة والفضاء العام، والتسييس العام للمجتمع، وتحطيم التعددية والتنظيم البيروقراطي، والنزعة التوسعية وما إلى ذلك من علامات تميز دائما الحكم الشمولي وشمولية الإمبراطورية المسيحية.

في سنة ٣٨٠، أعلن الإمبراطور تيودوز المسيحية دينا للدولة؛ وبعد اثني عشر عاما من ذلك، قام رسميا بمنع الطقوس الوثنية. وقد كان محفل نيسي الديني قد بشر بهذا المنع سلفا. وأمر كل من تيودوز الثاني وفالنتيين الثالث

بتهّديم كل ما من شأنه إغضاب الله وجرح مشاعر الأرواح المسيحية المؤمنة! ويتسع هذا التعريف بما يكفي لتضمين شطط على جميع الأصعدة. يبدو أن للتسامح المسيحي، ولمحبة الجار ولمغفرة الخطايا حدودا. .

افتتح قسطنطين العملية منذ سنة ٣٣٠ من خلال قطع الجسور مع الفلاسفة نيكاغوراس، وهيرموجين وسوباتروس الذي أعدم بتهمة الشعوذة في الوقت الذي كانت فيه كتابات الأفلاطوني المحدث «بورفير» تقذف في المحرقة. إن أحكام التفتيش تتوالى وتتشابه: مرة تعدم فيها أعمال نيستوريوس ومرة أخرى أعمال «الأومونيين» وأتباع مذهب هرطقة مونتانيس وأعمال «أريس» بطبيعة الحال. وكانت في ذلك الوقت الفيلسوفة الأفلاطونية الجديدة، «هيباتي»، تجرب في شوارع الإسكندرية مبدأ المسيحية بمحبة الجار والقريب: إذ تمت متابعتها واغتيالها وتقطيعها من قبل رهبان، ثم سحب جثتها في الشارع، قبل أن يتم تفحيم بقاياها. .

[٤]

## باسم القانون:

لـم يكن رجال القانون يتأخرون في إعطاء الشرعية للسافل والدنيء، وفي منحه قوة القانون في إطار الحقوق، كما كانوا يجعلون للشطط وللجرم والجنح والاضطهاد والاغتيال صيغة شرعية من وجهة نظر القانون. ويجب في هذا الأمر مراجعة قانون تيودوز، وهو قمة في تبيان كيف أن القانون يعبر دائما عن سيطرة الطائفة الحاكمة على الجموع الكبيرة. ( فالقانون الأسود وقوانين فيشي، التي تغتني كلها بالمسيحية، تشهد على الأمر لمن يزال متشككا )

لنفصل أكثر: لقد كان القانون منذ سنة ٣٨٠ يجرم غير المسيحيين بالسفالة، وقل إنه يعطي بذلك الشرعية لإلغاء حقوقهم المدنية ومن ثم إلغاء إمكان

مشاركتهم في حياة المدينة: من تعليم وقضاء، على سبيل المثال. فكان الحكم بالإعدام يصدر على كل فرد تهجم على شخوص خدام المسيحية، أو على أموالهم وأماكن عبادتهم؛ في الوقت الذي كان المسيحيون يحطمون المعابد الوثنية ويصادرونها وينهبونها ويتلفون أثاثاتها في إطار شرعي، بما أن نصوص القانون تسمح بذلك..

إن تحريم ممارسة الشعائر الوثنية كانت تزاوجه حرب لا هوادة فيها ضد أصناف الزندقة، المعرَّفة بكونها ما لا يتوافق مع المراسيم والأوامر الإمبراطورية. فكانت الاجتماعات ممنوعة وكذلك مذهب ثنائية العالم بطبيعة الحال؛ وكان اليهود موضوع اضطهاد، مثلما كان يضطهد السحر والانحلال الأخلاقي. وكان القانون يدعو للوشاية ويحرم الزواج بين اليهود والمسيحيين.. ويرخص مصادرة أملاك غير المسيحيين. لقد رسم بولس الطريق باكرا لهذا الأمر، إذ أقر حكم الحرق بحق كتب، قيل إنها كتب سحر، من خلال حضوره تنفيذه. إن كتاب «**أعمال الحواريين**» يعلمنا هذا (١٩؛ ١).

ومشيا على منهج أم قسطنطين، كانت المعابد المهدمة تخلي مكانها لكنائس كاثوليكية. فكانت تختفي تحت النيران، هنا وهناك، معابد يهودية ومحارب عرفانية، وتحطم التماثيل الثمينة وتكسر لتدخل أجزاؤها ضمن مواد بناء عمارات مسيحية؛ وتنهب أماكن العبادة إلى حد أن أنقاضها استخدمت يوما ما في إعادة فرش السبل بالحصى، وفي تشييد الطرقات والجسور. هذا فقط للحديث عن مدى حجم الضرر.. وفي القسطنطينية، كان معبد أفروديت يستخدم مرآبا لعربات الخيول؛ فيما تم انتزاع الأشجار المقدسة.

هناك نص يعود لسنة ٣٥٦ (١٩ فبراير) يقضي بالحكم بالإعدام على من اقتنع بعبادة الأوثان أو مارس طقوس القربان. فكيف الانبهار من حالات موت

الناس؟ هناك مشاهد تعذيب تمت الإشارة إليها في مدن «ديديم» و«أنتيوك»، إذ قام فيها مسيحيون بالاستيلاء على نبي من أنبياء الإله أبولون، من أجل إخضاعه للسؤال. وفي سيتوبوليس بفلسطين، قام ديميتيوس ميدوستوس بإدارة تحقيقات استنطاقية لأكبر شخصيات الأوساط السياسية والفكرية في مدن «أنتيوك» و«الإسكندرية». وقد كان الجزار المسيحي يروم إلى أن لا يبقى أي من المثقفين حيا؛ فهلك، في إطار حملة القمع الشرسة هذه، عدد من الفلاسفة الأفلاطونيين المحدثين. ويبرر جان كريزوتوم، في كتابه «عظة بشأن التماثيل»، العنف الجسدي، إذ يكتب بصراحة لا غموض فيها أن «المسيحيين هم المستأمَنُون على النظام العام».

وفي الإسكندرية، قام مسيحيون سنة ٣٨٩ بمهاجمة معبد سيرابيس ومعبد ميترا؛ وقد كانوا يستعرضون أصنام الوثنيين ويسخرون منها علنا. مما جعل المؤمنين يثورون ـ خاصة الفلاسفة منهم، تقول النصوص. . لتندلع بعدها فتنة يسقط خلالها عدد مهم من القتلى في هذا الجانب وذاك. وفي سوفس بأفريقيا الشمالية، قام رهبان، في بداية القرن الخامس، بالتصرف بنفس الطريقة مع تمثال لهرقل إله المدينة: فكان هناك ستون قتيلا. . بينما كانت هناك عصابات من الرهبان تنهب الأماكن المقدسة فوق الجبل الفينيقي وقد شجعهم على ذلك جان كريزوتوم المذكور أعلاه. إن دعوة بولس إلى احتقار الثقافة والمعرفة والكتب والذكاء، والاكتفاء بالإيمان، تجد مرادها هنا. .

## [٥]

## الهمجية وأحكام التفتيش وثقافة الموت

يؤكد المسيحيون خلف بولس أن الثقافة تحول دون الوصول إلى الله. فهذا هو أصل المحارق. ويوجد بطبيعة الحال كل الكتّاب في موضع المشتبه في

زندقتهم، و«أريبس» على رأسهم، و«ماني» أيضا وأتباع «نيستور» كذلك؛ بل وتضاف إلى أعمالهم كتب الأفلاطونية المحدثة، وكتب النبوءات، المسماة كتب السحر، كما يرجح أن يدخل ضمن هذا كل نسخ الكتب التي احتوتها خزانات أصحابها والذين كان يروعهم الاضطهاد والأخطار المحدقة، فكانوا ـ كما حصل في مدينة «أنتيوك» سنة ٣٧٠ ـ يتقدمون نحو عمداء شرطة الشعب المسيحي، ويقومون بحرق كتبهم بأنفسهم. وأعطى أسقف الإسكندرية، في سنة ٣٩١، الأمر بتدمير خزانة «السيرابيون» ـ فصارت دخانا تلاشى في السماء..

كما تم إغلاق المدرسة الأفلاطونية المحدثة في أثينا سنة ٥٢٩، وتمت مصادرة ممتلكاتها من قبل الإمبراطورية المسيحية. فقد استمرت الوثنية في العاصمة الإغريقية منذ قرون، وكان بإمكان التعليم الأفلاطوني أن يبرز تفوقه نظرا لعشر قرون من التناقل المستمر؛ فشد الفلاسفة الرحال إلى المنفى ورحلوا إلى بلاد فارس. يعتبر ذلك نصرا لـ بولس الذي سخر منه قديما الرواقيون والأبيقوريون في مدينة الفلسفة عندما حاول نشر رسالة الانجيل بينهم. إنه نجاح بعد الوفاة لـ «جهيض الرب» ونجاح لعصابه الكارثي! ثقافة الموت وثقافة الكره وثقافة الاحتقار والتعصب.. سنة ٥٦٢ أوقف المسيحيون في القسطنطينية بعض «الهيلينيين» ـ وهو نعت تحقيري لأتباع الحضارة الإغريقية ـ، وسحبوهم داخل المدينة مستهزئين منهم؛ وأوقدت في ساحة «كينيجيوم» نار جمر هائل قذفت داخلها كتبهم وصورهم وآلهتهم.

ويقوم «جيستنيان» بغرز الإبرة أعمق من ذلك، فقام بتشديد التشريع المسيحي ضد البدعة، إذ تم تحريم الإرث على غير المسيحيين ونقل الأموال إلى الوثنيين؛ ومنعت شهادتهم أمام القضاء ضد أتباع الكنيسة، واستعبادهم

للمسيحيين، وإنجازهم لعقود قانونية؛ كما تم تحريم حرية الاعتقاد في سنة ٥٢٩؛ وفرض تعلم الدين المسيحي على الوثنيين، ثم التعميد تحت طائلة النفي أو مصادرة الأملاك؛ وحظرت العودة للوثنية على من اهتدى منهم إلى ديانة المحبة؛ ومنع عليهم الاشتغال بالتعليم والحصول على منح عمومية. صار التفلسف محفوفا بالمخاطر لمدة طالت الألف عام على الأقل. . فكشف الحكم باسم الله (الثيوقراطية ) عن ذاته آنذاك ـ كما في العصور التي تلت ـ : أنه النقيض الأدق للديمقراطية.

# الجزء الرابع

# الثيوقراطية: الحكم باسم اللَّه



# I
# نظرية صغيرة عن الاجتزاء

## [١]

### الحصانة التاريخية

يعلم الجميع بوجود ثلاثة كتب توحيدية؛ لكن قليلين هم من يعلمون بتواريخها وبمؤلفيها وبمغامرات إرساء نصوصها: أي التحرير النهائي والتدقيق بالمتن الذي لا يقبل المساس به. ذلك أن التوراة ـ العهد القديم ـ والإنجيل ـ العهد الجديد ـ والقرآن قد احتاجت وقتا كبيرا قبل أن تغادر التاريخ وتعطي الانطباع بأنها صدرت فقط عن الله، وبأنها ليست ملزمة بتقديم تفسيرات إلا لمن يدخلون هذه المعابد الورقية، مزودين فقط بإيمانهم دون عقولهم وذكائهم.

قصة طريفة: إن البحث عن تاريخ ميلاد لكل النصوص التي تشكل الكتب المقدسة في مكتبة متخصصة بتاريخ الأديان تطرح مشاكل هائلة. كما لو أن المؤرخين ـ وهم رجال العقل ـ يبدون غير آبهين بشروط إنتاج هذه النصوص التي تعتبر مع ذلك ضرورية من أجل مقاربتها وإدراك محتوياتها. ماذا عن «سفر التكوين» مثلا؟ أي كتاب عاصر، وأي كاتب؟ أملحمة

«غلغميش» أم «الإلياذة»؟ أكتاب «ثيوغونيا» هيزيود، أم «أوبانيشاد كونفوشيوس»، أم «محاوراته»؟

إن المرء يدخل إلى هذا النص التدشيني للتوراة والعهد القديم والإنجيل، دون أن تكون له دراية كبيرة بشأنه ودون وعي منه بنقصان ثقافته بخصوص الموضوع. فهذه الصفحات تستفيد، مثل نظيراتها، من حصانة تاريخية. وتعطي هذه الغرابة المنهجية الحق للتقاة الورعين الذين يؤكدون أنه ليس لهذه النصوص مؤلفون بشر وأن ليس لها تاريخ ميلاد مرقم، وأنها قد نزلت يوما ما من السماء بطريقة معجزة، إذ تم إملاؤها على إنسان ألهمته الروح الإلهية التي لا يبلغها الزمن ولا الجو وتسلم من كل توالد وفساد. سر خفي!

لقد حرمت طبقة الكهنوت القراءة المباشرة للنصوص على مدى قرون؛ ذلك أنها كانت تقدِّر أن مساءلتها التاريخية تعتبر بشرية ومفرطة في بشريتها. ونحن لا نزال نعيش في يومنا هذا نوعا ما تحت هذا النفوذ. بالحدس يعرف خدام الديانات أن الاتصال المباشر والقراءة الذكية والممتلئة بالتفكير السليم ستقلق غياب تناسق هذه النصوص، التي كتبها عدد كبير من الأشخاص بعد قرون طويلة من التقاليد الشفوية، وعلى مدى فترة تاريخية تمتد طويلا؛ كما أن كل ذلك نقله آلاف المرات ناسخون قليلا ما يدققون وأغبياء، بل ومن بينهم مزيفون فعلا مع سبق الإصرار. فمع توقف معاملتها على أنها أشياء مقدسة، سيتوقف الاعتقاد بقداستها. وهنا تكمن أهمية قراءتها بحق، أي بقلم في اليد.

[٢]

## ورشة عمرها سبعة وعشرون قرنا

حتى حين ننتهي إلى هذه المعلومات تستمر المفاجأة. إن طبعة (إيميل أوستي وجوزيف ترانكي) للإنجيل تعرض جسامة هذه المفاجأة؛ فهي تضع

إطار نشوئه بين القرنين الثاني عشر والثاني، قبل الميلاد؛ أي بين آخر كتب الحكمة المصرية ـ الناسخ آني على سبيل المثال ـ والأكاديمية الجديدة لكارنياد. كما يقدم جان سولير ـ وهو مكسِّر بارع للأساطير ـ مفاجأته حين يضعه بين القرنين الخامس والأول، قبل التاريخ المشترك؛ أي بين سقراط ولوقريس؛ لكن بعض المفكرين يقلصون المدة أكثر، ويرون إطار تبلوره بين القرنين الثالث والثاني، قبل الميلاد...

هناك حوالي ١٠ قرون من الفرق عن تاريخ ميلاد أول كتاب من الإنجيل! يكون من الصعب إذاً التفكير كمؤرخ وإنجاز عمل يضع الأمور في السياقات الاجتماعية والسياسية والفلسفية. إن عملية المسح، المتعمدة وغير المتعمدة، لآثار وعلامات البعد التاريخي وإخفاء البنية الهيكلية، كان لها الأثر الكبير: لا يُعلم من هم منتجو هذه الكتب ولا ما هي الظروف السببية الملازمة التي جعلتها ممكنة. فغدا الطريق مفتوحا بالتالي لروايات وحبكات أتباع فكرة المصدر الإلهي!

عدم الدقة نفسها يطبع العهد الجديد؛ فالقدماء يؤرخون له بنصف قرن بعد الحياة المفترضة لعيسى. وعلى أي حال، فإن أيا من الإنجيليين الأربعة لم يعرف المسيح واقعا وجسدا؛ وفي أحسن الحالات تكون معلوماتهم مستقاة من الحكاية الأسطورية والخرافية المنقولة شفاهة، قبل أن تكتب في يوم من الأيام بين السنوات الخمسين من التاريخ المشترك ـ رسائل بولس ـ ونهاية القرن الأول ـ سفر الرؤيا. ومع ذلك لم توجد أي نسخة من الأناجيل قبل نهاية القرن الثاني وبداية الثالث.

وبما أنها أناجيل مرقص ولوقا ومتى وو و... وبما أننا في هذه الفترة، فلا بد لهذه النصوص أن تؤرخ بهذه السنة أو تلك وإن كانت الوثيقة الأقدم متأخرة

جدا ومعاصرة لما يسميه البعض «صناعة» المسيحية، أي خلال عقود القرن الثاني الشهيرة. سيقوم مجمع الثلاثين سنة ٥٤٦ بحسم الأمر، مقررا المتن النهائي انطلاقا من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس التي تم إنجازها اعتمادا على النص العبري المترجم بين القرنين الرابع والخامس من طرف المدعو جيروم، الذي كانت تنقصه النزاهة الفكرية كثيرا..

لقد شيد اليهود متن نصوصهم بنفس البطء وعلى فترة لا تقل امتدادا. وإذا كانت بعض نصوص التوراة تبدو راجعة لتاريخ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فقد كان من اللازم انتظار تهديم هيكل أورشليم، حوالي سنة مائة بعد الميلاد، حتى يثبت الحاخامات المنافقون تفاصيل الكتاب العبراني المقدس. وقد كان «أيبقتيت»، في نفس الفترة، يحيا حياة رواقية نموذجية في روما الإمبراطورية....

كما قاموا في بداية القرن الثالث برسم تعاليم التوراة (ميشنا) مخططة بعناية فوق ملفوفات. كان «ديوجين لايرس» في نفس الوقت يختار وثائقه، ويتهيأ لتحرير كتاب «سير وآراء وحكم الفلاسفة البارزين». وحوالي سنة ٥٠٠، قام حاخامات مهاجرون من فلسطين بإتمام تلمود بابل، وهو شرح لـ «ملفوفات تعاليم التوراة (ميشنا)». وألف بويبص في ذات الفترة كتابه «سلوى الفلسفة». وكان لابد من انتظار سنة ألف حتى نرى نص الإنجيل العبراني مثبتا بصفة نهائية؛ أي في الوقت الذي كان فيه ابن سينا في خلوته يحاول التوفيق بين الفلسفة والإسلام..

وهي كذلك الفترة ذاتها التي أرسى فيه بعض المسلمين النص النهائي اعتمادا على حفنة من القرآنات ـ يجب التأكيد على الجمع ـ : لأن الأمر كان يتطلب الاختيار بين روايات والمقارنة بين لهجات والاشتغال على الرسم والخط

والتدقيق الإملائي والتمييز بين الآيات المنسوخة والناسخة، بغية تجنب تناقض صارخ. لقد كان مشروعا حقيقيا لضبط العيار النصي حقا، لكنه كان أيضا ضبطا للعيار الأيديولوجي. إن الزمن يصنع الوثائق؛ ويبقى علينا كتابة تاريخ هذه الصناعة بعناية دقيقة.

استنتاج: إذا ما وضعنا عند منبع النهر أقدم تعيين تاريخي (القرن الثاني عشر ق. م) لأقدم كتب العهد القديم، ثم وضعنا عند مصبه التثبيت لمتن العهد الجديد، في محفل الثلاثين (القرن الرابع عشر ميلادي)، تكون ورشة العقيدة التوحيدية قد امتدت على مدى سبع وعشرين قرنا من التاريخ الكثير الحركة. وبخصوص كتب أملاها الله مباشرة لمخلصيه، تعد المناسبات البينية بالعشرات؛ وهي تستدعي وتستحق، على الأقل، عملا حفريا أركيولوجيا حقيقيا.

[٣]

## ليس للتوحيد إلا ما أنتج

ما الذي نحصل عليه من هذا المسح التاريخي المدوخ؟ لا شيء ولا حتى تاريخ ميلاد المذهب التوحيدي... فبعضهم يضعه في القرن الثالث عشر، بينما يحدده «جان صولر» بين القرنين الرابع والثالث، أي في وقت متأخر كثيرا. يبقى الغموض مستمرا هنا أيضا. لكن النوايا الجينيالوجية تبدو بينة: فقد ابتكر اليهود التوحيد ـ مستلهمين ذلك من طقوس عبادة الشمس المصرية ـ بهدف جعل تماسك شعبهم، الصغير والمهدد، وترابطه ووجوده ممكنا. فقد مكنت أساطيرهم المصنوعة بعنايتهم من خلق إله مقاتل ومحارب ودموي وعدواني وزعيم حرب يفيد جدا لتجنيد قوة الناس الذين لا أرض لهم. فأسطورة الشعب المختار تؤسس جوهر وجود أمة اختصت منذ ذلك الوقت بقدر مميز.

ما تزال من هذا الابتكار بضعة آلاف من النصوص الرئيسة؛ وهي بالنهاية قليلة بالنظر إلى تأثيراتها على العالم بأسره منذ ما يفوق العشرين قرنا. واعتبارا لطبعة مثل طبعتنا ـ مع التذكير أن طبعة «لابلياد» الشهيرة اختارت إيديولوجيا لهذه الكتب تجليدا رماديا يخصص للنصوص المقدسة ولم تختر التجليد الأخضر المخصص للنصوص القديمة ـ، فإن العهد القديم يعطي إجمالا ٣٥٠٠ صفحة والعهد الجديد ٩٠٠، والقرآن ٧٠٠ صفحة؛ أي ما يربو بقليل عن ٥٠٠٠ صفحة قيل فيها كل شيء وعكس كل شيء. . .

تكثر التناقضات في كل كتاب من الكتب الثلاثة: فيقول الكتاب شيء وتجد مباشرة ما يقابله عكسا؛ وتجد رأيا يُنتصر له هنا وينتصر لنقيضه هناك؛ وتكون قيمة مفروضة هنا لتصادف بعد ذلك دعوة إلى عكسها. لم ينفع في ذلك الاشتغال على التثبيت النهائي، وعلى بناء متن متماسك ولا حتى قرار الإقرار الرسمي بثلاثة أناجيل اعتبارا لإمكان قراءة أحدها بالتوافق مع الأخرى. يمكن لليهودي والمسيحي والمسلم أن يغترفوا من التوراة ومن الأناجيل أو القرآن وفق ما يتمنون، وسيجدون وفق حاجتهم ما يبررون به الأبيض والأسود، والليل والنهار، والفضيلة والرذيلة.

زعيم الحرب يبحث عن آية تبرر عمله؟ فيجد كميات لا تصدق من الآيات. وبالمقابل، يمكن كذلك لمحب سلام، الذي يكره الحرب والمصمم على انتصار رأيه، أن يلوح بجملة وباستشهاد وبمقولة مناقضة! فهذا يغترف من النص لتبرير حرب الإبادة الشاملة؟ النصوص والكتب متوافرة لذلك. وذاك يدعو للسلام العالمي؟ يجد أيضا أمثالا وحكما لائقة به. ويبرر المعادي للسامية حقده الهستيري؟ ويريد أحد المؤمنين تأصيل احتقاره للفلسطينيين حاملا الكتاب المقدس بيده؟ ويريد كاره للنساء إثبات دونية المرأة؟ فهنا النصوص متوافرة وتسمح بهذا كله. . لكن مقولة مجتزئة من هذا الخليط ترخص أيضا

باستنتاج العكس. ونفس الشيء لمن يرغب بالتخلص من تأنيب الضمير، من خلال تبرير الكره والقتل والاحتقار... فهنالك ما يكفي لإعطاء الشرعية للخسة والحقارة، كما للتبشير والدعوة إلى محبة دائمة للجار.

هنالك الكثير من الصفحات المكتوبة على مدى سنوات كثيرة، ومن قبل كثير من الناس المجهولين، التي بها الكثير من التكرار ومن التغيير والكثير من المصادر ومن المواد: ففي غياب مصدر وحي واحد ـ الله ـ، يفترض في الكتب الثلاثة كثير من الكتبة والوسطاء والنقلة. وليس من بين هذه الكتب ما هو متماسك ومتجانس وموحد الصوت. فلنستنتج إذن غياب التماسك واختلاف العناصر، وتعدد الأصوات في تعاليمها. أن تقرأ الكتاب بانتباه، وتشرع من البداية وأنت تروم النهاية، معتمدا الطريق المعين، تلك طريقة بسيطة، لكنها قلما تمارس.

فمن قرأ حقا مجمل كتاب ديانته حرفيا؟ ومن عمل بعدما قرأه على تشغيل عقله وذاكرته وذكائه وفكره النقدي بخصوص تفاصيل ومجمل ما قرأ؟ فالقراءة لا تقتضي تمرير الصفحات بين الأصابع، وترتيلها على طريقة الدرويش الذي يدور، ولا تقتضي الاطلاع عليها كأنها قائمة مفهرسة، أو، بين الفينة والأخرى، اقتطاع صفحة هنا وهناك لتفيد قضية من القضايا؛ بل هي تقتضي التأمل بالكل. فمن خلال ممارسة الأمر هكذا، نكتشف عالما يبدو غير محتمل الوجود بطريقة لا تصدق، ونجد نسيجا من الاختلافات داخل هذه الكتب الثلاثة التي بنت إمبراطوريات، ودولا، وأمما وتاريخا إنسانيا، منذ أكثر من ألفي عام.

[٤]

### منطق الاجتزاء

داخل ورشة التنقيب ذات الهواء الطلق هذه، يسود ملك اسمه: الاجتزاء. وبما أن كل كتاب من هذه الكتب يقدم نفسه على أنه من إملاء الله، فإنه لا

يمكن إلا أن يكون كاملا ومطلقا ونهائيا. إن الله يتقن استخدام العقل ومبدأ عدم التناقض وجدلية النتائج والسببية المنطقية، وإلا فإنه ليس هو. فإذا كان الكل كاملا، فأجزاؤه المكونة تكون كاملة هي كذلك. وبالتالي فكلية الكتاب تخضع لكمال اللحظات التي تؤسس بناءه: الكتاب حق، وبالتالي كل فقرة من فقراته تكون كذلك، وكذا أي جملة مجتزأة.

اعتمادا على هذا المبدأ، يتم شرح الروح السامية انطلاقا من الحرف ـ والعكس بالعكس. فماذا عن اجتزاء يقول العكس؟ صحيح، لكن هناك اجتزاء ثالث يعبر عن عكس العكس. كما يتم كذلك إخراج عبارة أخرى عن سياقها، وهي تحمل عكس العكس، لتعيد تثبيت المقولة الأولى. إن لعبة تبرير الأطروحة من خلال استعمال استشهاد مقتطف من النص ومقتطع من سياقه، تسمح لكل واحد باستعمال النصوص المسماة مقدسة لصالح قضيته: فقد برر هتلر عمله تمجيدا لعيسى، الذي طرد التجار من معبده؛ في الوقت الذي يبرر مارثن لوثر كينغ مبدأ اللاعنف من خلال استشهاده بالأناجيل هو أيضا. . تستند دولة إسرائيل إلى التوراة لتبرير احتلالها لفلسطين، ويستشهد الفلسطينيون بالقرآن لطردهم منها من خلال القتل والاغتيال. وهنا تكفي أصناف السفسطة والمهارة الجدلية المراوغة، ومتعة المحاجة، لمباركة الرذيلة والرمي بالفضيلة نحو القذارة.

مثال يهودي: كلنا يعرف قصة تدخل الإله يهوا شخصيا فوق الجبل ووسط النار وفي السحاب، محاطا بهالة متلونة ليوصي موسى بصوت قوي ـ إذ لا يمكن تصوره رقيقا وقليل الثبات ـ من خلال الوصايا العشر. نجد على القائمة الوصية الخامسة تقول: «لا تقتل». لن نجد أبسط من مثل هذا المثال: مخاطبة مباشرة تحمل أمرا بعبارة نفي. إن الله بسيط العبارة. فهذه الجملة مثال مدرسي

لدرس الإعراب بالمرحلة الابتدائية، وهي عبارة مفهومة بوضوح حتى لمن كان ذكاؤه ناقصا: تحريم لممارسة القتل وتحريم لحرمان شخص من الحياة؛ وهو مبدأ مطلق لا يقبل المس، ولا يحتمل أدنى تعديل، ولا أي إعفاء واستثناء. إن الأمر قد صدر وفُهِم.

إن اجتزاء هذه الكلمات من الوصايا العشر تكفي لتحديد أخلاق عامة: لا عنف بل سلام ومحبة وغفران ولطف وتسامح؛ ذلك برنامج مكتمل يستبعد الحرب والعنف والعساكر وحكم الموت والقتال والحروب الصليبية ومحاكم التفتيش والاستعمار والقنبلة الذرية والاغتيال؛ ويستعبد كل الأمور التي يمارسها مع ذلك أتباع الكتاب المقدس منذ قرون، دون استحياء وباسم نفس كتابهم الملهم. فلماذا إذن هذا الضلال الظاهر؟

إنه ظاهر، لأننا نجد في نفس «السفر الخامس» وليس بعيدا عما سبق كثيرا، حفنة من الآيات يتدخل فيها يهوا ليبرر قيام اليهود بإبادة عدد من الشعوب ذكرت صراحة في التوراة: الهيتي - آسيا الصغرى - والآموريين والبيريزيين والكنعانيين والقرقاشيين والهويين والجيبوزيين، أي ما لا يقل عن سبعة شعوب كان عدد كبير منها يشكل فلسطين آنذاك. فتجاه هذه الشعوب، سمح يهوا بالطرد من الرحمة وبالعنصرية - تحريم الزواج المختلط -، وحرم العقود ورفض الرحمة ودعا إلى تحطيم هياكل عبادتهم وصروحهم وأعطى الشرعية لأحكام الموت والحرق بحقهم. ما السبب في ذلك؟ الجواب: إن اليهود هم شعب الله المختار (السفر الخامس؛ ٧؛ ٦) ضد كل الشعوب الأخرى وبالرغم منها.

فنجد من جهة «لا تقتل» ومن ناحية ثانية تتلو ذلك في «السفر الخامس» مفردات: ضرب وقتل وإبادة وحرق واستيلاء وغيرها من المصطلحات التي

تنتمي لحقل الحرب الشاملة. يبرر يهوا قتل كل شيء حي، من بشر ودواب ونساء وأطفال وحمير وأبقار؛ فكل شيء يجب أن يعرف حد السيف، يقول النص. إن فتح بلاد كنعان واحتلال أريحا، كان ثمنه الحياة كلها، فقد أحرقت المدينة؛ لكن الذهب والفضة أفلت من عقاب الجماعة، وتم تخصيصه ليهوا، تمجيدا لجلاله وكرمه وتواطئه في ما يحسن تسميته «بأول حرب تطهير عرقي» : إبادة شعب بأكمله.

ما الذي يجب استنتاجه من ذلك؟ وهل لنا أن نرى في هذا تناقضا نهائيا؟ أم أن علينا أن نقرأ الأمور بحذق أكبر، متجنبين السبل المطروقة التي اعتاد الناس سلوكها لمقاربة هذا الموضوع؟ ذلك أن الأمر بعدم القتل يمكن أن يبدو متوافقا مع إعطاء الشرعية لعملية إبادة شعب من الشعوب. كان **ليون تروتسكي** في زمانه قد صاغ الحل من خلال تأليف ـ لأسباب وظروف مختلفة ـ كتاب سماه: **«أخلاقهم وأخلاقنا»**. أخلاق القتال: عالم أخلاق للبعض، وقانون مختلف للبعض الآخر.

افتراض: تعتبر الوصايا العشر دعوة محلية وطائفية وقومية. المفهوم ضمنا: **«أنت أيها اليهودي، لا تقتل اليهود»**. يكون للوصية وظيفة عمرانية تروم أن تحيي الطائفة وتبقيها؛ وبالمقابل دعوة لقتل الآخرين من غير اليهود ـ الأغيار ـ، فالكلمة تشير إلى عالمين لا يلتقيان ـ فهذا الجرم لا يعتبر قتلا بحق، أو على الأقل فهو ليس جزءا مما ذكر في الوصايا العشر. فأمر منع حرمان الإنسان من الحياة يكف على أن يكون جازما، ويصير افتراضيا؛ وهو لا يؤسس لما هو عام، بل يصون ما هو خاص. إن يهوا يخاطب شعبه المختار، ولا يعير أدنى اعتبار للآخرين. لقد ابتكرت التوراة عدم المساواة الأخلاقية والوجودية والميتافيزيقية بين الأعراق.

[٥]

## السوط والخد الأيسر

سيكون مثال هذه المرة على التناقضات الممكنة والاستدلالات الزائفة مسيحيا؛ فالأناجيل الأربعة تعطي الانطباع بأنها لا تمجد إلا اللطف والسلام والمحبة، ويشع فيها عيسى كوجه يغفر للمذنبين ويلمع بكلام المواساة للمرضى والمكلومين، ويمتدح بسطاء الفكر وما إلى ذلك من تنويعات التفكير الأحساني. تلك هي ترسانة المخلص التي تتم حكايتها للأطفال الصغار واستعراضها يوم الأحد من خلال العظة الموجهة للأسر.

فها هي مقاطع مختارة لتبيين وجه هذه الشخصية: **أمثولة الخد الأيسر**؛ كلنا نعرفها. يحكيها متى في إنجيله ويقتبسها منه لوقا: يعلمنا عيسى أنه لا يلغي **العهد القديم**، بل يكمله. ويقترح، بخصوص القصاص، ما يعتبر تكميلا: أي التجاوز؛ إذ يجعل في مقابل ممارسة العين بالعين، والسن بالسن، نظرية جديدة: **إذا ضربك أحد على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر** (وهو ما يرجح أن تلقى ضربة أخرى..)

وهنا أيضا، مثلما كان الأمر مع الوصية الموسوية الخامسة، ليس في الدعوة أي تعديل؛ كما لا يمكن المراوغة وتدوير الأمثولة في كل اتجاه لتبرير رد الضربة جوابا على الإساءة. تكون هناك ضربة يتلقاها المسيحي فيجيبها بهذا التنازل الذي ينزع طعم الأمور. قد نفهم أن الإمبراطورية الرومانية قد بنت رفاهيتها من خلال الشهداء المسيحيين المبعوثين إلى خندق الأسود! فهذه العقيدة، حين تجد أمامها غبيا مصمما، فهي توجهه نحو القتال والمجزرة. فالمهاتما غاندي وأتباعه المستلقون على سكك القطار قد يكونون استلهموا روح الأناجيل، ما داموا ليسوا أمام زعيم سرية نازية يفترض أن يرفع عنهم سريعا استعمال خدودهم...

لكن الأناجيل تتضمن أمثولة ثانية وهي قصة تقرها كذلك السلطات المسيحية، لأنها تدخل ضمن الشرائع الكنسية: قصة تجار المعبد؛ وهي قصة ترتبط بعيسى ذاته، ومن خلالها يصعب علينا الاستنتاج بأن قصة الخد الأيسر تشكل جزءا من تعاليمه في الوقت الذي يصدر هيجانه وغضبه وعنفه ـ تحويل الحبال إلى سياط (يوحنا ٢؛ ١٤) ـ عن شخصية مأمورة وعن حواري وممثل صامت داخل النص. فنفسه عيسى الذي يرفض رد الصاع بالصاع، يقوم بطرد التجار ـ المتورطين ببيع الأبقار والنعاج والحمام وتحويل النقود إلى متاجرهم؛ يطردهم عنفا من المعبد. لطيف عيسى؟ ويقال إنه مسالم؟ ومتسامح؟.

جوابا على المؤمنين الذين قد يجدون هذه اللحظة غير كافية لإبطال صورة المسيح المسالم، سنذكّرهم بنصوص أخرى من العهد الجديد لا يتصرف فيها بطلهم كرجل غاية في التهذيب... فهو حين يلقن اللعنات السبع ضد المرائين والكتبة المنافقين (لوقا ٩؛ ٤٢ ـ ٥٢) وحين ينذر بجهنم من لا يؤمنون به (لوقا١٠؛ ١٥ و١٢؛ ١٠) وحين يذم مدن شمال بحيرة جينزاريت المذنبة بعدم التوبة، وحين يبشر بخراب أورشليم وبتهديم المعبد (مرقص ١٣) وحين يعلن أن من ليس معه فهو ضده (لوقا ١١؛ ٢٣)، وحين يعلّم الناس بأنه لم يأت من أجل السلام بل من أجل السيف (متى ١٨؛ ٣٤)؛ وهنا وهناك....

[٦]

## هتلر تلميذ القديس يوحنا

بفضل نظرية الاجتزاء الشهيرة تلك، يمتدح هتلر كثيرا هذه الأمثولة عن تجار المعبد المستخرجة من الإنجيل، بحسب القديس يوحنا. وسأوضح لاحقا كم كان هتلر وهو المسيحي الذي لم يرتد عن إيمانه أبدا، ويمجد الكنيسة الكاثوليكية الرسولية الرومانية؛ وكم امتدح تفوق فنها في صنع الحضارة؛ وكيف

تنبأ باستمرارها خلال القرون اللاحقة. وسأبدأ باستنتاج إشارته صراحة في كتاب **«كفاحي»** إلى السياط وبالتالي إلى فقرة **إنجيل يوحنا** (٢؛ ١٤) المذكورة أعلاه. وقد كان الوحيد الذي قدم هذا التفصيل ليبرز عن أي مسيحية يدافع: **تلك «المسيحية الحق» في «إيمانها اليقيني»**، بحسب تعبيره في الكتاب.

كما يمكن للمسيحي الذي لا ينكر زمني الإنجيل الاثنين أن يغترف، هو أيضا، من **سفر الخروج التوراتي** (٢١؛ ٢٣) إذا أراد اللجوء إلى قانون القصاص بالمثل. فهو تفصيلا يدعو إلى مقابلة العين بالعين، والسن بالسن، وهذا معروف، لكن وكذلك اليد باليد، والقدم بالقدم، والحرق بالحرق، والجرح بالجرح، والخدش بالخدش. لقد رأينا فعلا أن **عيسى** يعرض الخد الأيسر كإتمام بديل لهذه الصيغة القبلية. لكننا إذا نسخنا هذه الأمثولة الإنجيلية بأمثولة القصاص بالمثل في «العهد القديم»، سنؤكد من خلال لحظة تجار المعبد في «العهد الجديد» أن الأسوأ يكون مبررا دونما صعوبة. ويمكن من خلال التسلح بهكذا سفسطات تبرير **«ليلة البلور الهتلرية»** على أنها قصة طرد حديث لتجار المعبد ـ لنذكر أن **عيسى** آخذهم على ممارسة التجارة ومقايضة النقود في داخله... واستمرارا في هذا الحجاج الهستيري، يصير الحل النهائي هو الجواب بشكل قصاص على التوهم النازي بتغلغل النفوذ اليهودي العرقي والبولشفي في أوروبا... وللأسف، فقد مكن السوط، المأخوذ استعارة، ذلك المجادل والخطيب المصمم، من إيجاد الشرعية لأفران الغاز. وبالمناسبة، فقد استسلم البابا **«بيوس الثاني عشر»** PIE ـ ١٢ ومعه الكنيسة الكاثوليكية، لسحر تلك الغوايات الهتلرية منذ الساعات الأولى، وربما لا يزال كذلك حتى يومنا هذا إذا ما اعتبرنا أن عجز الفاتيكان عن الاعتراف بخطأ دعمه للنازية هو اعتراف بالتعاون معها. سنعود للمسألة لاحقا..

[٧]

## اللّه ليس موهوبا في المنطق

كان هتلر ـ المدعو أبو علي عربيا ـ يحب كثيرا الدين الإسلامي باعتباره دينا رجوليا ومقاتلا ومتوسعا وعسكريا في جوهره. وقد رد له كثير من المؤمنين المسلمين هذه المجاملة تجاه دينهم: كان منهم مفتي القدس الأكبر، وكذلك المناضلون المعادون الأبديون للسامية وللصهيونية الذين أعادوا استخدام قدامى النازيين، بعد الحرب، في المراكز الأسمى داخل قيادات أركان الجيش وكذا المخابرات لدول الشرق الأدنى، والذين يحمون كذلك ويتسترون ويصونون فوق أراضيهم العديد من مجرمي الحرب التابعين لنظام الرايخ الثالث ـ سوريا ومصر والعربية السعودية وفلسطين. وهذا دون الحديث عن العدد الهائل لحالات اعتناق دين القرآن بين قدامى الموظفين السامين للرايخ.

لنواصل، بعد تحليل العهدين القديم والجديد، تمحيص ما يمكن من التناقضات والأخطاء والاقتطاعات الممكنة لتبرير الأسوأ. فالتحريم اليهودي للقتل ومعه التهليل المتزامن للهولوكوست؛ ومبدأ محبة القريب في المسيحية وفي نفس الوقت إعطاء الشرعية لعنف الغضب الذي يزعم أنه من إملاء الله، هما مشكلتان مختصتان بالكتابين المقدسين الأولين. وينطبق الأمر نفسه على الكتاب التوحيدي الثالث ـ القرآن ـ الذي يمتلئ هو كذلك بإمكانيات هائلة في هذا المنحى.

لنأخذ مثالا إسلاميا إذن: هناك آية ينقصها كثير من التبصر تؤكد صدور القرآن عن الله مباشرة (سورة النساء؛ ٨٢). ما الدليل؟ غياب الاختلاف فيه... مع الأسف! لن تحتاج إلى وقت كثير لتلحظ أنه يغتني بالاختلاف على طول صفحاته. ويتحدث القرآن عن نفسه لأكثر من مرة وهو يستمتع بوجوده:

فهو كتاب مفصل، (سورة الأنعام؛ ١١٤) ـ مثل سبينوزا ـ، بآيات بينات (سورة الحج؛ ١٦) ـ مثل إحدى عبارات ديكارت ـ، وغير ذي عوج (سورةالزمر؛ ٢٨) ـ على طريقة صفحة من صفحات برغسون. . إلا أن الكتاب يعج بالمقولات المتناقضة؛ يكفي أن ينحني تفكير المرء ليلتقطها.

يتضمن القرآن ١٢٤[1] سورة تبتدئ كلها ـ باستثناء السورة التاسعة ـ بتكرار الآية الأولى للسورة الأولى؛ العبارة الاستهلالية للكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم». وإثباتا لذلك، يعرض التراث الديني تسعة وتسعين اسما لله، بينما لن يكشف الاسم المائة إلا يوم القيامة. ومن بين تلك الأسماء، نجد تنويعات حول موضوع الرحمة: الغفار واللطيف والحليم والبار والعفو.

ويعرِّف المعجم الرحمة أنها «عفو ومغفرة لمن يمكن معاقبتهم». أما المعنى الديني فهو: «الحلم الذي من خلاله يعفو الله عن الناس وعن المذنبين». فكيف إذن يمكن تبرير أن تكون من بين أسماء الله أيضا: المذل والمميت والمنتقم والضار؟. عجيبة هي تلك الطريقة في ممارسة الرحمة من خلال الإذلال والقتل والانتقام والإضرار».

[٨]

## جرد للتناقضات

لا يفتأ الله يظهر في القرآن كمحارب لا يعرف الرحمة، كما يمكنه بالفعل ممارسة مروءته وكرمه، فذلك من اختصاصه. لكن متى؟ وأين؟ ومع من؟ في أعمال النبي وأقواله كما في نص الكتاب المقدس، يتم المرور على حد السيف والإذلال بالرق والتعذيب والحرق والنهب، أكثر مما نرى ممارسة محبة

(١) كذلك جاء في المؤلف بدل ١١٤ (المترجم).

القريب». فالنظرية الإسلامية والممارسة المسلمة لا تتألقان في الرحمة!

ذلك أن محمدا نفسه لم يتميز في فضائل شهامة وإباء الفرسان. تشهد سيرته على ذلك: فقد قاد الغزوات في المدينة خلال حروب القبائل، وأخذ السبايا لنفسه، واقتسم الغنائم وأرسل أصحابه إلى الخطوط الأولى للشطط الحربي؛ ثم لما يصاب بحجر، يقف متفرجا على هروب أصحابه وتفرقهم وهو مختبئ في خندق يختار أقرباء لتصفية هذا الخصم المزعج أو ذاك. وحين يحارب فإنه يسحق اليهود باستخفاف... صحيح أن الله كبير، وبالتالي فمحمد نبيُّه كذلك؛ ولندع جانبا التدقيق بخصال هذا الرسول لأن الله ذاته سيتألم لها.

إن الله حليم إذن؛ وهذا جرد بالعكس: إن الله يبرع في التخطيط والتصميم للحرب أو للعقاب ـ بما في ذلك القتل ـ (سورة الأنفال؛ ٣٠)؛ ويستعمل الحيلة والمكر بامتياز (سورة آل عمران؛ ٥٤). والحال أن هذه الخصلة، التي تعتبر فضيلة في فكر الكلبيين Cyniques، تبدو أقرب إلى الرذيلة منها إلى أي شيء آخر؛ ثم إنه يلجأ للعنف ويقرر الموت عن طيب خاطر (سورة آل عمران؛ ١٥٦)، كما يعد للكافرين عذابا مهينا (سورة النساء؛ ١٠٢) وهو ذو انتقام (سورة المائدة؛ ٩٥ وسورة آل عمران؛ ٤) يمحق الكافرين (سورة النساء؛ ١٤١) ويمارس هذه الفضيلة النبيلة إلى درجة أنه لا يحتمل حتى اعتقادا يختلف عما يتمناه: فيعاقب من يظنون به ظن السوء (سورة محمد). أهلا بالحِلم...

[٩]

## كل شيء ونقيض كل شيء

إن القرآن يناقض في أماكن عدة دعوة افتتاح السور التي يقدم فيها الله نفسه على أنه حليم رحمن رحيم. ونجد في التفاصيل ما نؤشر به على بعض

التناقضات: دعوة لقتل الكفار (سورة الأنفال؛ ٣٩) والمشركين (سورة التوبة؛ ٥)، ثم امتداح في الآية الموالية لمن يوفر لهم اللجوء (سورة التوبة؛ ٦)؛ ونداء لمقاتلة الكفار بعنف شديد (سورة الأنفال؛ ٣٩)، ثم تمجيد للعفو والنسيان (سورة المائدة؛ ١٣) وللسلم (سورة الأنفال؛ ٦١)؛ وتبرير القتل (النساء؛ ٥٦ و٩١، ثم البقرة ١٩١ ـ ١٩٤)، لكن هناك تداولا متكررا لآية ـ غالبا ما تبرئ الإسلام من الميل إلى المجازر ـ تقول: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة؛ ٣٢)؛ وتبرير للقصاص (سورة البقرة؛ ١٧٨ والمائدة؛ ٣٨)، ثم اعتبار التخلي عنه يؤدي إلى التكفير عن الذنوب (سورة المائدة؛ ٤٥) ؛ وتحريم اتخاذ النصارى واليهود أولياء (المائدة؛ ٥١)، ثم السماح للرجال بالزواج من كتابية (المائدة؛ ٥) بالإضافة إلى آية تتحدث عن أخوة كل المؤمنين (سورة الحجرات؛ ١٠) ثم الدعوة لمجادلتهم بالتي هي أحسن (العنكبوت؛ ٤٦)؛ وتشريع لمطاردة الكافر (النساء؛ ٩١)، ثم تمجيد عدم الاهتمام بمن تولى عن الله (النساء؛ ٨٠)؛ وأمر بالأغلال في أعناق الكفار (سورة الرعد؛ ٥)، لكن هناك آية يتم التذرع بها للاستدلال على تسامح الدين الإسلامي: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة؛ ٢٥٦) ـ إننا نحلم. . ابتهال إلى الله أن يقضي على اليهود والنصارى (التوبة؛ ٣٠)، ثم إعلان مبدأ الولاية بين المؤمنين بضع آيات بعد ذلك في نفس السورة (التوبة؛ ٧١)؛ وتأكيد للتساوي بين كل النساء والرجال في محياهم ومماتهم (سورة الجاثية؛ ٢١)، ثم حزن وأسى فوق الأرض حين ولادة بنت لأسرة من الأسر (الزخرف؛ ١٧)، فتأكيد أن التفاوت يسود بعد الموت: أصحاب الجنة وأصحاب النار (الحشر؛ ٢٠). ويعلمنا الرسول حينا أن جزاء الخير هو الجنة (. سورة آل عمران؛ ١٣٦)،

ويزعم حينا آخر أن جزاء الخير هو. . . الخير (الرحمن؛ ٦٠). كما أن هناك تأكيداً أن كل شيء صادر عن الإرادة الإلهية التي تضل من تشاء عن قصد (الجاثية؛ ٢٣)، لكن مع ذلك يظل الإنسان مسؤولا عن أفعاله وأعماله (سورة الطور؛ ٢١) ـ إن إرث موسى وعيسى لا يكون بلا عقاب. .

وإذا كان غياب الاختلاف في القرآن، كما تقول سورة «النساء»، دليلا على الأصل الرباني للكتاب ـ الذي أنزل، على مدى عشرين سنة بين مكة والمدينة، على رجل يرعى الجمال ولا يعرف ـ المسكين ـ لا الكتابة ولا القراءة ـ، فإن كمية التناقضات التي راكم والتي سجلناها أعلاه بعجالة تمكن من تأكيد الأصل الإنساني للكتاب؛ وهو أصل أنساني بامتياز، بل ومفرط في إنسانيته! والمفارقة هو أن هذه الأطروحة القرآنية القاضية بعدم وجود الاختلاف في النص، التي يناقضها تحليل هذا النص، تعطي الحق للنص، وهو ما يمكن من استنتاج مصدره الإنساني وغير السماوي. .

[١٠]

## السياق سفسطة

أمام طوفان الحقائق التي يعاكسها نفس القدر من الحقائق المضادة، وأمام فوضى الورش الميتافيزيقي حيث تمتلك كل فكرة نقيضها، يقوم البعض بتبرير المنطق المنبثق عن اجتزائهم للنصوص بهدف إثبات أن الإسلام كله يختزل في ذلك النصيب من النص الذي تبرزه اقتطاعاتهم. فبعضهم يقدم إسلاما معتدلا والبعض الآخر يقدم إسلاما أصوليا، بينما تطرح مجموعة ثالثة إسلاما علمانيا(!)، متفتحا وجمهوريا.

بعض المازحين يتحدثون عن إسلام نصير للحركة النسائية ويستندون في ذلك على سيرة النبي الذي كان يساعد زوجته عائشة على إنجاز أشغال البيت؛

ونفس هؤلاء وهم لا يعدمون ذكاء، يضعون بجفاء، الأمور في سياقاتها، فيستنتجون من سباق الجمال بين محمد وزوجته إمكان إجراء دوريات مختلطة اليوم في كرة القدم! وهناك من بين نفس الصنف من هو طريف، يدَّعي العلم، ويحاول ربط القرآن بالواقع خبطا إلى حد الزعم أنه يبشر بغزو الفضاء (سورة الرحمن؛ ٣٣)، وبعصر المعلومات! هذا كثير، يكفي هكذا. . .

ويقوم البعض باجتزاء ما يثبت إسلاما متسامحا، فيكفي أن يعزل المرء آيات الدعوة إلى منح المأوى للكفار، وإلى الصفح والنسيان والسلام ورفض كل عنف وكل جرم، والتخلي عن القصاص، ومحبة القريب، يهوديا كان أو مسيحيا أو كافرا أو ملحدا أو مشركا، وقبول الاختلاف بالرأي. لكن المحزن هو أن هناك من بين غيرهم من يدعي العكس تماما، ويبدو أن لديه نفس القدر من الشرعية في اعتقاد صواب وشرعية الجرم والقتل والعنف والحقد والازدراء. . ذلك أنه ليست هناك حقيقة للقرآن، وليست هناك قراءة صحيحة له، بل فقط تأويلات مجتزأة ومنتفعة إيديولوجياً، تبغي إفادة ذاتية وشخصية من سلطة الكتاب والدين.

فماذا يعني مثلا وضع الآية التي تدعو لقتل اليهود ضمن سياقها؟ وماذا يعني تفسيرها اعتبارا للعصر والسياق التاريخي والأسباب الكامنة وراء كتابة وتصور ذلك في إطار زمن القبيلة؟ ثم ماذا؟ هل تختفي معاداة السامية حينما نبين تجذرها في سماد هو خليط تربة تاريخ معين وجغرافيا معينة؟ وهل ستتوقف الدعوة للجرم فجأة على أن تكون كذلك بقدرة قادر؟ إنه لا يمكن منع النص من أن يكون كتابا مكتوبا مهما كان تصورنا للسياق. وحتى لو تضمن النص ما يناقض ذلك، فإن نزعة معاداة اليهود تقرأ في داخله وهي لها نفس القدر من الشرعية.

ولكن المفارقة هو أن هواة ذكر أسباب النزول وسياقات النص يعتبرون كتابهم مقدسا وربانيا، منزلا وموحى به من عند الله. فذلك يجعل أن القرآن منطقيا لا يقبل النقد ولا النقص؛ ولكنهم خدمة لمصالحهم، يغيرون خطابهم ويتمنون فجأة قراءة تاريخية. إنهم يريدون الإيمان والعقل، والاعتقاد والأرشيف والخرافة والحقيقة، وذلك بحسب ضرورات جدالهم. فمرة يتواجدون في الساحة الصوفية، ومرة ثانية تجدهم على المستوى الفلسفي. لا يمكن القبض عليهم، فهم لا يعتمدون على لغة واحدة؛ وذلك ما يجعل قارئا، ليست له أحكام جاهزة ولا قناعات قبْلية، في حيرة عندما يصر على قراءة النص قراءة حقيقية.

إنني أناصر القراءة التاريخية الصارمة للكتب الثلاث المقدسة، وأناصر ضرورة النظر إلى إنتاجها الفعلي في تاريخ الغرب والعالم. فالحكايات اليهودية عن كنعان ونبوءات التطهير العرقي عند موسى، والمنظور الطائفي للوصايا العشر، وقانون القصاص وسوط عيسى ضد تجار المعبد وأمثولات الحسام والسيف ورحمة الإله المميت المعادي للسامية والمتعصب؛ كل ذلك يصنع «عالم معرفة» المذاهب التوحيدية، بالرغم من التحريم التوراتي للقتل ومن مبدأ محبة القريب في الإنجيل، وبالرغم من الخلط بين هذا وذاك، هنا وهناك، في القرآن. تقدم هذه الكتب الثلاث في أغلب الأحيان خدمات لنزعة الموت الملازمة جوهريا لعصاب ديانة إله واحد؛ والتي صارت ديانة الإله الواحد.

## II
# في خدمة نزعة الموت

### [١]

### استنكارات انتقائية

كان من المفترض أن تؤدي إمكانية الاجتزاء الاختياري من الكتب التوحيدية الثلاثة إلى أفضل النتائج: كان يكفي التعويل على تحريم القتل في الوصايا العشر وتحويله إلى مبدأ كوني، دون القبول بأدنى استثناء في الأمر، وكذا إبراز نظرية محبة القريب الإنجيلية، مع تحريم كل ما يناقض هذه الفريضة القطعية، ثم الاستناد عموما وفي كل الأمور، على الآية القرآنية التي تفيد أن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا؛ كان يكفي هذا لكي تصير أديان الكتب، فجأة، جديرة بالاحترام والمحبة ومرغوبا فيها.

فلو قام الحاخامات بتحريم إمكانية أن يكون المرء يهوديا وأن يقتل ويستعمر ويهجر سكانا من أرضهم باسم الدين؛ ولو قام الكهنة بتجريم من يقضي على حياة قريب؛ ولو اصطف البابا المسيحي الأول بجانب الضحايا والضعفاء والبؤساء ومن ليست لهم حماية والمبعدين وأحفاد أبناء البسطاء من المسيحيين الأوائل؛ ولو قام الخلفاء والأئمة وآيات الله والملالي وكبار أصحاب الشأن

المسلمين بتبشير أولئك المهووسين بالسيف وقتلة اليهود ومفتالي المسيحيين ومالئي جثث الكفار بالقش، بتبشيرهم بالهلاك وبالجحيم. فلو قام كل هؤلاء الممثلين للإله الواحد فوق الأرض باختيار السلام والمحبة والتسامح، كنا سنعلم بذلك وسنراه وكنا سندافع على الأديان في مبدئها، ثم سندين بعد ذلك الاستعمال السيئ لها من قبل الأشرار والسيئين. لكنهم يمارسون العكس بدلا من كل ذلك، ويختارون الأسوأ. فقد كانوا يدعمون على طول التاريخ، إلا فيما ندر، زعماء الحرب وضاربي السيوف، والعسكريين، والمقاتلين، والمغتصبين، والناهبين، ومجرمي الحرب، والجلادين، وممارسي التطهير العرقي والمستبدين ـ إلا الشيوعيين منهم. . ـ وحثالة البشر.

ولأن الديانة التوحيدية تدافع عن نزعة الموت، وتحبها وتعزها، وتستمتع وتفتتن بها، فإنها تقوم بمنحها وتوزيعها بكثرة وتهدد بها، كما أنها تمارس الأمر فعلا؛ فمنذ السيف اليهودي المبيد للكنعانيين وحتى استعمال الطائرات المدنية كقنابل طائرة في نيويورك، مرورا بإسقاط حمولات ذرية على هيروشيما وناكازاكي، كان كل شيء ينجز باسم الله، ويباركه الله ويباركه بالخصوص أولئك الذين يحتمون بالله، ويعلنون انتماءهم إليه.

ويقوم اليوم كبير حاخامات القدس بالتنديد بالإرهابي الفلسطيني المدرع بالمتفجرات في شوارع حيفا، لكنه يلتزم الصمت حيال اغتيال سكان حي بكامله دمرته صواريخ «تساحال» بالضفة الغربية؛ ويحتقر البابا حبة القرص المانعة للحمل، التي اعتبرت مسؤولة عن أكبر تطهير عرقي عبر الأزمان، لكنه يدافع بهمة عن قتل مئات الآلاف من التوتسي من قبل الهوتو الكاثوليك في رواندا؛ وتستنكر كبرى هيئات الإسلام العالمي جرائم الاستعمار والإذلال والاستغلال التي أذاقهم (ويذيقهم) إياها العالم الغربي، لكنهم يبتهجون لجهاد

كوني ماض تحت ظلال تنظيم القاعدة. هناك افتتان بموت الأغيار والكفار والمارقين ـ، وبالمناسبة فالثلاثة يعتبرون الملحد عدوهم المشترك!

إن استنكارات الديانات الموحدة انتقائية: ففكرة الجسد الواحد تشتغل بتمام. فلليهود رابطتهم، وللمسيحيين كنيستهم، وللمسلمين أمتهم؛ ويفلت كل جسد من هذه الأجسام من القانون ويتمتع بحصانة داخلية وجودية وميتافيزيقية. فبين أعضاء نفس الطائفة، يمكن الدفاع عن كل شيء وتبريره. فاليهودي ـ أريل شارون ـ يمكنه أن يدفع إلى إبادة فلسطيني ـ كالشيخ أحمد ياسين الذي يصعب الدفاع عنه ـ، دون أن يثير غضب الإله يهوا لأن هذا القتل يتم باسمه؛ وللمسيحي «بيوس الثاني عشر» ـ PIE 12 ـ الحق بإيجاد الذريعة لقائد تطهير عرقي يقوم بإبادة اليهود ـ آيشمان الذي تم تسهيل خروجه من أوروبا بفضل الفاتيكان ـ، دون أن يغيظ ربه لأن هذا القتل العرقي يثأر لقتل الإله، المنسوب للشعب اليهودي؛ ويمكن للمسلم ـ الملا عمر ـ أن يدفع إلى شنق نساء اتهمن بالزنا وهو بذلك يرضي الله لأن المشنقة تنصب باسمه... وتوجد وراء كل هذه الفظاعات آيات توراتية وفقرات إنجيلية، وسور قرآنية تمنح الشرعية والتبرير والمباركة..

فبمجرد ما ينتج الدين تأثيرا في المجال العام والسياسي، يكبر معه نفوذ ضرره. فحينما يتم الاستناد على اجتزاء من هذا الكتاب أو ذاك من الكتب الثلاثة لتفسير سلامة أسس الجريمة المقترفة وشرعيتها، يصير الجرم الشنيع منيعا. فهل بالإمكان المضي عكس كلام الوحي، وعكس كلام الله، وضد الدعوة الإلهية؟ ذلك أن الله لا يتكلم ـ ما عدا مع الشعب اليهودي وبعض الإشراقيين الذين يبعث إليهم أحيانا رسولا، عذراء على سبيل المثال ـ، لكن طبقة رجال الدين تجعله كثير الكلام. فحين يتكلم أحد رجال الكنيسة، وحين

يستشهد بمقاطع من كتاب الله، تكون معارضته عصيانا لله شخصيا. فمن يملك ما يكفي من القوة المعنوية ومن قوة الاقتناع ليرفض كلام (رجل من رجال الله؟ إن كل حكم ثيوقراطي ـ حكم باسم الله ـ يجعل كل ديموقراطية ـ حكم الشعب ـ مستحيلة. وأفضل من ذلك: إن كل شبهة ثيوقراطية تحول دون كينونة الديموقراطية ذاتها.

[٢]

## اختراع اليهود للحرب المقدسة

لكل مقام مقال. لقد ابتكر اليهود الفكرة التوحيدية وابتكروا كل ما يمشي معها؛ أي مبدأ الحق الإلهي ورديفه المحتوم: شعب الله السامي، مقابل وباقي الشعوب الوضيعة. هو منطق منسجم. وأضف كذلك بالخصوص القوة الإلهية الضرورية لدعم هذا الحق الصادر عن السماء: ذلك أن الجناح المسلح يسمح بتأثير الله في الأرض. فالله يقول ويتحدث، والأنبياء والمخلِّصون والرسل يترجمون خطابه الذي يتعذر على الناس فهمه دون ذلك. فتقوم طبقة رجال الدين بتحويل كل هذا إلى كلمات سر، تحميها أسراب الجنود المسرجة والمدرعة والعازمة والمسلحة حتى النخاع. وهنا يكمن أصل الثالوث الوظيفي المؤسس للحضارة: الأمير ظل في الأرض والكاهن مزود الأمير بالتصورات المجردة، والجندي قوة الكاهن العنيفة. والشعب يؤدي دائما ثمن الخداع الثيوقراطي.

ابتدع اليهود البعد الزمني الدنيوي للفكرة الروحية التوحيدية. وقبلهم بكثير، كان الكاهن يتصرف باتفاق مع الملك: كانت رفقتهما بدائية، تنتمي لما قبل التاريخ السابق للطوفان. لكن «الشعب المختار» استعاد لحسابه الخاص هذا المنطق الحاذق والعملي: أي يجب أن تنتظم الأرض مثلما تنتظم السماء.

فكان من اللازم إعادة تشكيل التصاميم اللاهوتية على أرضية التاريخ؛ كما يجب على العلاقات الملازمة أن تنتحل القوانين المنزهة. تتحدث التوراة عن هذه الأمور دونما مراوغة.

فوق جبل سيناء كلم الله موسى. كان الشعب اليهودي آنذاك ضعيفا ومهددا بالفناء بسبب الحروب مع الأقوام والقبائل المجاورة، وكان محتاجا لدعم من الإله لكي ينظر إلى الآتي بسكينة: إنه إله واحد، مقاتل وعسكري لا يعرف الرحمة، يقود المعارك دون شفقة، وهو قادر على إبادة الأعداء دون أزمة ضمير ويعتبر محمسا لمعنويات جيوشهم: هكذا هو يهوا الذي يأخذ، كما عند النبي محمد، من نموذج زعيم الحرب القبلي المنطلق كونيا.

وعد الله شعبه، المختار، المنتقى، والمرفوع من بين كل الشعوب الأخرى، والمعزول عن العامة، و«كنزه المتميز» (سفر الهجرة؛ ١٩؛ ٥)؛ وعده ببلاد يملكها إلى الأبد (سفر التكوين؛ ١٧؛ ٨)؛ سكان هذه البلاد بسطاء؟ بلاد يزرع فيها الشعب الحقول؟ وتغذي أرضها الشيوخ والأطفال؟ ورجالها يرعون قطعان ماشية؟ ونساؤها تنجب الصبيان؟ ويتربى الأطفال في هذه البلاد؟ وفيها يعبد الله؟ لا يهم مصير هؤلاء الكنعانيين؛ فقد قرر الله إبادتهم: «سأبيدهم» ( سفر الهجرة؛ ٢٣؛ ٢٣)

واستعمل الله كبرى الوسائل من أجل إخضاع فلسطين؛ واستعمالا لمصطلح معاصر مثير للجدل، قد نقول إن الله ابتكر الحرب الشاملة. فهو يشق البحر ـ مادام الأمر يتطلب ذلك ـ ويغرق فيه جيشا بكامله ـ فلا مجال لأنصاف الحلول ـ، ويوقف سير الشمس حتى يتيح للعبرانيين الوقت الكافي لإبادة أعدائهم من المهاجرين الآخرين (عوسيه؛ ١٠؛ ١٢ ـ ١٤) ـ كم أنت مرغوبة يا محبة القريب. ! . ـ، ويرسل مطرا من حجر وضفادع ـ شيء من الخيال ـ، ويرسل

جيشا من البعوض والنعرة ـ فهو لا يقتصد بشيء ـ، ويجعل الماء دما ـ تلك لمسة شعر ولون ـ ويثير الطاعون والقروح والبثور ـ حرب جرثومية قبل الأوان ـ، ويضيف إلى كل ذلك ما تمارسه العساكر الفظة منذ الأبد: قتل كل ذي حياة، نساء وشيوخا وأطفالا ودواب (سفر الهجرة؛ ١٢؛ ١٢). إن مسح وحرق وإبادة الشعوب ليست، كما نستنتج، بدعة حديثة.

يبارك إله اليهود يهوا الحرب ويبارك من يمارسها؛ ويقدس القتال ويمارسه ويقوده، ليس شخصيا بالفعل ـ فالشبح يجد صعوبة في ضبط السيف ـ، ولكن من خلال الوحي لشعبه بالأمر؛ إن يهوا يبرر الجرائم والقتل والاغتيال ويعطي الشرعية لتحطيم الأبرياء ـ قتل الدواب كما يُقتل الناس، وقتل الناس كما تُقتل الدواب! وما لم يكن الإنسان كنعانيا، يمكنه أن يعرض تجنيبه القتال مقابل تقديم نفسه عبدا بدل ذلك كعلامة حسن نية ومحبة. إن يهوا يعد الفلسطينيين بالحرب الشاملة ـ أو الحرب المقدسة حسب التعبير الرهيب والمغالي في الحداثة لـ «سفر عوسيه» (٦؛ ٢١).

فمنذ ٢٥٠٠ سنة، لم يقرر أي مسؤول منبثق من الشعب المختار بأن هذه الصفحات تنتمي للحكاية الخرافية وللسخافات ولخيال ما قبل التاريخ، ولا أنها خطيرة إلى أقصى حد لأنها مجرمة؛ بل العكس هو الذي يحصل. يوجد فوق سطح كامل الكرة الأرضية عدد هائل من الناس يَحيَون ويفكرون ويتحركون ويتصورون العالم من خلال هذه النصوص، التي تدعو إلى المجازر الشاملة دونما أن يتم منع نشرها، بتهمة الدعوة إلى القتل والعنصرية، وغيرها من الدعوات المغرضة.

يتم الاشتغال في اليشيفا اليهودية على حفظ هذه المقاطع التي لا يغير فيها قيد أنملة، مثلما لا يمس يهوا بأدنى مس. إن التوراة تقدم الرواية الغربية الأولى للعديد من مؤلفات فنون الحرب المنشورة على مدى التاريخ. . .

[٣]

## اللّه وقيصر والطائفة

لا ينخرط المسيحيون لتجنيد الله في جرائمهم؛ فليس هناك عند أتباع المسيح شعب مختار وليس عندهم تبرير لإبادة شعب مزعج لحياة أسياده؛ بل هناك دعوة إلى كلمة الله لضمان مكائد موغلة في الدنيوية لديانة هي أصلا موغلة في الروحانية. فالتحول من ذل عيسى إلى الإذلال الممارس باسمه على الغير كان سريعا وسهلا عند المسيحيين، كما استدامت هذه العادة الغريبة عندهم.

وفي هذا المكان يثبت الاجتزاء فائدته مرة ثانية: الاستشهاد، على سبيل المثال، بإنجيل يوحنا في هذه الفكرة: «**مملكتي أنا ليست من هذه الدنيا**» (١٨؛ ٣٦)، والإحالة على إنجيل متى في ما يتعلق بالعكس: «**أعطوا إذن لقيصر ما لقيصر، ولله ما لله**» (٢٢؛ ٢١). فمرة تكون الأولوية للجانب الروحي ولإبداء اللامبالاة تجاه المسائل الدنيوية؛ ومرة أخرى يكون هناك فعلا فصل للسلطات، لكن مع إعلان رسمي لفكرة شرعية الواقع، لأن إعطاء قيصر يشرع أداء الضرائب لجيش الاحتلال، والرضا باكتتاب الجيوش والخضوع لقوانين الإمبراطورية.

إن التناقض الظاهر يجد حله إذا وضحنا كل هذا من خلال القديس بولس؛ ذلك أن المسيحية ابتعدت عن اليهودية عندما تحولت إلى مذهب بولس. فالرسائل الموجهة لمختلف الشعوب، التي زارها هذا الأخير، تعطينا العقيدة الكنسية بخصوص الروابط بين السلطتين الروحية والدنيوية. فـ بولس يعتقد أن مملكة عيسى هي من هذه الدنيا: يريدها قابلة للتحقيق، ويساهم في تجسيدها هنا والآن ومن ثم جاءت رحلاته من أورشليم إلى أنطيوكس ومن تيصالونيك إلى أثينا ومن كوانث إلى إيفيز. فهذا المهتدي لا يكتفي بأرض موعودة سلبت

من الكنعانيين، بل يريد كامل الكوكب خاضعا لرمز مسيح يحمل في يده سيفا.

وتعلمنا **«الرسالة إلى الرومان»** ذلك بوضوح، حيث نجد: **«لا سلطان إلا من عند الله»**، هذا من جهة النظرية. ويتبع ذلك عمليا امتداح الخضوع للسلطات الرومانية؛ فبخصوص مبدأ أن أصحاب السلطة هم أولا خدام لله، يقفل بولس الباب بفعالية: العصيان العسكري والاعتراض على موظف سام وممانعة مفوض سلطة، والوقوف في وجه والٍ روماني ـ **بونس بيلات** مثلا. . ـ، كل هذا يشكل شتيمة توجه لله. لنعد كتابة كلام المسيح على التقليعة البولسية، فيكون كالتالي: أعطوا لقيصر ما لقيصر، ولقيصر ما يعود لله ـ قطعا لكل حساب.

لقد بدأ المسيحيون الحاملون لهذا الزاد الأنطولوجي ببيع أرواحهم ـ التي لم تعد صالحة لممارسة الأناجيل ـ في وقت مبكر للسلطة الدنيوية؛ وبدأوا بالرسو داخل زخارف الذهب وأرجوان القصور، ويغطون بالمرمر والذهب كنائسهم ويباركون جيوشهم، ويبررون الحروب التوسعية والغزو العسكري وعمليات الشرطة ويرفعون الضرائب، ويرسلون الجنود ضد الفقراء الذين يتظلمون، ويشعلون المحارق ـ وذلك منذ **قسطنطين**، في القرن الرابع من تاريخهم.

والتاريخ يشهد: ملايين الموتى؛ نعم ملايين في كل القارات منذ قرون، باسم إله المسيحيين؛ الإنجيل في يد والسيف في اليد الأخرى: التفتيش والتعذيب والسؤال؛ الحروب الصليبية والمجازر والنهب والاغتصاب والشنق والإبادة؛ تجارة العبيد والإذلال والاستغلال والاستعباد والمتاجرة بالرجال والنساء والأطفال؛ والتطهير العرقي والثقافي الذي قام به المغامرون الأسبان غزاة أمريكا ـ **الكونستادوريس** ـ أصحاب الإيمان القوي، والذي قامت به أيضا حديثا طبقة رجال الدين الرواندين إلى جانب المبيدين من **الهوتو**؛ ومرافقة كل

النزعات الفاشية في طريقها، خلال القرن العشرين، ـ موسيليني وبيتان وفرانكو وهتلر وبينوشيه وسالازار وزعماء الجيش اليونانيين وطغاة أمريكا اللاتينية. . . ملايين القتلى محبة للقريب!

[٤]

## معاداة اليهود في المسيحية

تصعب على المسيحي محبة القريب خاصة إذا كان يهوديا. . فساوولس ـ Saül ـ الذي صار بولس ـ Paul ـ أفرغ كل حماسته في تخريب اليهودية والتخلص منها، ـ وهي نفس الحماسة التي قاد بها، قبل المسير إلى دمشق، عملية اضطهاد المسيحيين، وساعد في ضربهم، وحتى في التعجيل لهم بالرحيل إلى العالم الآخر. ولبيع طائفته للطائفة التي دخل إليها حديثا، كان عليه أن يمرر فكرة أن عيسى هو المخلص المبشر به في العهد القديم وأن المسيح يلغي اليهودية من خلال إتمامها. ولما لم يكن أتباع يهوا يعتقدون بسخافة فكرة ابن الله المقتول على الصليب من أجل خلاص البشرية، فقد صاروا أساسا خصوما، ثم سرعان ما تحولوا أعداء بعد ذلك.

فصار يقال إن اليهودي التائه يحيا هذه اللعنة منذ أن رفض أول شخص من بين اليهود أن يسقي المسيح في طريقه نحو غولغوتا. ولأنه لم يساعد المسيح، فقد ضربت اللعنة هذا اليهودي ـ فالمسيح ليس متسامحا كثيرا ـ، لكنها أصابت معه أيضا وبالخصوص عشيرته وأبناءه وكل شعبه. ذلك أن الرواية المسيحية لموت عيسى تفترض مسؤولية اليهود عنها ـ وليس مسؤولية رومانيين. . وماذا عن بونس بيلات Ponce PILATE؟، إنه ليس مسؤولا وليس مذنبا. ويؤكد ذلك بولس عندما يتحدث عن اليهود «الذين قتلوا الرب يسوع» (تيسالي؛ ٢؛ ١٥). وتعج الأناجيل بفقرات صريحة العداء لليهود ـ استخرج منها غولداجن

GOLDAGHEN عددا مهما: أربعين عند مرقص، وثمانين عند متى، ومائة وثلاثين عند يوحنا ومائة وأربعين في كتاب «أعمال الحواريين». . وحتى عيسى نفسه ـ عيسى الودود ـ يعلمنا أن اليهود لهم «الشيطان أبا» (يوحنا ٨؛ ٤٤). تصعب محبة القريب في هذه الشروط.

فمنذ المسيحيين الأوائل الذين حولوا اليهود إلى قتلة للرب، وحتى الاعتراف المتأخر بدولة إسرائيل من قبل البابا يوحنا بولس الثاني نهاية، ١٩٩٣ ومرورا بقصة الحب الطويلة بين الكنيسة الكاثوليكية الرسولية الرومانية وكل ما له علاقة بمعاداة تاريخية لليهود، بما في ذلك خصوصا الاثنا عشر سنة من حكم الحزب الوطني الاشتراكي الألماني، تبدو القضية مفهومة. إن ذروة هذا الحقد تكمن في التعاون النشيط بين الفاتيكان والنازية؛ كما تكمن ـ هو أمر لا يعرفه الكثير ـ في تعاون النازية مع الفاتيكان. ذلك أن البابا «بيوس الثاني عشر» ـ PIE12 ـ وأدولف هتلر يتقاسمان عددا من الرؤى وخصوصا بغضهم المشترك لليهود جميعهم.

[٥]

## الفاتيكان يحب أدولف هتلر

إن زواج الحب بين الكنيسة الكاثوليكية والنازية لا يشك به أحد، والأمثلة على ذلك كثيرة وليس ذات قيمة ضئيلة. فالتواطؤ بينهما لا يتأسس على الصمت الموافق، ولا على المسكوت عنه بينهما ولا على تقديرات تبنى على فرضيات منحازة؛ إن الوقائع تشهد لمن يباشر هذه المسألة مسائلا التاريخ. إنه لم يكن زواج عقل تحكمه مصلحة استمرار الكنيسة الكاثوليكية، بل كان انفعالا مشتركا ومتقاسما بينهما تجاه نفس الأعداء الممتنعين: اليهود والشيوعيين ـ الذين يتم التقريب بينهما في أغلب الأحيان ضمن قمامة المفاهيم اليهودية البلشفية.

من نشأة المذهب النازي إلى اقتلاع مجرمي حرب الرايخ الثالث، بعد سقوط النظام، وإلى صمت الكنيسة الدائم بخصوص هذه المسائل، وحتى يومنا هذا ـ باستحالة الاطلاع على الوثائق المتعلقة بالموضوع بالفاتيكان ـ، كان مجال «السان بيير»، وريث المسيح، أيضا مجالا لأدولف هتلر ومن والاه من نازيين وفاشيين فرنسيين مقتنعين بالتعاون معه وفيشيين وجنود ميليشيا وغيرهم من مجرمي الحرب.

والوقائع هي إذن كالتالي: أقرت الكنيسة الكاثوليكية إعادة تسليح ألمانيا، ماضية بذلك بعكس معاهدة فرساي ولكن أيضا ضد جزء من تعاليم المسيح، خصوصا ذلك الذي يمجد السلام واللطف ومحبة القريب؛ ووقعت الكنيسة الكاثوليكية معاهدة بابوية مع أدولف هتلر، بمجرد وصول المستشار إلى الحكم سنة ١٩٣٣؛ وصمتت الكنيسة الكاثوليكية على مقاطعة التجار اليهود وصمتت عند إعلان قوانين الأعراق بنورنبرغ ١٩٣٥، واستمرت بالسكوت إبان «ليلة البلور» سنة ١٩٣٨؛ وقدمت الكنيسة الكاثوليكية ملف وثائقها الجينيالوجية للنازيين، الذين عرفوا بذلك من هو مسيحي وبالتالي من ليس يهوديا؛ وطالبت الكنيسة الكاثوليكية في المقابل بـ «السر الرعوي» حتى لا يتم تسريب أسماء اليهود المعتنقين للمسيحية أو أسماء أزواجهم أو زوجاتهم؛ وساندت وأيدت ودعمت الكنيسة الكاثوليكية نظام «أنتي باليفيك» الموالي للنازية في كرواتيا؛ ومنحت الكنيسة الكاثوليكية الغفران لنظام فيشي المتعاون مع النازية منذ ١٩٤٠؛ ولم تدن الكنيسة الكاثوليكية، رغم علمها بسياسة فكرة الإبادة المتبعة منذ سنة ١٩٤٢، ـ لا جهرا ولا سرا ـ؛ ولم تأمر أبدا أي كاهن أو أسقف بالهجوم على النظام المجرم في حضور جموع المؤمنين.

وقادت جيوش الحلفاء تحرير أوروبا ووصلت إلى بيرشتسغادن واكتشفت

أوشويتز. فماذا فعل الفاتيكان؟ لقد استمر في مساندة النظام المنهار: نظمت الكنيسة الكاثوليكية في شخص الكاردينال بيرترام قداس جنازة ترحما على روح أدولف هتلر؛ وحافظت الكنيسة الكاثوليكية على صمتها ولم تبد أي استهجان عند اكتشاف المدافن الجماعية وأفران الغاز ومعسكرات الإبادة. وأهم من ذلك، نظمت الكنيسة الكاثوليكية للنازيين بعد هتلر ما لم تفعله أبدا لأي يهودي أو ضحية من ضحايا الحزب النازي: لقد نظمت شعبة لإبعاد مجرمي الحرب خارج أوروبا؛ واستغلت الفاتيكان وسلمت وثائق مطبوعة تحمل تأشيرات، ونشطت شبكة المعابد الأوروبية كمخابئ كافية لضمان سلامة كبار موظفي الرايخ المنهار؛ وعينت الكنيسة الكاثوليكية داخل هرمها أشخاصا كانوا قد احتلوا مناصب هامة في النظام الهتلري؛ ولم يكن هناك مجال للندم عند الكنيسة الكاثوليكية ـ خصوصا أنها لا تعترف بأي أمر من كل ذلك.

وإذا كانت هناك من ندامة بهذا الموضوع، فستستوجب انتظار أربعة قرون، أي المدة التي احتاجتها الكنيسة حتى يعترف أحد البابوات بخطأ الكنيسة في قضية غاليليو... خصوصا وأن عقيدة عصمة البابا التي أعلنها المجمع الديني الأول للفاتيكان في ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠ تمنع وتحضر التشكيك بالكنيسة، اعتبارا إلى أن الحبر الأعظم عندما يقدم رأيا أو يتخذ قرارا، فهو لا يقوم بذلك مثل أي شخص يمكن أن يخطئ، ولكن باعتباره ظل الله في الأرض يوحى إليه من خلال الروح القدس ـ أي «نعمة الحضور الرباني». فهل علينا أن نفهم من ذلك أن الروح القدس نازي بالأصل؟

وفي الوقت الذي تظل فيه الكنيسة صامتة بخصوص المسألة النازية أثناء الحرب وبعدها، فإنها لا تعدم اتخاذ مبادرات ضد الشيوعيين. فبشأن الماركسية، يظهر الفاتيكان صاحب نزعة نضالية؛ وكم كنا نتمنى رؤيتها في

محاربة الرايخ النازي والحط من اعتباره. لكن البابا «بيوس الثاني عشر»، صديق الحزب الوطني الاشتراكي، قام بطرد جموع شيوعيي العالم بأسره من الرحمة الإلهية منذ ١٩٤٩، إخلاصا منه لتقاليد الكنيسة الكاثوليكية التي تدين، بفضل «بي التاسع» و«بي العاشر»، حقوق الإنسان باعتبارها مناقضة لتعاليم الكنيسة. وهو يؤكد أن التواطؤ بين اليهود والبلشفية هو أحد مبررات قراره.

وللذكرى: لم يتم طرد أي منتم للحزب الوطني الاشتراكي الألماني من الرحمة الإلهية ولا أي نازي رفيع المستوى أو أي منخرط في قيادة جيوش الرايخ؛ ولم يتم طرد أي مجموعة من الكنيسة بسبب دعوتها أو ممارستها للتمييز العرقي ولمعاداة السامية، أو بسبب إشعالها لأفران الغاز. ولم يُطرد أدولف هتلر من الرحمة الإلهية ولم يدخل كتابه «كفاحي» ضمن *فهرس الكتب المحرمة*. لنذكر أن سنة صدور هذا الكتاب شهدت إضافة - إلى جانب «بيير لاروس»، الذي جرِّم بسبب قاموس الشامل (!) - أسماء هنري برغسون وأندريه جيد وسيمون دي بوفوار وجان بول سارتر إلى قائمة «فهرس الكتب المحرمة». لكن أدولف هتلر لم يظهر له أثر على هذا الفهرس.

[٦]

## هتلر يحب الفاتيكان

هناك فكرة نمطية لا تقاوم أدنى تحليل وبدرجة أقل تحليل النصوص؛ وتقضي هذه الفكرة أن هتلر كان ملحدا وثنيا مفتونا بالعبادات الشمالية، وشغوفا بفاغنر ذي الشعر والقرون، وبوالهالا وبوالكيريز ذي النهود الممتلئة؛ وأنه كان مسيحا دجالا والنقيض الخالص للمسيحية. فبالإضافة إلى صعوبة أن يكون المرء ملحدا ووثنيا - نفي وجود الإله أو الآلهة ثم الاعتقاد في نفس الوقت بها. . -، يجب الانتباه، ضمن كل الفقرات في المؤلف المكتوب - «كفاحي» -

وفي المؤلف السياسي ـ غياب اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية الرسولية الرومانية بعكس معتقدي يهوا مثلا ـ، إلى الإسرار الحميمي للفوهرر ـ المحادثات المنشورة مع ألبير سبير ـ، حيث يعبر أدولف هتلر، بدون غموض وبطريقة مستمرة، عن فكرته الطيبة التي له عن المسيحية.

فهل يكون قرارا لفوهرر ملحد أن يسجل على حزام مقاتلي الرايخ عبارة: الله يمشي معنا؟ وهل تعلم أن هذه العبارة مأخوذة من الكتب المقدسة؟ وخصوصا من الوصايا العشر، أحد فصول التوراة حيث يمكننا قراءة (السفر الخامس؛ ٢٠؛ ٤) هذه الجملة المجتزئة من كلمة يهوا الموجهة إلى اليهود المتوجهين لقتال أعدائهم المصريين، الذين يعدُّ الله لهم إبادة لا مثيل لها (السفر الخامس؛ ٢٠؛ ١٣).

فهل يكون قرارا لفوهرر ملحد أن يفرض على كل أطفال المدرسة العمومية الألمانية بداية يومهم، خلال رايخ الفكر الوطني الاشتراكي، بتلاوة صلاة لعيسى؟ ليس صلاة لله، مما قد يجعل منه مؤمنا كونيا بالله، بل ليسوع وهو ما يعلنه مسيحيا بارزا. فنفسه هذا الفوهرر، الملحد المزعوم، طلب من غورينغ وغويلز، في حضور ألبير سبير التي تروي تلك المحادثة، أن يبقيا في حجر الكنيسة الكاثوليكية، كما سيبقى هو حتى آخر يوم من حياته.

[٧]

## توافقات المسيحية والنازية

إن علاقات التفاهم بين هتلر و«بيوس الثاني عشر» أبعد من أن تكون مسألة تواطؤ بين شخصين. فالمذهبان يتقاسمان أكثر من نقطة التقاء؛ فعصمة البابا، الذي هو أيضا رئيس دولة ـ لنذكِّر بذلك ـ، لم تكن لتغضب فوهرر مقتنعا هو أيضا بعصمته الشخصية. فإمكان بناء إمبراطورية وحضارة وثقافة متميزة من

خلال قائد أعلى يتولى جميع السلطات ـ مثل قسطنطين وعدد من الأباطرة المسيحيين من بعده ـ، ذلك هو ما كان يفتن أدولف هتلر عند كتابة مؤلفه: أي القضاء على كل ما ينتمي للوثنية من قبل المسيحيين؟ وهدم المعابد والأديرة؟ وحرق الكتب ـ للتذكير فقد دعا لذلك بولس نفسه..؟ ذلك أمر رائع، يقول هتلر.

أحب هتلر الصيرورة الثيوقراطية للمسيحية: «عدم التسامح المتعصب» الذي يخلق «الإيمان اليقين» ـ بحسب تعبيره الخاص؛ وقدرة الكنيسة على أن لا تتخلى عن أي شيء حتى أمام العلم وخصوصا أمامه، عندما يناقض بعضا من مواقفها أو يزعج بعض معتقداتها؛ ومرونة الكنيسة، التي توقع لها هو مستقبلا يتجاوز ما يمكن تصوره؛ ودوام المؤسسة المقدسة ـ رغم هذا السلوك المحزن أو ذاك من قبل رجال الكنيسة والذي لا يعيق الحركة العامة ـ. بسبب كل هذا يدعو أدولف هتلر إلى «الاعتبار من دروس الكنيسة الكاثوليكية».

ما هي هذه «المسيحية الحقيقية» التي يتحدث عنها هتلر في كتابه «كفاحي»؟ إنها مسيحية هذا «المؤسس العظيم للعقيدة الجديدة»، عيسى نفسه، الذي يصلي له أطفال مدارس الرايخ. لكن أي عيسى؟ لا يتعلق الأمر بعيسى الخد الأيسر، بل بعيسى الغضوب الذي يطرد بالسوط التجار من المعبد. ويذكر هتلر بوضوح هذه الفقرة من إنجيل يوحنا ضمن عرضه. لنذكر بأن سوط المسيح يصلح لطرد الكفار غير المسيحيين والناس الذين يمارسون التجارة ويعتمدون مكاتب صرافة، أي بصريح العبارة: اليهود؛ تلك هي الكلمة الدقيقة لهذا التواطؤ بين الرايخ والفاتيكان. ولا يحول إنجيل يوحنا (٢؛ ١٤) دون قراءة هتلر المحبة للمسيحيين والمعادية للسامية، بل يجعلها ممكنة.. وأكثر من ذلك، إذا ما استدعينا النصوص التي تنذر اليهود بجهنم، والتي يعج بها العهد

الجديد. فاليهود، باعتبارهم شعب قتلة الإله، هم مفتاح هذه الرفقة المهلكة: فهم يستخدمون الدين ليقيموا مشاريع وأعمالاً، يقول هتلر؛ ويضيف أنهم خصوم الإنسانية جمعاء؛ ويوضح أنهم هم من أسسوا البلشفية. ويعطي كلمته: «**يجب على الزعيم السياسي أن يضمن أن تبقى عقائد الشعب ومؤسساته الدينية ممتنعة ومصونة ومحرمة على المساس**»؛ وبالتالي يمكن لأفران الغاز أن تشتعل من قبس نار القديس يوحنا.

## [٨]

## حروب ونزعات فاشية وهوايات أخرى

إن الرفقة بين المسيحية والنازية ليس حدثا عارضا في التاريخ أو خطأ مسيرة معزولاً ومأسوفاً عليه، بل هي نتيجة منطق قديم عمره ألفا سنة. فمنذ بولس الذي يبرر استعمال السيف لفرض الطائفة السرية كديانة تنقل العدوى للإمبراطورية، بل ولباقي المعمور، وحتى تبرير مبدأ الردع النووي من قبل فاتيكان القرن العشرين، يبقى الخط ثابتا. «**لا تقتل. .** »، ما عدا أحيانا ـ حين تأمرك بذلك الكنيسة.

يضع أوغسطين ـ قديس دولته ـ كل مواهبه في تبرير الأسوأ عند الكنيسة: الاستعباد والحرب وحكم الإعدام و. . . أين أنتم أيها اللطفاء؟ أينكم أيها المسالمون؟ لا يختلف هذا القديس كثيرا عن هتلر، فهو أيضا لا يحب هذا الجانب الرخو في المسيحية الذي لا يتضمن رجولة كافية ولا يقتضي إلا كما نادرا من القتال وتنقصه الدماء المراقة ـ إنه الوجه الأنثوي للمسيحية. لقد قدم للمسيحية المفاهيم التي كانت تنقصها لتبرير الحملات التأديبية والمجازر. كمّاً أن اليهود قد مارسوا الأمر من قبل فوق أرضهم، ضمن مجال جغرافي محدد، ليستلهم المسيحيون ذلك منهم ويمارسوه على رقعة المعمور الأوسع؛ ذلك أن

هداية العالم هي الغاية. ولّدت فكرة «الشعب المختار» كوارث محلية أولا، بينما خلقت المسيحية العالمية، بالتالي، عنفا كونيا: معها صارت كل القارات ساحة قتال.

بعد إعلانه قديسا من قبل الكنيسة، قام الأسقف هيبون في إحدى رسائله (١٨٥) بتبرير «الاضطهاد العادل». عبارة منتقاة! يقابل بها «الاضطهاد غير العادل». فما الذي يميز بين الجثة الجيدة والسيئة؟ وبين الجريح المحرم والجريح المحمي؟ كل اضطهاد يصدر عن الكنيسة يعتبر عادلا، فهو يمارس بمحبة؛ والاضطهاد الذي يستهدف الكنيسة لا يجوز الدفاع عنه، لأنه يستلهم القسوة.. لنتذوق بلاغة ومواهب السفسطة عند أوغسطين، الذي يقضي أن يحرك عيسى هو أيضا السوط، لا أن يتحمل آثاره من قبل عساكر الرومان المنفلتين.

## [٩]

## عيسى في هيروشيما

عيسى وسوطه، وبولس ونظرية السلطة المنبثقة عن السماء، وأوغسطين وحربه العادلة، يشكلون الثالوث المقدس الصادم والقادر على تبرير كل ما اقترف باسم الله منذ ألفي عام: الحروب الصليبية ضد العرب، وحملات التفتيش ضد المبتدعة المزعومين والحروب المسماة مقدسة ضد الكفار ـ لقد كتب سان بيرنارد في إحدى رسائله (٣٦٣): «الحل الأفضل هو قتلهم»، أو «موت الوثني نصر للمسيحي.. » ـ وغزوات التطهير الثقافي العرقي المسيحية جدا ضد الشعوب المسماة بدائية، والحروب الاستعمارية من أجل تنصير كل القارات، والنزعات الفاشية خلال القرن العشرين بما فيها النازية الهائجة ضد اليهود.

لن نستغرب إذن من كون المسيحية اختارت بخصوص الحرب ما بعد الحديثة جانب الردع النووي، ودافعت عنه ووجدت له الأعذار. فقد قبل يوحنا بولس الثاني مبدأ ١١ يونيو ١٩٨٢، من خلال اعتماد عبارة عجيبة في مفارقتها: إن القنبلة الذرية تمكن من المضي نحو السلام! وحذت هيئة الأساقفة الفرنسية حذوه وقدمت حججها: إن الأمر يتعلق بمحاربة «الطابع المهيمن والعنيف للإيديولوجية الماركسية اللنينية». يا لها من نصاعة في النص! ويا له من وضوح في المواقف! كم تمنينا إدانة بهذا الوضوح وهذه الصراحة للنازية إبان سنوات حكمها الإثنتي عشرة؛ بل كنا سنكتفي بتصريح أخلاقي مماثل بعد تحرير المعسكرات..

عند سقوط جدار برلين ولما كان التهديد البلشفي يبدو من مخلفات الماضي، حافظت الكنيسة الكاثوليكية على موقفها. ففي تقريره العقدي الأخير، دعا الفاتيكان إلى «احتياطات أخلاقية جدية» (بند ٢٣١٥) ـ ولنتذوق تورية العبارة ـ، دون أن يقدم أي إدانة. ضمن نفس السمفونية، وفي مقطع «لا تقتل» ـ ليحيا المنطق والانسجام ـ، نجد نفس الناس يدافعون ويبررون الحكم بالإعدام (بند ٢٢٦٦ ). ولن نندهش من عدم احتواء فهرس المحرمات لمدخل عن حكم الإعدام والعقوبة القصوى والعقاب، في حين تحضر مفاهيم الموت الرحيم والإجهاض والانتحار...

منطقيا انطلق فريق القاذفة الأمريكية «إينولا غي» ومعه قنبلة ذرية ألقاها فوق هيروشيما، كما يعلم الجميع يوم ٦ أوغست ١٩٤٥ . وتسببت القنبلة بموت ما يفوق المائة ألف شخص في ثوان معدودة، نساء وشيوخا وأطفالا ومرضى وأبرياء، ذنبهم الوحيد أنهم يابانيون. ويعود الطاقم إلى قواعده: لقد حمى إله المسيحيين هؤلاء الصليبيين الجدد. ولنذكر أن الأب جورج زابيلكا قد حرص

على مباركة الطاقم قبل بدء مهمته المهلكة! ثلاثة أيام بعد ذلك، تصيب قنبلة ذرية مدينة ناكازاكي، مخلفة ثمانين ألف ضحية. ولم يظهر وكيل الرب هذا إلا متأخرا فوق منصة لارزاك حيث التقى بتيودور مونو. لقد كان يقوم آنذاك بحج راجلا إلى بيت لحم. . .

[١٠]

**محبة القريب - تابع. . .**

تنتج نصوص القديس بولس، التي تنفع في إعطاء الشرعية للخضوع لسلطة الأمر الواقع، آثارا أخرى غير جعل الحرب والاضطهاد مشروعين؛ ففي مجال نظام الاستعباد، لا تختلف المسيحية في عدم تحريمه عن الديانتين التوحيديتين الأخريين. وستتسع لاحقا هذه العبودية، التي كانت محصورة في غنائم الغزوات القبلية، إلى التجارة الخالصة: بيع وترحيل الأهالي التي تستخدم كدواب أو ماشية.

كل التكريم للقدماء: بما أنهم الأولون زمنا، فنحن ندين لهم بالعديد من السيئات منها تأكيدهم وتشريعهم للعبودية. ولا تعطي الوصايا العشر للقريب اعتبارا أو مكانة متميزة ما لم يكن نظيرا - أي يهودياً - طبع على جسده سكين الحاخام؛ فغير اليهودي لا يتمتع بنفس حقوق عضو الرابطة اليهودية. وذلك بشكل يجعل أن الآخر، خارج الكتاب المقدس، يمكن أن يفتش كشيء أو يعامل كجماد: فهو من الأغيار بالنسبة لليهودي ومن الوثنيين المشركين بالنسبة للمسيحي ومن المسيحيين بالنسبة للمسلم؛ وهو الملحد بالنسبة لهم جميعا بطبيعة الحال.

يدافع سفر التكوين (١٠؛ ٢٥ - ٢٧) عن العبودية. فقد دخل الموضوع في التوراة بسرعة. . يتم شراء البشر باعتبارهم جزءا من البيت، ويقطنون تحت

نفس السقف مع اليهود ويتم ختانهم، لكنهم يظلون مع ذلك عبيدا. إن لعنة نوح، الذي اكتشف بعد استفاقته من سكر ثمل أن ابنه قد وجده عاريا وهو نائم، قد امتدت إلى شعب بكامله ـ كنعان مرة أخرى. . . ـ كُتِبَ عليه الاستعباد. ونجد في مواضع أخرى فقرات عديدة تقنن هذه الممارسة.

يعتني سفر «الليفيتيك» بالتأكيد أن على اليهودي تجنب استعباد أحد أبناء جلدته (٢٥؛ ٣٩ ـ ٥٥). هناك عقد كراء ينتهي بعد ست سنوات يسمح بموجبه لليهودي الخادم أن يستعيد حريته؛ لكن بالمقابل قد يبقى غير اليهودي عبدا حتى نهاية حياته. كان شعب الرابطة عبدا عند المصريين، ثم أخرجه يهوا من هذه الحال ليجعل منه، منذ تلك اللحظة، شعبا حرا يمكنه إخضاع الناس، لكنه لا يجب أن يخضع لأي نفوذ غير نفوذ الله. تلك حقوق شعب الله المختار. . .

لم يحصل تغيير مع المسيحية التي تبرر هي أيضا الاستعباد. إننا نذكر مبدأ أن كل سلطان يأتي من الله، وأن كل شيء ينبثق عن إرادته. وماذا عن وجود شخص في وضع عبد؟ إن حكمة الرب في ذلك لا يمكن بلوغها، لكن هناك سببا يبرر الحال: الخطيئة الأولى في المطلق، وهناك كذلك مسؤولية شخصية. ويريد أوغسطين للعبد أن يخدم سيده بتفان يرضى عليه الرب! فالله قد جعل العبد كذلك لخير أراده له هو يجهله، ثم إن خطط الله لا تسمح له أن يكون غير ذلك: فهذا القاصر الوجودي يحتاج أن يكون في وضع الاستعباد ليحيا بكرامة. . .

سفسطة أخيرة في النهاية: بما أن الناس سواسية في نظر الله، فلا يهم إن كانت هناك فوق الأرض اختلافات هي في نهاية الأمر ثانوية: رجل أو امرأة؟ عبد وسيد؟ غني وفقير؟ ذلك كله لا يهم، تقول الكنيسة ـ معتمدة انحيازا

تاريخيا منتظما للأغنياء والأسياد. . . فكل واحد يحيا كما أراده الله. فالثورة ضد الأمر الواقع تناقض المشيئة الإلهية وتهينها؛ والعبد الجيد الذي يؤدي دوره كعبد، مثل نادل المقهى عند جان بول سارتر، يفوز بالجنة (الخيال) من خلال خضوعه (الواقع) فوق الأرض.

وفي الوقائع التاريخية، لم تتجنب المسيحية أن تكون استعبادية: لقد منع البابا غريغوار الأول، منذ القرن السادس، وصول العبيد إلى المناصب الكنسية! ومنع قسطنطين قبله اليهود من أن تكون لهم عائلة؛ وكان هناك في القرون الوسطى آلاف من العبيد يشتغلون في الأملاك الفلاحية للحبر الأعظم. ولم تكن كبرى أديرة الرهبان تخجل من استخدامهم؛ فقد احتوى دير سان جرمان دي بري، على سبيل المثال، ما لا يقل عن ثمانية آلاف عبد خلال القرن الثامن.

أما المسلمون، الذي ورثوا هذا الأمر ضمن ما ورثوا عن الديانتين، فقد مارسوا العبودية التي لا يحرمها القرآن؛ بل إنه، على العكس من ذلك، يبرر الغزوات وغنائم الحروب من ذهب وفضة ونساء ودواب ورجال. إننا ندين للإسلام بتجارة العبيد؛ ففي سنة ألف للميلاد، كانت هناك تجارة منتظمة بين كينيا والصين. ويحرم القانون الإسلامي بيع المسلمين، ولا يحرم بيع غيرهم. تسعة قرون قبل تجارة العبيد العابرة للمحيط، كان التبادل العابر للصحراء قد افتتح هذه التجارة المقيتة. ويقدر عدد المرحلين خلال الألف ومائة عام، من قبل أتباع الله الرحيم الكبير والإنساني جدا، بعشرة ملايين.

ملحوظة: تستهجن الديانات الثلاث في عمقها الاستعباد، بما أن اليهود والمسلمين يحرمونه على أتباع طائفتهم، وبما أن المسيحيين، الذين يكرهون اليهود، يمنعون عليهم امتلاك خدم عبيد ويحظرون على العبيد دخول هرم

خدام كلمة الرب. أما بالنسبة لأعدائهم، فإن التوراة والعهد الجديد والقرآن تبرر الاستعباد لهم كعلامة سفالة، وبالتالي فهو ذلة من قدر الناس الدونيين، الذين هم دائما أولئك المستهجنون الذين يعبدون إلها مختلفا.

[١١]

## الاستعمار والتطهير العرقي والثقافي.

هنالك امتداد منطقي لتبرير الاستعباد والاستعمار وتصدير الدين لجميع أطراف الأرض واستعمال القوة والإكراه البدني والعقلي والنفسي والروحي، والإكراه المسلح بطبيعة الحال. إن تصدير العبودية وتوسيعها على كل القارات كان من فعل المسيحية، ثم من فعل الإسلام. أما الشعب اليهودي فلم يطمح إلى بسط هيمنته إلا على أرضه، دون استهداف أمر آخر. إن الصهيونية ليست نزعة توسعية ولا مذهبا دوليا، بل العكس: إن حلم تيودور هرتزل المتحقق يقتضي نزعة قومية وحركة منعزلة، أي رغبة بمجتمع مغلق على ذاته ـ وليست في الأمر رغبة بإمبراطورية تحكم العالم بكامله، كما هي رغبة الإسلام والمسيحية.

تبرع الكنيسة الكاثوليكية الرسولية الرومانية في تدمير الحضارات. لقد ابتدعت التطهير الثقافي. ف ١٤٩٢ ليس رقما يؤرخ فقط لاكتشاف العالم الجديد، بل هو يؤرخ أيضا لتدمير عوالم أخرى. لقد قامت أوروبا المسيحية بإتلاف عدد هائل من حضارات هنود أمريكا. وكان الجندي ينزل من السفن هناك مصحوبا بحثالة مجتمعه: أصحاب السوابق والمجرمين والمرتزقة.

ثم بعد مدة، أي بعد تحقق التنظيف الإثني المتتالي من قبل البعثات البحرية، يتلوهم الرهبان بمواكب وصلبان ورموز دينية منقولة تصلح للوعظ بمحبة القريب وبغفران الذنوب وبلطف الفضائل الإنجيلية وباقي مباهجها ـ من

الخطيئة الأولى ومقت النساء والجسد والحياة الجنسية والمسؤولية بالذنب. وفي انتظار ذلك، تقدم المسيحية مرض الزهري وغيره من الأمراض المنقولة للشعوب المسماة متوحشة كهدية ترحيب.

إن رفقة الطريق بين المسيحية والنازية كانت تستهدف إبادة شعب تم تحويله إلى قاتل للرب، بغرض الدفع بالقضية. ونضيف إلى ذلك التواطؤ في تهجير واغتيال الغجر والمثليين والشيوعيين والماسونيين وأهل اليسار والعلمانيين وأتباع يهوا والمقاومين للفاشية والمعارضين للحزب الوطني الاشتراكي الألماني. .

إن ميل المسيحيين لإبادة الشعوب قديم ولم ينته. فحديثا كان التطهير العرقي للتوتسي من قبل الهوتو موضوع مساندة ودفاع وتغطية من المؤسسة الكاثوليكية المحلية، وحتى من قبل الحبر الأعظم نفسه الذي كان، لكي يجنب مجرمي حرب التطهير العرقي من كهان ورجال دين ومنخرطين بالطائفة الكاثوليكية قصاص العدالة، أسرع في الظهور منه لكي يقدم كلمة مواساة وتعاطف مع شعب التوتسي.

ذلك أن الكنيسة، في *الماضي*، *كانت قد* مارست في رواندا، البلد ذي الأغلبية المسيحية، تطهير التمييز العرقي في ولوج الحلقات الدراسية، وفي التكوين، وفي إدارة المدارس الكاثوليكية، وفي الترتيب والترقي بالهرم الكنسي. وفي الوقت الحاضر، شارك بعض عناصر المؤسسة الكنسية بنشاط في حرب الإبادة العرقية: كان ذلك من خلال شراء فؤوس الأدغال وتسريبها، وتحديد مواقع الضحايا، بل وحتى من خلال المشاركة الفعلية في أفعال وحشية ـ كحبس الناس داخل الكنيسة ثم إحراقها وجرف الآثار بجرافة بعد ذلك ـ وكذا الوشاية والتعبئة من خلال الخطب الكنسية، واعتماد لغة عرقية.

وتصر الكنيسة الكاثوليكية بعد المجازر على ذلك الخط، من خلال استعمال الأديرة وأصحابها لإخفاء بعض المذنبين المسيحيين عن نظر العدالة، وتنشيط الشبكات للسماح برحيل هذا المجرم أو ذاك إلى الدول الأوروبية، ومنح تذاكر طائرات نحو أوروبا بفضل جمعيات إنسانية مسيحية ـ منظمة «أعمال إحسان دولية» وهو إحسان منظم بإحكام على ما يبدو. . ـ، وإعادة تأهيل قساوسة مذنبين داخل أبرشيات بلجيكية وفرنسية ومنح غطاء لأساقفة متورطين، وكذا اللجوء إلى مواقف تنكر الواقع ـ حيث يتم رفض استعمال مصطلح حرب التطهير العرقي، وتفضل الكنيسة عبارة «حرب قتال الأخوة».

أما البابا الصامت عند الاستعدادات للجرائم، والصامت إبان المجازر ـ ما يقارب المليون من الموتى في ظرف ثلاثة أشهر (بين أبريل ويونيه ١٩٩٤) ـ، والصامت عند اكتشاف فداحة المجزرة ـ المقترفة بمباركة فرنسوا ميتران ـ، فقد خرج عن صمته ليكتب، في ٢٣ أبريل ١٩٩٨، رسالة إلى رئيس الجمهورية الرواندية. ما مضمون الرسالة؟ هل يأسف على ما حدث؟ هل يشاطر ألم الضحايا؟ هل يعلن الندامة؟ هل يتأسف؟ هل يحمل على رجال كهنوته؟ هل يعلن فك ارتباطه معهم؟ لا، أبدا، لا شيء من كل هذا: لقد طلب إيقاف تنفيذ حكم الإعدام ضد مرتكبي التطهير العرقي من الهوتو؛ دون أن تكون له أبدا أية كلمة بخصوص الضحايا.

[١٢]

## كبت ونزعات موت

إن افتتان الديانات التوحيدية الثلاث بنزعة الموت يمكن تفسيره كالتالي: كيف يمكن تجنب سيادة نزعة الموت عندما نرى هذا القدر من القتل لكل ما يصدر، في داخل المرء وفي خارجه، عن نزعة الحياة؟ ينتج عن الخوف من

الموت، وخشية العدم والذهول أمام الفراغ الذي يلي موت شخص ما، حكايات وخيالات مواسية تسمح للنفي بامتلاك سلطات مطلقة. فالواقع لا وجود له، بعكس الخيال الذي يوجد بحق. فهذا العالم الخيال المزيف، الذي يساعد على العيش هنا والآن باسم عالم زهيد الثمن، يقود إلى نفي واحتقار الحياة الدنيا وكرهها.

ومن ثم تأتي المناسبات العديدة التي تمكن من رؤية هذا المقت فعلا: في الجسم، والرغبات والأهواء والميول والشهوة والنساء والحب والجنس وفعلا في الحياة بكل أشكالها، وفي المادة وفي كل ما ينمي الوجود في هذا العالم، من عقل وذكاء وكتب وعلم وثقافة. فهذا الكبت لكل ما يحيا يقود إلى الاحتفاء بكل ما يموت: الاحتفاء بالدم والحرب وبكل ما يقتل ـ وبكل من يقتلون. فإذا كانت الاجتزاءات النصية تمكن من أن ينتقي المرء داخل الكتب الثلاثة المقدسة ما يدعم نزعة الحياة بطاقة قصوى، فإن الدين يريد نزعة الموت في كل صيغها. إن كبت الحياة يولد حب الموت. وبصفة عامة، ترافق احتقار للنساء ـ اللائي تفضل عليهن العذارى والأمهات والزوجات ـ طقوس عبادة الموت..

تنشأ الحضارات مع نزعة الموت؛ فدم الأضحية وكبش الفداء وبناء المجتمع بالذبح التعبدي، كل ذلك يعتبر ثوابت اجتماعية مشؤومة. وإن في إبادة اليهود للكنعانيين، وفي صلب المخلص عند المسيحيين وفي الجهاد الإسلامي عند النبي محمد؛ في كل هذا إراقة للدم الذي يبارك ويطهر القضية التوحيدية. إنه ذات الرواء البدائي السحري ونحر الأضحية التكفيري، من رجال ونساء وأطفال. إن روح البدائية مستمرة في عصر ما بعد الحداثة، كما أن الحيوان مسترسل في الإنسان والدابة باقية في الإنسان البدائي المتطور (homo sapiens).

# III
# من أجل علمانية ما بعد ـ مسيحية

## [١]

### شغف المسلمين بالدم؛

إن الإسلام الذي يعتبر توليفا جيدا للديانتين التوحيديتين اللتين سبقتاه، والذي جعلهما تتأقلم مع صحراء العرب المنتظمة قبليا وإقطاعيا، يستعيد لحسابه أسوأ أقوال اليهود والمسيحيين: الأمة المختارة والإحساس بالتفوق، والمحلي المحول إلى كوني والخاص الموسع إلى العالمي وإخضاع الجسد والروح لمثال الزهد، وعبادة نزعة الموت، وحكم الله المؤشر على إبادة الاختلاف والتعدد ـ استعباد، واستعمار وقتال وغزو، وحرب شاملة، وحملات تأديبية، وقتل واغتيال . . .

لنذكر أن موسى قد قتل بيديه رئيس عمل مصري؛ وأن النبي محمد كان يبيد الناس بطريقة منتظمة خلال معاركه التي قادها منذ معركة النخلة (نهاية ٦٢٣) ـ أولى معارك الإسلام التي انتهت إلى العديد من القتلى ـ وحتى ٨ يونيه سنة ٦٣٢ يوم وفاته. وهذا بيان بحروب ومعارك وغزوات وحصار وتدخلات القوة وغير ذلك من الوقائع المسلحة العسكرية المسلمة: غزوة بدر (مارس ٦٢٤) ـ موت أبي جهل وأول شهيد مسلم من صحابة الرسول ـ؛ وأُحُد (مارس ٦٢٥) ـ

جرح النبي محمد وعشرات الشهداء ـ؛ وشرق المدينة ( نهاية ٦٢٦ وبداية ٦٢٧) ـ قتل بعض اليهود ـ؛ ومعركة الخندق (٦٢٧)؛ ومعركة واحة خيبر (ماي ـ يونيو ٦٢٨) ومؤتة. . الخ. ولم تكن آية ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (المائدة: ٣٢) لتزعج منام قارئ القرآن الهنيء هذا. .

ذلك أن ما يقارب ٢٥٠ آية ـ من أصل ٦٢٣٥ آية في القرآن ـ تبرر وتشرع الحرب المقدسة: الجهاد. وهي تكفي لتغرق في بحر النسيان تلك الجملتين أو الثلاث جمل المسالمة والتي تدعو إلى التسامح واحترام الآخر والمروءة ورفض الإكراه في الدين! فوسط هكذا بحر من الدماء، من سيمكنه أن يتحمل عناء الوقوف عند جملتين أو ثلاث تدعو إلى الإنسانية بدل البربرية؟ خصوصا وأن سيرة النبي محمد تشهد على الأمر: نجد فيها القتل والجريمة والسيف والحملات التأديبية باستمرار. هناك إفراط في الصفحات الداعية إلى معاداة السامية وكره اليهود ونهبهم وإبادتهم، وهو ما لا يحول دون إيمان مقاتل مسلم بشرعية إخضاع اليهود لحد السيف.

تفكر الأمة المسلمة بنفس طريقة أعضاء الرابطة اليهودية: فالمسلمون يعتبرون أيضا أنفسهم مختارين ومنتقين من قبل الله ومفضلين عنده (التوبة؛ ١٩ وكذلك آل عمران ١١٠). والحال أن موضع النخبة لا يتسع لوجود فريقين يطمحان إليه! فالاعتقاد أن الآخرين هم من عرق أدنى، وأن هناك بشرا أدنى من بشر وأن الله يضع هرما تراتبيا للناس يميز داخله الطائفة الصغيرة المميزة عن باقي الإنسانية، يجعل من الحرام أن يطمح آخر إلى نفس منصب التمييز. وقد ولد كره العبريين للكنعانيين في الماضي كره الفلسطينيين لليهود اليوم، فكل يعتقد أن الله يدعوه لسيادة الآخر ـ الآخرين ـ والسيطرة عليه، وبالتالي يتصور أن إبادته شرعية.

ذلك أن الإسلام يرفض في جوهره المساواة الميتافيزيقية والوجودية والدينية، وبالتالي السياسية. ويشير القرآن إلى ذلك: فعلى قمة الهرم يتربع

المسلمون، وفي الأسفل منهم نجد المسيحيين لكونهم أهل كتاب هم كذلك، ثم اليهود وهم من نفس الصنف لأنهم ذوو عقيدة توحيدية. وأخيرا وراء المسلم والمسيحي واليهودي، يأتي في المرتبة الرابعة مجموع الكفار والزنادقة والمشركين، كل الأصناف مجتمعة في اللعنة ومعهم بطبيعة الحال الملحدون. . والقانون القرآني الذي يحرم القتل وارتكاب الجنح والسفك بحق القريب هو قانون يخص بشكل حصري عناصر الطائفة: الأمة. كما هو الشأن عند اليهود.

وتستمر التراتبية حتى في قلب الطائفة المسلمة، ذات الأعضاء المتساوين زعما: فالرجال يستبدون بالنساء والفقهاء بالمؤمنين والمؤمنون الورعون بالمتعبدين المترددين، والشيوخ بالشباب. حكم الذكور، وحكم الحق الإلهي، وحكم الشيوخ، فالنموذج القبلي والبدائي الأصيل لم يتوقف منذ ثلاثة عشر قرنا. إنه لا يتوافق بالأساس مع المجتمعات المنبثقة عن فكر الأنوار. إن المسلم ليس أخويا: إنه فعلا أخ لشريكه في الدين، لكنه ليس أخ الآخرين الذين لا يكادون يُعتبرون في نظره.

[٢]

## المحلي باعتباره كونيا

وهم في ذلك كما لو أنهم كانوا قراء لكارل شميت ـ الذين لم يقرأوا له طبعاـ، يقسم المسلمون العالم إلى قسمين: الأصدقاء والأعداء. فيوجد من جهة الأخوة في الإسلام ومن جهة ثانية الآخرون، كل الآخرين؛ دار الإسلام ضد جار الحرب: عالمان لا يلتقيان ولا يتناسبان تحكمهما علاقات متوحشة وعنيفة: الناهب والفريسة، الآكل والمأكول، المسيطر والمسيطر عليه. مثل حال أتفه غاب، حيث تجتمع اللواحم في ما بينها فيما يجب إخضاع باقي

الأراضي واستعبادها وامتلاكها. إنه نفس القانون المنظم لعلاقات الحيوانات.

تلك رؤية ليست بعيدة عن رؤية هتلر التي تبرر منطق التعليم والامتلاك والتدبير وامتداد الأراضي. الثعلب وبيت الدجاج؛ الصقر وفريسته؛ الأسد والغزالة؛ الأقوياء والضعفاء؛ الإسلام والآخرون. لا حقوق ولا قانون، ولا لغة ولا تبادل، ولا تواصل، ولا تفاهم ولا دماغ، بل فقط عضلات وغريزة وقوة ومعركة وحرب ودم.

وما الكوني؟ إنه المحلي من دون أسوار ـ استعمالا لفكرة **ميغيل تورغا** ـ. إن قبلية القرن السابع وإقطاع صحراء العرب، والتعصب البدائي الذي يتم نقله عند كل مرة، دون تغيير، إلى داخل حضارة اللحظة، بما فيها حضارتنا نحن، أي حضارة ما بعد الحداثة والصناعة المتطورة والرقميات. إن قرية الصحراء صارت نموذج العالم؛ وتلك الواحة التي لا يدخلها شيء منذ قرون، ما عدا قوافل الرحل المحملة بالمواد الغذائية الضرورية، تشتغل اليوم كنموذج اجتماعي وإنساني وميتافيزيقي وسياسي مثالي.

إن كتابا يرجع لبداية ٦٣٠ م والذي يفترض أنه تم إملاؤه على راعي جمال أمي، يقرر في تفاصيل الحياة اليومية لملايين الناس في عصر سرعة الصوت وغزو الفضاء وتعميم المعلوميات على الكون وعصر التواصل المباشر والكوني المعمم وعصر مشهدية خارطة الجينوم البشري والطاقة النووية وبداية عصر ما بعد ـ الإنسان.. نفس الملاحظة تنطبق على المتدينين المرتبطين بالتوراة وبالتلمود والذين يشاطرون الآخرين هم أيضا نسيان مشابه للزمن الذي يمر.

فكما كان الأمر تحت الخيمة قبل ألف وخمس مائة سنة، تظل الأسرة هي النواة. فليست الجماعة الوطنية أو القومية وبدرجة أقل الكيان الكوني والعالمي، بل جماعة رب الأسرة الذي يملك زوجتين خاضعتين، أو ثلاث أو

أربع ـ لأن تعدد الزواج البدائي مستمر في التلمود كما في القرآن (سورة النساء؛ ٣)، وسط أطفال كثر ـ تلك نعمة ربانية؛ والسلطة مصدرها الله طبعا، لكنها تمر من خلال أصوات الأب والزوج ـ ظلال الرب فوق الأرض.

ينجز المرء كل عمله وهو تحت نظر القبيلة التي تحكم عليه، وفق معيار التطابق مع قواعد القرآن والمسلمين. فهناك الأب، بل ضمن منطق ذكوري شامل، هناك أيضا الأخ الأكبر والأخ وكل التنوعات بموضوع الذكر. وتعتبر هذه النواة الأساس للمجتمع مكان الدين المجسد في الواقع، وبالتالي مكان السياسة والحكم بالحق الإلهي. فلا يغلط في ذلك **أفلاطون** ـ في كتاب **«الجمهورية الفاضلة»** ـ ولا **هيغل** ـ في **«مبادئ فلسفة الحق»** ـ، ولا **موسوليني**، ولا **هتلر** ولا **بيتان** ولا غيرهم من الفاشيين: كلهم يؤكدون أن بداية الأمة وشجرة أصول الجماعة تنمو داخل المجال الحميمي للأسرة ـ أي القبيلة البدائية. يجب مراجعة كتاب **إنجلز** **«أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة»** مرات ومرات للاقتناع بذلك. . .

## [٣]

## النجمة الصفراء والوشم عند المسلمين

ضمن منطق الطائفة التي تحتوي داخلها وتطرد خارجها، قلما نعلم أن العلامة الصفراء المميزة ـ تكون عمامة أحيانا ـ التي تحمل فوق اللباس هي في الأصل قرار خليفة بغداد، في القرن التاسع ـ فترة تنعت عادة بالعصر الذهبي للإسلام. . . ـ، الذي كان يريد تمييز اليهود والنصارى من خلال علامة سرعان ما غدت شائنة.

إن للمسلمين مفهوماً ـ **الذمية** ـ ينعتون من خلاله ما يعتبرونه ميثاق حماية غير المسلم فوق أرض الإسلام، على أن تكون الرعية من أهل الكتاب ـ مع

استثناء للمجوسية منها. ويقدم الإسلام نفسه هنا نظريا دين سلام وتسامح؛ ولكن الذمية تقتضي في الواقع ضرائب ومكوسا تقتطع من اليهودي أو المسيحي أو المجوسي حتى يسمح له بالعيش فوق أرض الإسلام. إنه في العمق إذاً ثمن فدية وابتزاز.

وبعد اكتساب هذه الحماية (!)، يجد الذميون حقوقهم المدنية مقتصرة على أمور ضئيلة لا تكاد تذكر. ففي هذا المجتمع القبلي، الذي يعتبر فيه الحصان أداة الحياة والتنقل والقتال ووسيلة إبراز طبقة الانتماء الاجتماعي، فإن هذا الحصان يحرم على غير المسلم، بينما يرخص له بالحمار والبغل ـ تلك المطية الذليلة الممتطاة على طريقة النساء؛ ويسمح له بالمشي في الشارع، لكن يمنع عليه تجاوز المسلم؛ ويعتبر حمل السلاح بطبيعة الحال محظورا عليه، أو قل إنه أعزل، وبالتالي فهو تحت رحمة اللصوص وقطاع الطرق. وبالإضافة للثوب الأصفر السيئ الذكر، يتم أحيانا وشم صورة أسد على يد هؤلاء الذميين أو رقم على ساعدهم.

إن إلغاء حكم الذمي نظريا يعود لسنة ١٨٣٩؛ لكنه في الواقع وجب انتظار نهاية الحرب العالمية الأولى لكي تتخلى الإمبراطورية العثمانية نهائيا عن هذه الممارسة، التي صارت مستحيلة التطبيق والمراقبة... وبطبيعة الحال، فالحماية التي تكتسب على الورق مقابل التنازلات والإهانات، لم تكن تمنح دائما للمؤمنين من غير المسلمين الذين يؤدون مع ذلك بإخلاص ضريبتهم ويقبلون بالعيش كأناس من درجة ثانية.

**[٤]**

## ضد المجتمع المغلق

إن تسجيل الإسلام ضمن تاريخ خاص يلغي التاريخ الكوني أمر يولِّد مجتمعا

مغلقا وجامدا ومقفلا على ذاته ومفتتنا بجمود الأموات. كما كان الحال بالنسبة للماركسية التي ادعت تحقيق التاريخ من خلال إلغائه وقدسته تقديسا يقترب من التدين لكي تنجح بتصفيته، فإن الطموح الإسلامي لحكم العالم في نهاية المطاف يستهدف تنظيما ثابتا غير تاريخي، يهجر حركية الواقع والعالم من أجل بلورة خارج الزمن لعالم يتم تصوره على غرار العالم الخلفي. إن المجتمع الإسلامي يطبق مبادئ القرآن وبالتالي يُفترض أن يعطي مخيم رحَّل عالمياً تدوي داخله بعض الهزات العميقة، التي ليست سوى أصوات كرات تدور حول نفسها في الفراغ محتفية بعدم وخواء ولا معنى لتاريخ الميت.

إن كل حكم بالحق الإلهي يحيل على نموذج خيال خارج الزمن وخارج المكان إنما يروم، ضمن زمن التاريخ الملموس وضمن جغرافيا فضاء ملازم، إعادة إنتاج للنموذج المجرد على طريقة التصوير والنسخ. ذلك أن تصاميم مملكة البشر محفوظة في مملكة الله. إن فكرة المثل الأفلاطونية، الفكرة التوأم لفكرة الله الذي ليس له تاريخ ميلاد ولا ترتقب له وفاة والذي لا يعرف تأثير الزمان والأجواء كما لا يعرف النقص؛ ولأنها مثلا كاملة، فإنها تولد خرافة مجتمع مغلق تنطبق عليه هو نفسه صفات عالم الفكر.

تعيش الديمقراطية على الحركة وعلى التغيرات والترتيبات التعاقدية، وعلى الزمن السلس والحركية الدائمة والعلاقات الجدلية. إنها توجد وتحيا وتتغير وتتحول وتبنى بالنظر إلى إرادة تصدر عن قوى حية؛ كما تلجأ إلى استعمال العقل والحوار بين الأطراف المشاركة وإلى الفعل التواصلي والدبلوماسية وكذا التفاوض. أما حكم الحق الإلهي فيشتغل بالعكس من ذلك: إنه يولد ويعيش ويستمتع بالجمود وبالموت وباللا معقول. ويعتبر حكم الله أكثر الأعداء الذين تخشاهم الديمقراطية، فقد كان هذا الحكم قبل البارحة في باريس ما قبل

١٧٨٩، وبالأمس ـ سنة ١٩٧٨ ـ رأيناه بطهران، واليوم نسمعه كلما جعل تنظيم «القاعدة» المتفجرات تتكلم.

[٥]

## في النزعة الفاشية الإسلامية

مازالت النزعة الفاشية تثير حفنة من المؤرخين المعاصرين لم يتفقوا حول تعريف صارم ونهائي بشأنها. فهل كان الماريشال بيتان فاشيا؟ البعض يراه قوميا ووطنيا؛ ويضيفون إلى أن فيشي قدم يمينا متطرفا، ليس فاشيا بالضرورة.. إنه نقاش بيزنطي: لقد عرف القرن العشرون عدة نزعات فاشية، لكل منها خصوصيتها. ويمكن نعت المائة عام الأخيرة بـ «قرن النزعات الفاشية». فهي تكون سمراء وحمراء في أوروبا وآسيا وبنية في أمريكا اللاتينية؛ لكنها تكون خضراء أيضا وهو أمر ننساه في أغلب الأحيان.

ذلك أن قلب نظام الشاه في إيران سنة ١٩٧٨، والسيطرة على السلطات هناك من قبل آية الله الخميني بعد وقت قصير ومعه مائة وثمانون ألفا من الملالي، يعتبر تدشينا لفاشية مسلمة حقيقية ـ وهي ما تزال قائمة بعد ربع قرن من ذلك، بمباركة من الغرب الساكت والناسي. فبعيدا عما اعتقده ميشيل فوكو خطأ في أكتوبر ١٩٧٨، عندما اعتقد أن الحدث يعبر عن بروز «روحانية سياسية» تنعدم عند الغربيين، فإن الثورة الإيرانية قد أنجبت حركة فاشية إسلامية تدشن لهذه النزعة في تاريخ هذا الدين.

نعلم اليوم أن ميشيل فوكو قد جانب فهم الحدث بفداحة. ليس فقط لأنه يؤكد في جريدة «لاكوريبري دي لا سيرا» الايطالية، يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٧٨، ما يلي: «لن يكون هناك حزب خميني ولن تكون حكومة خمينية» ـ وقد كذبته الوقائع في ذلك بقسوة بعد أربعة أشهر ـ ولكن لأنه يقول إن «الحكومة

**الإسلامية هي أول ثورة كبرى ضد الأنظمة الكونية، وإنها الشكل الأكثر حداثة للثورة»**، دون أن يفكر أدنى لحظة في إمكان قيام حكومة تستلهم الشريعة. . فما الذي كان يعرفه فوكو حقا عن القرآن وعن الإسلام؟

كان يفترض في فوكو، الذي كان قد تأمل في الوقت الذي كتب فيه هذه المقالات عن الثورة الإيرانية لليومية الايطالية مواضيع الحبس والحمق والسجن والمثلية الجنسية والجنون، كان يفترض فيه أن يعرف أن حكومة إسلامية ستقوم بتنمية كل ما كان يحاربه: أي التمييز الجنسي وسجن الهوامش، وتقليص الاختلافات، ومنطق الاعترافات ونظام السجون وترويض الأجسام ونموذج النظرة الشمولية ومجتمع التأديب والعقاب. . . و. . و. فقراءة القرآن وتعلم الأحاديث ـ مصدري التشريع الإسلامي ـ كانا كافيين لمعرفة أن حكومة إسلامية ستكون أبعد من أن تعني عودة البعد الروحي ضمن المجال السياسي، وإنما علامة دخول الإسلام مجال سياسة ما بعد الحداثة التي تدشن، من خلال مبدأ حاكمية الله، نزعة فاشية إسلامية لم يرصدها فيلسوف ميكروفيزياء السلطة الحاذق. .

[٦]

## كلمات آية الله

عادة يخلِّف رجال السياسة الذين يقومون بالتنظير للسلطة مؤلفات جافة ومباشرة تروم الأهم وتجمع إما برامجهم أو نتائج هذه البرامج. فقد ترك ريشليوه **«الوصية السياسية»** ووقع لينين **«الدولة والثورة»** ونشر الجنرال دوغول **«حد السيف»** وموسيليني **«المذهب الفاشي»**، ثم هتلر في كتابه الشهير **«كفاحي»**. . . إلخ. . نجد داخل الكتب بالتتالي: نظرية للشرعية الملكية، ودليل مبادئ ماركسية لينينية للاستعمال البلشفي، ورسالة في علم الحرب

الحديث، ومؤلفاً في مبادئ الفاشية، ونظرية عرقية نازية.

أما آية الله، فقد خلَّف وراءه بعد موته كتاب «الوصية السياسية الروحية»، الذي ينظِّر للحكومة الإسلامية التي استثارت ميشيل فوكو فكريا خلال الأيام الأولى للثورة الإيرانية. يصوغ هذا المرجع الشيعي كلاما بطريقة بسيطة ـ بل موجزة ـ البرنامج السياسي لحكومة إسلامية: كيف يمكن من خلال القرآن والحديث ـ أي اعتمادا على الشريعة ـ حكم العقول والأجساد والأرواح وفق الدين الإسلامي؟ إنه مختصر الحكم الإسلامي بالحق الإلهي ـ، وهو مختصر لا جدال بنزعته الفاشية.

إن الحكم بالحق الإلهي الإسلامي ـ كغيره في الأديان الأخرى ـ يقتضي إنهاء الفصل بين العقائد الخاصة والممارسة العامة. فيترك ما هو ديني الأعماق الداخلية للإنسان ويقتحم كافة مجالات الحياة الاجتماعية؛ وبذلك تنتفي العلاقة المباشرة مع الله لحاجة شخصية ضمن سجل الحميمية الروحية، بل تصير علاقة غير مباشرة، تتوسط فيها الطائفة السياسية وتوجد على مستوى محكومية الغير. تلك نهاية الدين للذات وبروز الدين للغير.

ويصير الدين بالتالي مسألة دولة، لا مسألة طائفة محدودة أو مجموعة منحصرة، بل قضية مجتمع بأكمله. وتعرف النزعة الشمولية هذا التعميم لما هو سياسي على كامل المجال الإنساني. تخدم الدولةَ فكرةٌ ـ عرقية وفاشية وإسلامية ومسيحية و. . . ـ، وتقوم الأسرة والعمل والبيت والمدرسة والثكنة والمستشفى والجريدة والنشر والترفيه والقراءات والحياة الجنسية والمحكمة والملعب والثقافة وما إلى ذلك. . . تقوم مقام الإيديولوجية المهيمنة. ذاك أصل مفاهيم الأسرة الإسلامية والعمل الإسلامي، والبيت الإسلامي، والمدرسة الإسلامية، وهكذا دواليك. . .

## [٧]

### الإسلام عتيق بنيويا

كيف يمكن تشريع الاستعمال الشمولي والملازم للقرآن؟ من خلال ادعاء امتلاك القراءة الوحيدة والواحدة للكتاب المقدس. وتمكن الاجتزاءات النصية من تقديم خريطة إسلام بطيف ممتد؛ إذ يمكن اليوم إدعاء الانتساب للرسول وشرب الكحول وأكل الخنزير ونفي الحجاب ورفض الشريعة ولعب القمار وحب كرة القدم والموافقة على حقوق الإنسان وتمجيد فكر الأنوار الأوروبي ـ كما يدعي ذلك الذين يريدون تحديث الدين الإسلامي واعتماد إسلام علماني حديث وجمهوري، وغير ذلك من الأمور الباطلة التي يصعب الدفاع عنها.

في إطار نفس المنطق غير المنسجم، يمكن للمرء أن يكون مسيحيا ولا يعتقد فعلا بوجود الله ويمكنه السخرية من العظات البابوية والاستهزاء بالتعميد وعدم قبول أسرار القربان المقدس وإلغاء العقيدة واستبعاد كل تعاليم المجمع الديني! إن مبدأ الاجتزاء النصي يسمح اليوم بتكريس طقس معين لمجرد الدال الذي يدل عليه، مع إفراغه تماما من مدلوله. فيصير المرء يعبد قشرة فارغة، ويسجد للاشيء ـ وهي إحدى العلامات الدالة على النزعة العدمية لعصرنا.

على الطرف الآخر لهذا الطيف نجد العكس: نجد اتباعا شديد التدقيق لتعاليم القرآن. وهنا يكمن أصل ممارسة تعدد الزوجات وسلوك كره المرأة، وهيمنة الذكورة اليومية، ونفي الميزة الوجودية لكل من هو غير مسلم، وتبرير قتل الكفار ـ موحدين وملحدين ـ، واحترام ورع لطقوس العبادة وفرائضها واستنكار كل استعمال للعقل، إلخ...

إن القرآن لا يسمح بدين وفق الطلب. فلا شيء يبرر استبعاد كل السور التي تزعج الحياة المريحة والبورجوازية والمندمجة في ما بعد الحداثة. وفي

المقابل، لاشيء يمنع ـ بل إن كل شيء يرخص بذلك ـ قراءة متأنية تدقيقية، كمنطلق لتبرير كل الشطط الذي يدعو له الكتاب الأقدس: لا أحد مجبر على التحول إلى الإسلام، لكن المرء حين يعلن الأمر عليه بقبول النظرية والتعاليم والتحرك بناء عليها، فالأمر يتعلق بمبدأ الانسجام الخالص. إن الحكم الإسلامي بالحق الإلهي يبرز أقصى انسجام ممكن بهذا الموضوع.

ذلك أن الإسلام عتيق بنيوياً: فهو يناقض نقطة بنقطة كل ما وصلت إليه فلسفة الأنوار، منذ القرن الثامن عشر بأوروبا والتي تقتضي إدانة الشعوذة ورفض التعصب، وإلغاء الرقابة، ورد الطغيان، ومعارضة الاستبداد السياسي، ونهاية دين الدولة، وإبعاد الفكر السحري، وتوسيع كل حرية تفكير وتعبير، وإعلان المساواة في الحقوق، واعتبار أن كل قانون ينتمي إلى العلاقات التعاقدية والرغبة بسعادة اجتماعية هنا والآن، والطموح إلى عالمية سيادة العقل، هي موضوعات يرفضها القرآن بشكل واضح على طول سوره. . .

[٨]

## مواضيع فاشية

يصور الخميني شخص الإمام على أنه «قرآن مرفوع» ـ وليس في الأمر لعب بالألفاظ. وهو بذلك يمتلك نفس سمات البابا وخصوصا مسألة العصمة. إنه مرشد روحي وقائد سياسي كذلك. وكما كان زعماء الحكومات الفاشية في العالم خلال عصورهم، فهذا القائد الإسلامي ذو المقام العالي يقول القانون قولا: إنه منطق الكلام الإنجازي. إن مَنْ يحتكر القراءة الصحيحة للقرآن وهو وحده المؤهل لاجتزاء ما يبدو له مبررا لحكم شامل بالحق الإلهي.

ذلك أن القرآن يحتوي كل شيء، وتمكن قراءته من إيجاد كل الأجوبة لكل الأسئلة الممكنة والمتخيلة: في المال والتجارة والقانون والعدالة والحقوق

والسيادة والنساء والطلاق والأسرة والنظام الجيد والبيئة والثقافة. لا شيء يغيب عنه: كل شيء موجود. كما أنه بإمكان كل وزير في حكومة غربية أن يجد ما يفيده لقيادة عمله. ويمتلك الزعيم الأسمى مصدر إلهام أسمى هو النص المقدس وبالتالي تندرج كلماته ضمن القوانين الرسمية. تلك نظرية الإنسان الرباني.

إلى ذلك، يجب إضافة منطق ثنائي يقابل بين الأصدقاء والأعداء. لا وجود لنسبية أو تفصيل أو تدقيق، ولا حاجة للتمحيص بهدف معرفة مع من سيتم القتال وضد من. فالأعداء في منطق الثورة الإيرانية هم أمريكا وإسرائيل والغرب والحداثة والقوى العظمى. هي أسماء متعددة تنحدر من نفس الكيان: الشيطان، إبليس، أمير الشر. تسلك كل نزعة فاشية نفس المنحى عند تسمية العدو، الذي تتم شيطنته إلى أقصى حد بهدف تهييج وإثارة الجيوش التي تستعد للقتال. نظرية كبش الفداء.

وهناك موضوع مشترك بين النزعة الفاشية والتيار الإسلامي هو الطموح إلى منطق ما بعد ـ سياسي. أي ما معناه لا يسار ولا يمين؛ بل بعيدا عن ذلك وفي ما وراءه، وفوقه؛ في جهة الله. وبالتالي فلا علاقة باليسار الماركسي البلشفي السوفياتي آنذاك، الذي كان ملحدا وماديا وشيوعيا؛ ولا علاقة كذلك باليمين الأمريكي، ذي النزعة الاستهلاكية والاستلذاذية والفاسد وصاحب مذهب المقاولة ورأس المال. يجد النظامان نفسيهما مرفوضين. نظرية نهاية السياسي.

وبالتالي يبرز منطق *مفارق*: الله كحل للمتناقضات... بحيث يحتفظ هذا المنطق بتوليف جزئي للنظامين المحمول عليهما فيأخذ عن اليسار خطاب التضامن مع المحرومين، ويتوجه بكلامه إلى البؤساء ويبرز في خطبه اهتماما

حقيقيا ذا نزعة شعبوية بالقضاء على الفقر في العالم؛ ومن حضن اليمين يجتزئ الرأسمالية الخاصة الصغرى والملكية العقارية. ويبدو كل هذا منسجما بفضل الله ـ العامل الرابط. تلك نظرية نهاية التاريخ.

ومن ناحية أخرى، تلتحم النزعة الفاشية والتيار الإسلامي ضمن منطق روحاني. وعلى النقيض من العقل في التاريخ أو من التسلسل المعقول للأسباب، أو من كل علاقة جدلية بناءة، ينشر آية الله رسميا قانون اللا عقل واللا معقول. ويدعو الجمعي إلى التضحية بالمفرد، وعلى كل ذات فردية أن تذوب في الكل المؤسس كذلك وذلك بشكل يجعلها تكتسب من خلال تلك التضحية هوية جديدة، هوية ذوبانية: هوية المشاركة في الجسم الرمزي للمجتمع، وبالتالي المشاركة في جسم الأمة، أي جسم الله. من ثم يأتي ذلك المصير الإلهي (المزيف) لما هو إنساني. نظرية نهاية العقل.

إن منطق الحلول الموحد للوجود لدى الأمة يقتضي تذويب الأنا في الكل الشامل. فالذوبان في أثير جو الجسد السياسي يبرر الاستشهاد الذي يسمح للفرد، لا أن يموت كذلك فرديا وذاتيا، ولكن بالعكس من ذلك أن يحقق تحولا في كينونته الباقية ضمن الأمة الرمزية بطريقة سامية، لأنها خالدة وليست تاريخية ولا عابرة للتاريخ. من هذا الأصل يأتي الانتحاريون المسلمون؛ تلك نظرية الأخرويات الوجودية eschatologie existentielle.

ويستند الحكم الإسلامي بالحق الإلهي ـ مثل كل النزعات الفاشية ـ، على منطق أخلاقي مفرط. فالله يقود التاريخ ويسجل تصميمه في الواقع؛ كما أن قصده يتجلى دائما. كل ذات تخضع لأوامر الله الذي يصر على التطهير الأخلاقي للمؤمن: وهنا يكمن مقت الجسد والشهوة وحرية الحياة الجنسية والرغبات.. إلخ. إن تحقيق النظام الأخلاقي كمناسبة لركود الدم يقود إلى

النشوة الصوفية؛ وهو ما يقتضي إدانة الشبق والمثلية الجنسية واللعب والمخدرات وعلب الليل والكحول والدعارة والسينما والعطر والقمار، وغيرها من الرذائل المستنكرة من قبل آية الله. نظرية المثال الزاهد.

وأخيرا، تقتضي الفاشية والحركة الإسلامية «منطق التجنيد». لا شيء ولا أحد يجب أن يتخلف عن النداء، وذلك أصل التعبئة العامة لكامل دواليب آلة الدولة. عزل المؤسسات والصحافة والجيش والتربية والقضاء والشرطة والموظفين والمفكرين والفنانين والعلماء والكتاب والخطباء والباحثين. تصير الكفاءة في ميدان العمل أمرا ثانويا. لمن تعطى الأولوية؟ تعطى للإيمان والتقوى والتدين والورع في تطبيق تعاليم الدين. نظرية عسكرة المجتمع.

إن كل ما يتم من خلاله عادة تقديم تعريف للنزعة الفاشية نجده في الطرح النظري للحكومة الإسلامية: تلك الجماهير التي يقودها زعيم كاريزمي يستهويها، زعيم ملهم؛ والأسطورة واللا عقل والعالم الروحاني الذي يرتقي إلى مرتبة محرك للتاريخ؛ والقوانين المختلقة المقتبسة من قول الزعيم؛ والطموح إلى إلغاء عالم قديم لخلق عالم جديد ـ إنسان جديد وقيم جديدة؛ وحيوية في تصور العالم يزاوجها شغف بالموت لا أساس له؛ الحرب التوسعية التي يحياها الناس كدليل على صحة الأمة، وكره قيم الأنوار ـ من عقل وماركسية وعلم ومذهب مادي وكتب ونظام الإرهاب البوليسي؛ وإلغاء كل فصل بين المجال الخاص والمجال العام؛ وبناء مجتمع مغلق؛ وتذويب الفرد في الجماعة؛ وتحقيق الفرد لذاته من خلال إتلافها والتضحية المخلصة بها؛ والاحتفاء بخصال الحرب ـ الرجولة ونزعة الذكورة والأخوة والرفقة المتعاضدة والانضباط وكره النساء؛ وتدمير كل مقاومة؛ وعسكرة السياسة؛ وإلغاء كل حرية فردية؛ والنقد اللاذع لإيديولوجيا حقوق الإنسان؛ والاستهلاك

الإيديولوجي المستمر؛ وكتابة التاريخ بشعارات متشككة ـ معادية للسامية وللماركسية وللرأسمالية وللأمريكان وللحداثة وللغربيين؛ والأسرة التي ترتقي إلى مرتبة الحلقة العضوية الأولى. هذه السلسلة تسمح، قليلا أو كثيرا، بتعريف لمضمون الفاشية وأشكالها. وإن نظرية الحكم بالحق الإلهي تطرز أروقتها دائما من خلال تنويعات تطال هذا الموضوع. . .

[٩]

**فاشية الثعلب وفاشية الأسد.**

لقد بدأ القرن الواحد والعشرون بصراع لا يعرف الرحمة. ويوجد على الجبهة الأولى «الغرب اليهودي ـ المسيحي الليبرالي ـ بالمفهوم الاقتصادي للمصطلح ـ، صاحب التجارة المتوحشة والاستهلاك الذي لا يعرف الخجل، والمنتج لبضائع مزيفة، والذي لا يعرف فضيلة، ذلك العالم العدمي حتى الأمعاء الذي لا يعرف دينا ولا قانونا، القوي على الضعفاء والضعيف أمام الأقوياء، المحتال المتسم بالمكر والنفاق مع الكل، والمفتتن بالمال والربح والعابد الساجد للذهب، ضامن كل سلطان ومولد كل أشكال الهيمنة ـ على الأرواح والأجساد. وبناء على هذا النظام، فهناك حرية نظرية للجميع، إلا أنها في الواقع حرية لحفنة قليلة جدا فقط بينما يغرق الآخرون، أي الغالبية العظمى، في أوحال البؤس والفقر والإذلال.

وعلى الجبهة الأخرى يوجد «عالم مسلم» تقي ورع وخشن ومتعصب وعنيف ومتسلط وغاز. فاشية الثعلب ضد فاشية الأسد. تخلِّف الأولى ضحاياها بطرق ما بعد ـ حديثة، من خلال أسلحة لم يعرفها الإنسان من قبل، بينما تعتمد الثانية في ذلك الإرهاب المفرط بالطائرات المحولة والأحزمة الناسفة التقليدية الصنع. ويدعي كل جانب منهما انتماءه للرب، وكلاهما

ينخرط ضمن تقليد محاكم التعذيب الإلهي عند البدائيين. محور الخير ضد محور الشر اللذين تتقابل جبهتاهما أبديا. . .

هذه حرب بين ديانات توحيدية. على الجهة الأولى يوجد اليهود والمسيحيون الصليبيون الجدد وعلى الجهة الثانية نجد المسلمين الماضين في فتوحات ما بعد الحداثة. فهل على المرء أن يختار خندقه بينهما؟ هل يجب اختيار لا أخلاقية هؤلاء بدعوى محاربة بربرية أولئك؟ وهل يجب بحق الانخراط هنا أو هناك عندما نعتبر هاتين النظرتين للعالم مأزقين لا مخرج لهما؟ فلمَّا دخل ميشيل فوكو سابقا في العقيدة الثنائية للعالم، وقبل بالسقوط في هذا الفخ، فقد أحيا أفقاً سياسية ذات بعد روحي في الثورة الإيرانية، لأنها كانت تقدم بديلا لما كان يسميه «الأنظمة الكونية» ـ في سنة ١٩٧٨، لم يكن قد بدأ بعد تداول مفهوم العولمة. وقد لاحظ فوكو بالمقابل، منذ تلك اللحظة، أن مسألة الإسلام السياسي جوهرية بالنسبة للفترة بل وحتى بالنسبة للسنوات التالية. هناك إثبات لأقواله. . .

[١٠]

## ضد دين العلمانيين

داخل المشهد التالف لعالم غربي يئن، يبدو أحيانا أن نضال بعض العلمانيين قد أصيب بعدوى إيديولوجية خصومهم؛ فالعديد من مناضلي القضية العلمانية يشبهون رجال الدين إلى حد الخلط. بل هناك ما هو أسوأ من ذلك: إنهم يشبهون كاريكاتير رجال الدين. وللأسف، ، تُشتم في الفكر الحر المعاصر رائحة البخور وهو يتعطر بلا خجل في الماء المقدس. ويبدو أن نشطاء هذه الحركة العلمانية الوازنة تاريخيا، وهم يرتدون ثياب قساوسة كنيسة إلحاد يقودها ملحدون متزمتون، يبدو أنهم قد تخلفوا عن ركوب قطار ما بعد

الحداثة. لا يمكن اليوم محاربة الديانات التوحيدية بسلاح جمهورية غامبيتا.

إن نضال الفكر المتحرر قد كان له بالغ الأثر في بروز الحداثة: تفكيك الخرافات المسيحية ورفع الشعور بالذنب عن النفوس، وعلمنة القسم القضائي والتربوي والصحي والعسكري ومقاومة فكرة الحكم بالحق الإلهي (الثيوقراطية)، لفائدة حكم الشعب (الديمقراطية) وتحديدا في صيغته الجمهورية، أي فصل الكنيسة عن الدولة كأعظم وأشهر انتصار.

ويُشتم في الوعظ العلماني وفي المناسبات المدنية ـ تعميد وتناول القربان ـ، وفي أعياد الشباب والنضال ضد قرع الأجراس في القرى، والتطلع إلى تقويم جديد ومحاربة التعبد للأيقونات والتماثيل وفي مقاومة لبس الثوب الكهنوتي، يشتم في ذلك بقوة رائحة حطب ممارسات المسيحيين... إن محو الطابع المسيحي لا يتحقق بالتفاهات والترهات بل من خلال الاشتغال على «عالم معرفة» العصر، ومن خلال تربية العقول على التفكير العقلي. ذلك أن الفترة الثورية لمحو الآثار المسيحية déchristianisation قد أنتجت طقوسا واحتفالات لعبادة للكائن الأسمى لا أساس لها ولا تقل سخافة عن ما نجده عند الكهنوتية الدينية.

لنفكر وفق مصطلحات جدلية: إن المغالاة يتم تفسيرها وتبريرها بقسوة الصراع المعاصر وبصلابة جلد الخصوم الذين يتمتعون بسلطان مطلق على الأجسام والأرواح والضمائر، وكذا بمصادرة المسيحيين لكل دواليب آلة المجتمع المدني والسياسي والعسكري. فحين يدين أصحاب الفكر المتحرر أعداءهم من خلال نعتهم بالقمل والحشرات ـ طفيليات ـ وبالعناكب والأفاعي ـ احتيال ـ، وبالخنازير والتيوس ـ قذارة ونتانة وشبق ـ وبالبوم والخفافيش ـ عتمة وظلامية ـ، وبالغربان ـ حلكة ـ، يقوم أهل الدين بالرد عليم من خلال

وصفهم بالقردة ـ داروين ـ، وبالخنازير ـ خنزير أبيقور الجلود. . ـ. فيغتني مذاق الفولكلور، بينما تفتقر جودة الجدل. . .

[١١]

## مضمون الأخلاق وشكلها

والأمر الأكثر إزعاجا من ذلك هو استناد العلمانية المناضلة على الأخلاق اليهودية ـ المسيحية وهي تكتفي في أغلب الأوقات بالحد منها. يقدم «إيمانويل كنط» من خلال مؤلف «الدين في حدود التفكير العقلي البسيط» كتاب الفكر العلماني المفضل في الغالب: وفيه تستفيد الفضائل الإنجيلية ومبادئ الوصايا العشر ودعوات العهدين من تقديم جديد. إن في الأمر احتفاظاً بالمضمون وتغييراً في الشكل. تكون علمنة الأخلاق اليهودية ـ المسيحية في أغلب الأحيان إعادة كتابة لخطاب غيبي مفارق ليصير ملازما للواقع. فما جاء من السماء لم يلغ، بل تمت إعادة أقلمته ليكون صالحا للواقع الأرضي، إذ يتحارب القسيس وخيال الجمهورية الأسود، لكنهما بالنهاية يناضلان من أجل عالم يتشابه في جوهره.

تلقن كتب الأخلاق في مدارس الجمهورية فضيلة الأسرة وخصال العمل، وضرورة احترام الآباء وتكريم الشيوخ، وتعلم الأساس السليم للقومية والواجبات الوطنية، والحذر تجاه الجسد والشهوة والأهواء، وجمال العمل اليدوي، والخضوع للسلطة السياسية والواجب تجاه الفقراء. فما الذي يُترك لقس القرية ليقوله؟ عمل وأسرة ووطن؛ الثالوث المقدس للعلمانية والمسيحية.

وإن الفكر العلماني ليس فكرا يمسح الطابع المسيحي للحياة، بل هو فكر مسيحي ملازم للواقع. وتستمر روح الأخلاق اليهودية ـ المسيحية ضمن خطاب عقلاني، تبتعد مصطلحاته عن المفهوم الديني. يغادر الإله السماء لينزل

فوق الأرض؛ إنه إذن لم يمت، و لا يتم قتله ولا هو حتى متروك لحاله، بل تتم أقلمته مع قوانين الأرض الخالصة. ويظل عيسى بطلا في كلتا النظرتين للعالم: كل ما يطلب منه هو تنحية هالته، وتجنب علامته الجلية الظاهرة.

وهناك يكمن أصل تعريف نسبي للعلمانية: ففي الوقت الذي يظل فيه «عالم المعرفة» يهوديا ـ مسيحيا، يتم التصرف وكأن الدين لا يؤثر ولا يروي الضمائر والأجسام والأرواح. إن الكلام والتفكير والعيش والعمل والحلم والخيال والأكل والألم والنوم، تتم كلها وفقا للعقيدة اليهودية ـ المسيحية، وذلك نتيجة لبناء دام ألفي عام في تهيئة الفكرة التوحيدية الإنجيلية. وبالتالي فإن العلمانية تقاوم لتمكين كل شخص من اعتقاد ما يشاء ومن الإيمان بإلهه الخاص، على شرط أن لا يجهر بذلك في العموم. لكن ديانة المسيح المعلمنة تقود العملية أمام العموم..

لا توجد صعوبة في هذه الحال لتأكيد المساواة بين اليهودي والمسيحي والمسلم داخل الجمهورية الفرنسية المعاصرة، بل والمساواة مع أتباع البوذية والشنطوية والإحيائية ومع المشرك واللا أدري والملحد.

كل الأمور يمكن أن تعطي الانطباع بأنها تتساوى عندما يعيشها الناس في دواخلهم وحميمية ضمائرهم بما أنه في العالم الخارجي وفي إطار الحياة العمومية تبقى الإطارات والأشكال والقوى ولنقل إن الأمور الأهم ـ الأخلاقيات والأخلاق الإحيائية والقانون والسياسة ـ، تبقى كلها يهودية ـ مسيحية.

[١٢]

## من أجل علمانية ما بعد ـ مسيحية

لنتجاوز إذن العلمانية التي ما تزال متأثرة بما تدعي محاربته. فتحيةً لما كانت عليه، وكل المديح لنضالها الماضي وكل الثناء لما ندين به لها؛ لكن لنتقدم إلى

الأمام بطريقة جدلية، فنضالات اليوم والغد تستوجب أسلحة جديدة، أحسن صنعا وأكثر جدوى. إنها تستوجب أدوات العصر. ولنبذل إذن جهدا إضافيا بهدف محو الروح المسيحية في الأخلاق وفي السياسة وفي غيرهما. ومحوها كذلك في العلمانية، التي ستفوز بتحررها أكثر من الميتافيزيقا اليهودية ـ المسيحية، والتي قد تصلح حقا في الحروب القادمة.

ذلك أنه من خلال إقامة المساواة بين الديانات وبين ما ينفيها، كما تدعو لذلك العلمانية المنتصرة الآن، سيتم دعم فكرة النسبية: المساواة بين الفكر السحري والفكر العقلاني، وبين الخرافة والأسطورة والخطاب الاستدلالي وبين التوراة وكتاب ديكارت «مقال في المنهج»، وبين الأنجيل وكتاب كنط «نقد العقل الخالص» وبين القرآن وكتاب نيتشه «جينيالوجيا الأخلاق». فيساوى موسى بديكارت وعيسى بكنط ومحمد بنيتشه....

مساواة بين المؤمن اليهودي المعتقد بتكليم الله لأجداده ليبلغوه بأنه مختار، وبأنه لأجل ذلك شق له البحر وأوقف الشمس..، والفيلسوف الذي ينهج المنهج الفرضي الاستنباطي؟ ومساواة بين المؤمن المقتنع بأن بطله الذي ولد من عذراء، وصلب تحت حكم «بونس بيلات» وبعث في اليوم الثالث بعد ذلك وبأنه يقضي الأيام منذ ذلك اليوم جالسا إلى يمين الأب، والمفكر الذي فكك صناعة العقيدة وبناء الأسطورة وابتداع الخرافة؟ ومساواة بين المسلم المعتقد بأن شرب الخمر وأكل الخنزير المشوي يحرم عليه دخول الجنة، بينما يفتح له قتل كافر أبوابها على مصراعيها والمحلل الدقيق الذي بين، وفق المبدأ الوضعي والتجريبي، أن الفكرة التوحيدية تساوي الفكرة الإحيائية الإفريقية، المعتقدة بعودة روح الأجداد في جسد ثعلب؟ إذا كان الأمر كذلك فلنترك الفكر والتفكير..

إن هذه الفكرة النسبية ضارة جدا، إذ تصير من خلالها كل الخطابات متساوية بدعوى العلمانية: الحقيقة والخطأ؛ الصحيح والمزيف؛ الغريب والجدي. فتزن الأسطورة والخرافة ما يزنه العقل؛ وتصير قيمة السحر بقيمة العلم؛ وقيمة الحلم بقيمة الواقع. والحال أن كل الخطابات لا تتساوى: فخطابات العصاب والهستيريا والتصوف تنبثق عن عالم آخر غير عالم من يتبع المبدأ الوضعي. لا يجب السماح بالحياد وبإبراز المجاملة لشمولية أنظمة الخطاب، بما فيها الخطابات السحرية. فهل يجب على المرء أن يبقى محايدا؟ وهل من اللازم ذلك؟ وهل مازالت لدينا إمكانيات لهذا البذخ؟ لا أعتقد ذلك..

ففي الوقت الذي يلوح في الأفق صراع أخير ـ خاسر سلفا.. ـ من أجل الدفاع عن فكر الأنوار ضد الفكر السحري، لا بد من إنعاش علمانية ما بعد ـ مسيحية؛ أي علمانية ملحدة ومناضلة ومعارضة جذريا لكل اختيار مجتمعي بين اليهودية ـ المسيحية الغربية وبين الإسلام الذي يحاربها. لا إنجيل ولا قرآن. وما زلت أصر على تفضيل الفيلسوف على الحاخامات وعلى القساوسة والأئمة وآيات الله، وعلى غيره من الملالي. كما أفضل أيضا، على كل هذا اللاهوت الغريب والعجيب، الدعوة إلى الأفكار البديلة للتاريخ الفلسفي الرسمي السائد: الساخرين، والماديين، والراديكاليين، والكلبيين، والاستمتاعيين، والملحدين، والحسيين، والشهوانيين. فهؤلاء يعلموننا أنه لا يوجد غير عالم واحد، ويعلموننا أن كل نهوض بالعالم الخلفي يجعلنا نخسر استغلال العالم الوحيد الموجود حقا، ونخسر الاستفادة منه. فتلك خطيئة مهلكة بحق....



# ببيليوغرافيا المراجع

## مذهب الإلحاد

[١]

### فقرٌ ملحد

المراجع بخصوص مسألة الإلحاد شحيحة؛ فهي نادرة بالنظر إلى المنشورات المخصصة للأديان ـ فمن منا يعرف جناحا مخصصا لمذهب الإلحاد في المكتبات؟ في الوقت الذي تحظى فيه كل تلاوين الموضوع الديني بشعب فرعية ـ وتكون هذه المراجع عن الإلحاد، زيادة على ذلك، ذات جودة رديئة. كما لو أن المؤلفين في الموضوع يشتغلون لبهجة عباد فكرة الله! لقد افتتح هنري آرفون القصة بكتاب ضمن سلسلة «que sais - je?»، تحت عنوان «النزعة الإلحادية» سنة ١٩٦٧: يخصص المؤلف نصف هذا الكتاب الصغير لمذهب الإلحاد عند ديموقريطس وأبيقور ولوقريس ولاموث ولوفيير وقاسندي وبيير بايل وتوماس هوبس وجون لوك وهيوم، وآخرون ممن لم ينكروا يوما وجود الإله أو الآلهة.. ونفس الملحوظة تنطبق على هيغل ـ الملحد!. كما تناول ستيرنر، ضمن فصل خاص بالنزعة الإلحادية عند نيتشه، في حين نعرف أن كتاب ستيرنر الوحيد، «الوحيد وامتلاكه»، يعود لسنة ميلاد نيتشه: فها هو

نتشوي قبل الأوان! خطأ فظيع آخر: إنه غياب ذكر **فرويد** الذي ألف مع ذلك كتاب «**مستقبل وهم**» الذي يفكك الدين بالمطلق، والذي يندرج ضمنه سلسلة النصوص الكبرى المفككة للمسألة الدينية. ولقد اهتدى **هنري آرفون**، المؤرخ للنزعة الفوضوية، في نهاية حياته إلى مذهب الحرية المطلقة ـ وهي نزعة ليبرالية مفرطة كانت تُبهج الرئيس رونالد ريغان في وقته..

إننا نجد نفس النقائص أو تقريبا في المؤلف الضخم «**تاريخ مذهب الإلحاد**»، لـ **جورج مينوا**، الذي يقع في ٦٧١ صفحة كان نصيب **فرويد** منها صفحتين! وزيادة على الاستعمال المتعسف لنعت «ملحد النزعة» لتوصيف من يؤمن بتعدد الآلهة، والمؤمنين فلسفيا بالإله (déistes) والمسيحيين المنشقين، نجد **أبيقور ورابليه وهوبس** في نفس اللحاف مع **ساد ونيتشه وسارتر** ـ؛ سيكون من المفيد القفز على المقدمة واعتبار الكتاب من جهة الجذاذات التي يصففها والتي يمكن من خلالها تكوين تصور عما يجب مراجعته. يجب التعامل معه كديوان جذاذات تحتاج إلى انتقاء..

## [٢]

## لقد مات الإله؛ أصحيح هذا؟

للتحقق من ظروف اغتيال الإله، لابد بالطبع من مراجعة **نيتشه** وفقرته ١٢٥ ـ «**الأخرق**» ـ ضمن مؤلفه «**العلم المرح**». وكذلك مراجعة مؤلفيه «**هو ذا الإنسان**» و«**نقيض المسيح**». وللرجوع للموضوع في برامج السنة النهائية الثانوية ـ «إذا كان الإله قد مات فكل شيء مباح» ـ يجب مراجعة رواية «**الإخوة كارامازوف**» **لدوستويفسكي**.

ففي غياب تأريخ جيد للمذهب الإلحادي الذي يجب كتابته بعد الآن، يجب مراجعة مقاربتين فلسفيتين للمسألة: أولها «**موت الإله. مقال حول النزعة**

**الإلحادية الحديثة»** PUF؛ ١٩٧٥). يقوم فيها المؤلف، **جاك ناطاسون**، بقراءة واضحة وذكية للمسائل المتعلقة بالمذهب الإلحادي، من خلال خلط المعلومة والتحليل والتعليق. ويتضمن الكتاب ثماني صفحات من المراجع. ثم، وفي نفس الاتجاه، يجب مراجعة **دومينيك فولشيد «روح المذهب الإلحادي وقدره»**. وبه تحليل مستفيض لنيتشه ودوستويفسكي.

[٣]

## في الفلسفة البديلة وفي نقيضها

يبرز هذا المفهوم في المؤلف الوحيد ـ حسب اعتقادي ـ المخصص للمسألة: **«أعداء الفلاسفة. الفلسفة البديلة في العصور الحديثة»** لصاحبه **«ديديي ماسو»**. فقد أظهر يسوعيون وجنسينيون ومبشرون وكاثوليكيون مناضلون، خلال القرن الثامن عشر، مقتهم للفلاسفة ـ **روسو وفولتير وديدرو** ـ وللفلسفة. لكن التاريخ الرسمي صقل هذا العصر ليجعل منه عصر الأنوار فقط، متناسيا أنه كانت هناك، من جهة، تقاليد مسيحية ميالة للثأر ومناضل ومجادلة، ومن جهة ثانية هناك من أنعتهم بمتطرفي الفلسفة ـ أي الملحدين ـ **لاميتري ودولباش وهيلفيتيوس**، الذين كانوا موضع انتقاد ومحاربة من قبل القيم الراسخة لفكر الأنوار، باسم الإيمان الفلسفي اللاديني بالإله (Déisme)... ويتضمن هذا الكتاب ٢٧ صفحة من المراجع الرفيعة.

وقد فتح كتاب **«المذهب الغريب»** لصاحبه **«غاراس»** هذا الباب خلال القرن الماضي. **ولاكتشاف أن فانيني** لم يكن يوما ملحدا، بل مؤمن بوحدانية الوجود panthéiste ومسيحيا، يجب مراجعة **«الأعمال الفلسفية»** لصاحبها **أدولف دولاهايس** سنة ١٨٥٦. كما يجب مراجعة كتاب **«حياة ج. ك. فانيني وأعماله»**.

ومن أجل البحث في نظير الفلسفة البديلة، راجع مصنف النصوص الذي أخرج تحت إشراف باتريك غراي وملادن كوزيل: **«الخطاب الفرنسي المضاد للدين خلال القرن الثامن عشر. منذ الكاهن ميسلي حتى لوماركيس دو ساد»**؛ وهي مختارات ثمينة ترافقها توطئات تقديم لها نفس القدر من الأهمية. وفيه علاج لأعداء الفلسفة في الماضي والحاضر...

ويكتب من يفترض أن يكون أول ملحد ـ كريتوفاو فيريرا ـ **«الخدعة المكشوفة»**. ويقدم بجد لهذا النص ـ الذي يقع في ما يناهز الثلاثين صفحة ـ **«جاك بروست»**، وهو جامعي مغتر بنفسه إلى حد أنه وضع لقبه على صفحة عنوان الكتاب الذي ترجمه، برفقة سيدة تدعى **مريان بروست**. عمل نزيه وأنيق! والعنوان الثاني للكتاب **«تفنيد الكاثوليكية باليابان خلال القرن السابع عشر...»**، وتحتوي لائحة المراجع طبعا كل مقالات هذين الزوجين الجهنميين..

[٤]

## الأمعاء البورجوازية والأحشاء الكاثوليكية

كلنا نعرف جملة الكاهن ميسلي الشهيرة التي يتمنى من خلالها لو أن كل النبلاء قد شنقوا وخنقوا بأمعاء القساوسة.. إننا نجدها في المجلدات الثلاثة لـ **«أعمال» يوحنا ميسلي**. ولمن ترعبه الألفا صفحة من هذا المؤلف، توجد صيغة موجزة متقنة تحت عنوان **«مذكرات»**. وهناك العمل الذي لا يمكن تجاوزه لموريس دومانجي: **«الكاهن ميسلي. ملحد وشيوعي وثوري في عهد لويس الرابع عشر»**؛ ويقدم الكتاب جملة ما يمكن أن نعرفه عن أعمال فيلسوف أصيل عزله التاريخ الرسمي الكلاسيكي، بطبيعة الحال، لأنه كانت تتوفر فيه كل الشروط التي تحول دون الحصول على الرضى: من كره للإله وللمسيحية

وللمثالية ولنموذج الزهد، وامتداح للحرية ولمذهب اللذة وللحياة الدنيا. أما محبو المختصرات، فيجب عليهم الرجوع إلى كتاب مارك بريدل «يوحنا ميسلي المسعور. كاهن ملحد ومناضل ثوري في عهد لويس الرابع عشر». ولعل المحو شبه التام للعنوان الثاني لموريس دومانجي يعبر عن ما يدين به هذا الكتاب للأول. . .

ويمكن مراجعة السيرة الفكرية النقدية: «سيلفان ماريشال؛ الإنسان الذي لا إله له. حياة بيان المتساوين وأعمالهم» للكاتب الممتاز نفسه موريس دومانجي وكذا «معجم الملحدين»، للكاتب نفسه؛ ويتضمن خلاصة لا تضاهى بخصوص مفكر اختفى عن التداول الفكري المعاصر.

[٥]

## زمرة دولباش

إنه دولباش العظيم!

بفضل الجرأة والتصميم البهيج لجان بيير جاكسون ـ الناشر الرائع. . ـ، نمتلك إصدارا قيد الإتمام لكتاب «الأعمال الفلسفية». وهو في ثلاثة مجلدات ضخمة: يتضمن الجزء الأول منها مؤلفات «المسيحية المكشوفة» و«العدوى المقدسة» و«اللاهوت المنقول»؛ ونجد في الجزء الثاني ـ «مقال في الأحكام الجاهزة» و«نظام الطبيعة» وكذا العمل العجيب «التاريخ الحرج ليسوع المسيح»؛ بينما يحتوي الجزء الثالث العناوين التالية «مشهد القديسين» و«الحكم الصائب» و«السياسة الطبيعية»، ثم «حكم الأخلاق». وهو مؤلف يجب تدريسه بالضرورة ضمن الدروس التي ستقدم موضوع الإلحاد! إن قوة اللهيب الملحد عند هذا الفيلسوف عظيمة جدا، فهو يسحق بريق نزعة الإيمان الفلسفي بالخالق عند روسو والمسرحيات المعادية للكنيسة عند فولتير، المدافع

عن فكرة الدين للشعب، وتردد ديدرو حول مسألة الإله.

وهناك نصوص مختارة قام بتأليفها زينيه هيبير ضمن مجلد يصعب العثور عليه: «دولباش وأصدقاؤه»، المنشور ضمن سلسلة مضادة للمسيحية. ثم هناك كتاب بيير نافيل: «نيتشه والفلسفة العلمية خلال القرن الثامن عشر».

[٦]

## المعالج الروحي بالماء

إن غياب كتب فيورباخ عن السوق الفلسفية يعد فضيحة. فباستثناء استهواء الإرث والاسترجاع عند لويس ألتوسير، الذي ترجم كتاب «بيانات فلسفية. نصوص مختارة»، وعند تابعه جان بيير أوزييه، الذي يرجع له الفضل في الترجمة الفرنسية لكتاب «روح المسيحية»، سيكون البحث عن شيء آخر بلا جدوى. إلا إذا ذكرنا ترجمة جان روى، المؤرخة بسنة ١٨٦٤، لكتب: «جوهر الدين» و«الموت والخلود» و«أفكار متنوعة»، و«ملحوظات»، ضمن مجلد بعنوان: «الدين». ثم حديثا كتاب: «أفكار حول الموت والخلود».

وبخصوص فيورباخ لا شيء يذكر: هناك كتاب لهنري أفرون ـ صاحب الكتاب السيئ حول الإلحاد ضمن سلسلة «que sais - je?» ـ : «ليدفيغ فيورباخ أو تحويل المقدس» وكتابه الآخر الأكثر اختزالا والذي يتضمن نصوصا مختارة: «فيورباخ». ويحرر ألكسيس فيلولينكو، مختصرا عن: «شباب فيورباخ (١٨٢٨ ـ ١٨٤١) مدخل إلى أفكاره الجوهرية». كنا نتمنى أن يكون هناك عمل جبار مثل هذا عن الثلاثين سنة من حياة الفلسفة.. ويدخل جان سالم باختصار إلى هذا الموضوع من خلال: «قراءة عابثة للكتابات المقدسة. كتاب (جوهر المسيحية) لليدفيغ فيورباخ».

[٧]

**بخصوص «عالم معرفة» يهودية ـ مسيحية**

يفحص **ميشيل فوكو** مفهوم «عالم المعرفة» في كتابه «**الكلمات والأشياء**». ويؤكد في الجزء الثاني من «**مقولات وكتابات**»: «إن كل ظواهر العلائق بين العلوم أو بين مختلف الخطابات العلمية هي ما يشكل ما أسميه «عالم معرفة» عصر من العصور». وبديهي أنه لا يمكن إدراك تفاصيل «عالم معرفة» إلا من خلال اشتغال حفري فوق أرضية صعبة الاحتمال. وعند حديثي عن الجسم المسيحي في كتابي «**فتنة وسحر تشريحي**»، اقترحت منهجا لمقاربة «عالم المعرفة» انطلاقا من الجسد المسيحي. ويمكن بخصوص الموضوع، مراجعة كتاب المؤلفين **نيكولا مارتن وأنطوان** سبير: «**هل يحب الرب الناس المرضى؟ الديانات التوحيدية أمام المرض**» وذلك لمعرفة التأثير الهائل للفكرة اليهودية ـ المسيحية على مسائل الصحة والمرض وعلى الأخلاقيات الإحيائية، للأسف. ونجد تفاصيل الموقف المسيحي بخصوص مسائل الصحة ضمن «**ميثاق موظفي ومستخدمي قطاع الصحة**»، الذي ألفه المجلس الحبري لرعوية خدمات الصحة ونشرته دولة الفاتيكان؛ وهو مذهل عندما نعرف كم تتراجع أخلاقياتنا الإحيائية بسبب المواقف الرجعية للكنيسة التي يدافع عنها علمانيون ارتووا من الماء المقدس..

وبخصوص القانون وترتيبه اليهودي ـ المسيحي، فقد أوضحت موقفي في مقال «**من أجل القضاء على رأي العقل الإنساني**» ضمن مؤلف «**أرخبيل المذناب**».

[٨]

**نزعة إلحاد مسيحية!**

لا يرد أندري كونت ـ سبونفيل عبارتي هذه، بل فقط يفضل عليها عبارة

«الملحد المؤمن». ويوضح ما يقصده بذلك في كتاب: «**هل ما نزال بحاجة إلى دين؟** »، فيقول: «ملحد أنا لأني لا أعتقد بوجود إله؛ لكنني مؤمن لأني أجد نفسي داخل تقاليد معينة وتاريخ معين ووسط هذه القيم اليهودية ـ المسيحية (أو الإغريقية ـ اليهودية ـ المسيحية) التي هي قيمنا». وكذلك **لوك فيري**، الذي يرفض الموقف الملحد ويفضل عليه خيار «**اللا أدرية**» ـ الخيار الأكثر تبصرا على كل حال. راجع كتابه «**الإنسان ـ الإله**».

إن هذا الانجذاب المسيحي الذي يظهر بجلاء، نجده في الفلسفة المعاصرة عند **ميشيل هنري وجيوفاني فاتيمو**. **يقارب الأول المسيحية كظاهراتي في** كتب: «**التجسيد**» و«**كلمات المسيح**»، و«**أنا هو الحقيقة. من أجل فلسفة للمسيحية**». ويقاربها الثاني كمؤول للنصوص.. راجع في ذلك مؤلفات: «**ترجي الإيمان**»، و«**ما بعد المسيحية**»، لتعرف كيف تغطس الإنجيل في الماء المطهر لكتاب «**الكينونة والزمن**» للحصول على محلول ـ بالمعنى الكيميائي للكلمة ـ خارق...

**[٩]**

## استمرار الفلسفة اللاهوتية

يمكن مراجعة هؤلاء الكتّاب الذين ليسوا ملحدين بتاتا، بل هم مسيحيون جهرا: **جان لوك مريون** وكتابه: «**الله دون الكينونة**» ورينيه جيرار في: «**أرى الشيطان يسقط كالبرق**»؛ ثم من التقاليد اليهودية المهجنة بالفلسفة الروسية والإيطالية والإسبانية والفرنسية (لكن ليست الألمانية) نجد مؤلف **فلاديمير جانكيليفيتش**: «**كتاب الفضائل**»، الذي يقع في ١٥٠٠ صفحة تنتظم في عدة مجلدات: «جدية النية»، و«الفضائل والمحبة» و«البراءة والشر». ومن التقاليد نفسها المختلطة هذه المرة بظاهراتية **هايدغر وإيمانويل ليفيناس**، نراجع كتاب:

«في غير الكينونة ووراء الجوهر». ومنه نستنتج أن الحب خير من الحرب والشجاعة خير من الجبن، والعفو خير من الضغينة والآخر خير من الذات. أمر رائع على الورق.

# مذاهب التوحيد

## [١]

### ثمن الكتب الفريدة

تقدم الديانات التوحيدية نفسها نظريا على أنها الدين الوحيد للكتاب الوحيد؛ بينما تعتبر في الواقع هذه الكتب الفريدة عديدة. . تنحاز مكتبة لابلياد la Pléiade الشهيرة لموقف غريب: إنها تنشر هذه المؤلفات بتجليد رمادي اللون في الوقت الذي تقدم فيه كتب العصور القديمة بتجليد أخضر. . . فلماذا لا يتم جمع هوميروس وأفلاطون وأوغسطين والإنجيل والقرآن والكتابات العهودية والأناجيل المسيحية المزيفة تحت نفس اللون؟ ذلك أنها كلها كتب تاريخية ليس إلا. . .

لقد استعملت طبعة أخرى من الإنجيل؛ لكنني اعتمدت ترجمة مكتبة لابلياد la Pléiade للقرآن. . . .

وبخصوص البعد التاريخي للإنجيل يجب مراجعة كتاب: «الإنجيل المكشوف» لكاتبيه إسرايل فنكلستاين ونيل آشر سلبرمان، وهو الكتاب الذي يعج بالمعلومات التاريخية بخصوص ورشة النسيج الأسطوري الذي شكله الإنجيل. هناك كذلك كتب أساس: «أسفار موسى الخمسة» و«التلمود». لكن المكتبات تنقصها بحق طبعة نقدية وملحدة لكل هذه الكتب.

ولا يجب تضييع الوقت بقراءة: **«كتاب تعاليم الكنيسة الكاثوليكية»** الذي يعتبر إصرارا واستمرارا للأساطير الموروثة عن الزمن الغابر منذ ألف سنة! ولمن يريد الاستئناس بمبحث الملائكة، فهنالك جانب كامل لهذا العالم الغابر: **«الأعمال الكاملة»** لبسودو دونيس لايروباجيت؛ والتأليف المتقن: **«الملائكة»** لفيليب فور؛ وكذا بخصوص أماكن الإقامة الأخرى كتاب صبحي الصالح: **«الحياة الآخرة في القرآن»**

**[٢]**

## كتب بخصوص الكتب الفريدة

تعج المكتبات والخزانات بالكتب الدينية؛ ولا يضاهيها في وفرتها غير ندرة المؤلفات المخصصة للفكرة لإلحادية ! ومع مرور الوقت تكاثرت هذه الرفوف في المكتبات وهي لا تبتعد عن الرفوف التي تحتفي بالعصر الجديد وبالتنمية الشخصية وبعلم الأبراج وبالبوذية، وبلعب التاروت les tarots وغيرها من تجليات اللامعقول ـ ويمكن المرور على كتاب **أدورنو** المخصص لعلم الأبراج: **«من النجوم إلى الأرض»** الذي يتضمن العديد من التحاليل التي تصلح بطبيعة الحال لفهم الاعتقاد الديني.

تقدم المعاجم إفادة حقيقية؛ راجع: **«معجم الديانات التوحيدية»**، تحت إشراف **جاك بلوتان وفالنتين زوبير**؛ وهو يتضمن ثلاثة أجزاء: **يهودية ومسيحية وإسلامية**، ويحتوي مداخل أبجدية وفهرسا ختاميا، وآخر عند نهاية كل مدخل يلاقي بين الأزمنة الثلاثة: وهو يمكِّن من اكتساب الحد الأدنى بخصوص مفهوم من المفاهيم. كما أن **«معجم الإسلام: دين وحضارة»**، التابع لموسوعة **إينفرساليس**، يعتبر معجما رائعا. ويحقق **مالك شبل** من خلال: **«معجم الرموز الإسلامية»** أحسن كتبه بكل تأكيد، أو على الأقل أقلها انحيازا. وهو يتضمن إحالات مفيدة على السور القرآنية وكذلك مراجع وروابط هامة.

تعتبر قراءة «التلمود» غاية في الملل المضجر! ولمن لا يمتلك الشجاعة الكافية للقراءة، عليه بكتاب: **«مدخل إلى التلمود» لأدان ستنسالتز** وكتاب: **«التلمود»**، لكوهن؛ وهناك توليفات تاريخية رائعة للكتاب الأول، وتوليف موضوعاتي للكتاب الثاني امتلأ باستشهادات وفيرة. لكن الاتصال بنص التلمود ذاته أساسي لاغتراف الأساس والأفكار خصوصا، ولكن أيضا لإدراك تناسق بنية منطقه وجدله وفكره.

وبخصوص الإسلام نفضل كتاب **روحدي عليلي**: **«ما الإسلام؟ »**، وكتاب: **«معجم الحب في الاسلام» لمالك شبل**، وهو كتاب جزئي ومنحاز يفيد أن الإسلام دين سلام ومحبة وأنه يسمح بشرب الخمر (يقول الكاتب: «لم تكن تتعلق المسألة أبدا بالقضاء الجذري على الخمر، بل فقط محاولة لثني المؤمنين عنه» )؛ وهذه مفارقة فريدة يتم الوصول إليها من خلال تجنب المواضيع التالية داخل هذا المعجم العاشق بحق: الحرب والغزوات والمعارك والفتوحات ومعاداة اليهود ـ أي ما يشكل مع ذلك جوهر حياة النبي والإسلام لمدة قرون ـ، في الوقت الذي نجد فيه نصا عن الحروب الصليبية. نفس الملاحظة تخص مدخل اليهود ومعاداة السامية... أما بخصوص الحياة الجنسية فنقرأ ببهجة: «لقد حرر الإسلام الجنس وجعل منه مجال الحياة الاجتماعية القصوى». سنسأل النساء اللائي يتعرضن للعقاب عما يعتقدنه بهذا الشأن، ذلك أن مالك شبل يرى في مقال **«المرأة»** أن سوء معاملة النساء له علاقة بحكومات محافظة رجعية وبسياسات غير مؤهلة، ولا علاقة له أبدا بنص القرآن ذاته.

**[٣]**

## العلاج من تضليل الديانات التوحيدية

راجع **راؤول فانيغيم** في كتاب **«في لا إنسانية الدين»**؛ وكذلك تصديره

لكتاب، «فن عدم الإيمان بأي شيء» المتبوع بـ «كتب الدجالين الثلاثة»: وهم موسى وعيسى ومحمد. . . وراجع أيضا الكتاب الهام والمعمق ذي النتائج الباهرة ـ الذي نقرأ فيه أن اليهود «هذا الشعب الذهني (مثلما يتم الحديث عن الفن التصوري) ابتكار لغوي» ـ لـ جان صولر: «في أصول الإله الواحد. ابتكار ديانة التوحيد»، الذي يبرز فيه المؤلف كيف انتقل العبريون من تعدد الآلهة إلى التوحيد، بهدف ضمان وجودهم الأنطولوجي انطلاقا من الكتاب الواحد؛ بل وكذلك كيف أن رسالتهم للمحبة لا تخص غير نظرائهم ـ «إله العالمين أم إله اليهود؟ » يتساءل الكاتب ـ ولا تمتد إلى أقربائهم. كما يفصِّل هذه النقطة الأخيرة أكثر في كتاب «قانون موسى» وهو الكتاب ذاته الذي يبين كذلك في فصله الأول الحمولة الحصرية التي يجب تطبيقها على الأمر المزعوم شموليته: «لا تقتل» (كما أود شكر جان صولر لنصائحه القيمة عند مراجعة مخطوطي )

[٤]

## جلدة الذكر وتنميق ومكتبات؛

نشر مالك شبل نفسه: «تاريخ الختان من أصوله وحتى اليوم» ويكتب في التقديم «تروم معلومات هذا الكتاب الدقة ولا تخضع لأية دعوة عقدية». ويوضح في بداية هذا الكتاب طبيعة هذه الموضوعية التي يتحدث عنها: «أهدي هذا الكتاب إلى «جرَّاحي النور» : أي الخاتنين؛ ليسترسل وهو محايد دائما، بعد بعض التفصيل والاعتبارات النفسية ـ لأن مالك شبل يقدم نفسه كمحلل نفساني. . ـ، ويختم: «هل يمكن اعتبار قطع قطعة جلد دقيقة عملا «جرحيا» traumatique ثم بعد ذلك رضوخيا؟ traumatologique. أينك أنت يا فرويد. . .

وبخصوص الختان، نفضل تحاليل مارغريت صومفيل المستلهمة للطرائق

النفعية والواقعية الأنكلوساكسونية في كتاب: **«الكناري الأخلاقي. العلم والمجتمع والعقل الانساني»**، وخصوصا فصله الثامن المعنون: **«التدخل في جسم الطفل الصغير. الرهانات الأخلاقية للختان»**. صفحات هذا الفصل غيرت الرأي الذي كان عندي قبل أن أقرا عن الموضوع، قبل أن تذهب بقناعتي نهائيا. راجع أيضا موسى ابن ميمون: **«دليل الحائرين. مقال في الكلام والفلسفة»**.

نفسه مالك شبل اقترف كتابا بعنوان جميل جدا: **«كتاب التنميق»**، احتفى فيه بالتنميق على أنه فن إسلامي في حين أنه فن ينبثق بالفعل عن الحضارة العربية السابقة للإسلام. فكون القصور ـ في بغداد وقرطبة والمغرب ومصر ـ قد أصرت، دون أن تأبه بتعاليم القرآن، واسترسلت في الاحتفاء بالعطور والجواهر والأحجار الكريمة، والخمر (مرة أخرى!)، والترف، وملذات الأكل، والغلمان، فهذا أمر لا يسمح باستنتاج أن الإسلام تحول إلى مذهب للذة! فالأمر أشبه بمن يقيم الماركسية ـ اللنينية من خلال حياة زعماء الكرملين الخاصة إبان سنوات حكم ستالين. . . .

ولقياس مدى التحرر في طلب اللذة في الإسلام ( راجع ليقشعرَّ جلدك كتاب عبد الله بن عبد الرحمن الوثبان **«معالم طريق العفاف»**، المتبوع بنص عبد الرحمن بن عبد العزيز ابن باز **«أخطار الاختلاط في ميدان العمل»**) ولتدرك مدى تسامحه مع الكتب الأخرى، غير القرآن وكتب الدين، يجب مطالعة كتاب لوسيان بولاسترون الممتع: **«كتب مشتعلة بالنار»**. نجد فيه تفصيلات عن الاستمتاع المسيحي بحرق الكتب، منذ بداية الدولة الشمولية المسيحية (القرن الرابع) وحتى خلق فهرس الكتب المحرمة ـ الذي لم يلغ أبدا. . . ونجد فيه أن اليهود هم الأكثر تعرضا لمحارق الكتب خلال وجودهم، بينما لم يقترف اليهود أيا منها. . كما أن هناك تأليفا جميلا عند آن ماري ديلكامبر: «إسلام

**المحرمات»** ـ ونذين للمؤلفة بكتاب رائع عن حياة النبي بعنوان: **«محمد»**.

وعن العلاقات بين **الفاتيكان والذكاء** ـ أي علاقته بالتالي مع الكتب. . ـ :
يجب مراجعة كتاب **جورج مينوى «الكنيسة والعلم؛ تاريخ سوء تفاهم»**؛ وهو كتاب غارق في الوقائع وتائه في التفاصيل (كتاب من مجلدين وقد كان مجلد واحد كافيا)، دونما أي تنظير أو تصور مفاهيمي. ولا يجب ترك **جان ستيمان** في كتابه: **«ريشار سيمون. أصول التفسير الإنجيلي»**. فقد قام ريشار سيمون هذا (القرن ١٧) بإدخال اعتماد الذكاء في قراءة النصوص المقدسة وأغضب بذلك بوسييه والمجامع الكنسية والبندكتين Bénédictins واليسوعيين ومدرسة بول ـ رويال وجامعة السربون والبروتستانت. وهي أسباب كافية لتجعل منه بطلا. . . كما يجب الرجوع إلى كتاب **جان روسي: «العدو اللدود. جيوردانو برونو في مواجهة محاكم التفتيش»**، ويتقدمه تصدير قوي ومنعش جدا لمارك سيلبرنستاين وهو المنشط النشيط لمنشورات «سيليبس» ـ ذات الفكرة المادية المناضلة ـ

# مسيحية

## [١]

### جسد شبح

قصص عيسى تعد بالآلاف طبعا. . بينما تلك التي تنفي وجوده تاريخيا وتختزل هذه الشخصية في بلورة خيال تعد على رؤوس الأصابع. وبطبيعة الحال. . أشهرها تلك التي وقعها **بروسبير الفاريك: «في مدرسة العقل. دراسات في الأصول المسيحية»**؛ ويجب الرجوع بالخصوص إلى فصل **«مسألة**

عيسى. **هل عيسى وجد حقا؟** » الجواب: لا.. ويدافع اليوم راوول فانيغم عن هذا الموقف الذي استعاده لنفسه في كتاب: «**الصمود في وجه المسيحية. الهرطقة منذ الأصول إلى القرن ١٨**»، متحدثا بوضوح بإحدى الصفحات عن «الخرافة الكاثوليكية والرومانية بخصوص وجود عيسى التاريخي»

هناك آخرون يعتقدون فعلا بهذا الوجود التاريخي، لكنهم يقدمون ضمن مؤلفات ضخمة أمورا مستحيلة وغير مؤكدة وغير مرجحة وحقائق مغلوطة من الإنجيل، ويبرزون عجزا كبيرا في الوصول إلى نتائج يقينية تجعلنا نتساءل عما يمنعهم من الانقلاب إلى خندق الناكرين للأمر.. أهو الحذر؟ أم عجز عن تحمل هذا التطرف الأقصى في تقديس الأيقونات؟ أم عدم قدرة على تجاوز التكوين الفكري؟ ـ فأغلبهم طلبة سابقون بالمدارس الدينية تابعوا دروسا لاهوتية معمقة ـ ذلك أن شعرة صغيرة تفصل بين استنتاجهم واستنتاج المغالين في العقلانية.

وهناك كتابا شارل غينيوبر: «عيسى» و«المسيح» اللذان أدين لهما ببعض الأمثلة المذكورة في كتابي للإشارة إلى **غرائب العهد الجديد** ـ خشبة الصليب المزعومة ولغة بيلات.. وقام **جيرار مورديات وجيروم بريور** بتقديم تأليف مختزل لهذا العمل الذي تتممه أعمال حديثة نادرة بعنوان: «**متن المسيح. تحقيق حول كتابة الأناجيل**» وهذا يقع في خمسة مجلدات. وكان موضوعا لسلسلة من الأفلام بلغت اثني عشر فيلما عرضت على قناة Arte وهناك مؤلف جيروم بريور: «**عيسى المشهور وعيسى المجهول**»؛ ومؤلف جيرار مورديات: «**عيسى ضد عيسى**»

[٢]

## جهيض الإله

القديس بولس هو من يقول بذلك... في رسالته الأولى إلى الكورنثيين.

ولمعرفة كل شيء عن نصوص بولس وعن رسائله وأفعاله. . يجب الرجوع للكتاب المقدس. . . والمراجع بهذا الخصوص وفيرة بطبيعة الحال. وهي منحازة دائما. . . كما تعتبر منشورات فايار جدية بهذا الشأن. . كيف لنا أن نفهم كتاب فرانسواز باسليز: «القديس بولس» كله، حينما نقرأ التفصيل الذي يذكره بالفصل المخصص للتحول الذي شهده القديس على طريق دمشق: «إنه (أي القديس بولس) لم يشر أدنى إشارة إلى احتمال إصابته بالعمى»، في الوقت الذي نقرأ في كتاب «أعمال الحواريين»: «وإن كانت عيناه مفتوحتين، فإنه لم يكن يرى شيئا» وذلك لمدة ثلاثة أيام. . .

بهذا الأسلوب التلفزي ـ الذي نحسه عند القراءة ـ يقترف ألان ديكو كتاب: «جهيض الإله. حياة القديس بولس». ولا يخفي المؤرخ وجدانه الكاثوليكي، لكنه أنجز تأليفا نزيها لمنتخبات من النصوص. وبخصوص الأمراض التي نسبت لـ بولس، يتجنب الكاتب القراءات الضرورية ولا يقدم نقدا أو تحفظا أو تأويلا خاصا بل يكتفي فقط بسرد استعراضي.

أما ألان باديوه، الفيلسوف والرياضي اللاكاني lacanien وكاتب الروايات والمسرحيات والمناضل في أقصى اليسار أيضا، فيسر لنا من خلال كتاب: «القديس بولس. بناء النزعة الكونية» باهتمامه ـ المفهوم ـ بمؤسس الدين ومبدع الإمبراطورية. خسارة أن يكون قد تأمل بولس وحده، دون إدراج ما أضافه قسطنطين لجعل الكنيسة الكونية ممكنة. إن الشبح يحتاج لشخص مصاب بالهستيريا حتى يجعل له جسدا، لكن قسطنطين هو من تكلف بتمديد جسد عيسى على طول الإمبراطورية. .

**[٣]**

## رسم صورة العصر

لفهم الأجواء النفسية للطبقات السفلى بالإمبراطورية، وإيمانها بالأسرار

وبالخوارق وبالنبوءات وبالتنجيم، ولفهم دياناتها وانهياراتها وشغفها باللامعقول، يجب مراجعة كتاب إ. دودس **«وثنيون ومسيحيون في عصر قلق»**، وكذلك كتاب ه. إ. مارو: **«تقهقر روماني أم عصور قديمة متأخرة؟»** الذي يبين استمرار العالم القديم في المرحلة المسيحية البدائية. ونقرأ في هذا الكتاب عبارة «الدولة الشمولية للإمبراطورية السفلى». وقد كتب هذا المسيحي ه. إ. مارو H. I. Marrou ـ من بين ما كتب ـ عن **أوغسطين وكليمين السكندري** وتاريخ الكنيسة. وبخصوص بنية ومحتوى الوثنية التي اضطهدها المسيحيون، يجب الرجوع إلى كتاب: **«الوثنية والامبراطورية الرومانية»**، لصاحبه رامسي ماكمولن وكذا مؤلف أ. ج. فيستوجيير: **«الباطنية والصوفية الوثنية»**. ويحكي جيبون ـ نظير ميسلي في إنكلترا ـ قصة العصور القديمة ببهجة حقيقية في كتاب: **«تاريخ انحدار وانهيار الإمبراطورية الرومانية»**.

ولمراجعة عدد ضحايا التعذيب والاضطهاد من المسيحيين، مراجعة تنقص من هذه الأعداد، قبل أن يغدو هم أنفسهم مضطَهِدين، راجع كلود لوبليي: **«الإمبراطورية الرومانية والمسيحية»**. فقد ضخم التاريخ الرسمي الكاثوليكي الأعداد تضخيما لأهداف الدعاية ـ التي تعللها، هنا كما في غيره، نية الدفاع عن العقائد المسيحية.

[٤]

## بخصوص هذا الفظ المهتدي إلى المسيحية

لتكوين صورة عن الطاغية: راجع غي غوتييه: **«قسطنطين. انتصار الصليب»**. لقد اعتنى الكاتب بشرح أطروحة قراءة فلكية ـ أي قراءة دقيقة علميا ـ للتجلي الذي شهده الإمبراطور. ولا يقدم المؤلف تنازلات بهذا الشأن، كما لا يحكمه كره أو مقت: إنه كتاب يضع الأمور في نصابها بوضوح. من الغريب

أن شخصية الإمبراطور الأول الذي اهتدى إلى المسيحية لم تستثر الأقلام الفرنسية. ويبقى الكتاب القديم (١٩٣٢) **لأندريه بيغانيول «الإمبراطور قسطنطين»** خزان إفادات لم ينضب بعد.

وهناك عرض تركيبي ضمن سلسلة "que sais - je? " **لبرتراند لانصول** بعنوان: **«قسطنطين»**؛ وضمن نفس السلسلة، نقرأ باستفادة استمرار عمل الإمبراطور الذي شملته النعمة الإلهية في كتاب **بيير مارافال: «الإمبراطور الجستيني»** l'empereur justinien.

[5]

## الهمجية التخريبية المسيحية

بحثت طويلا عن دلائل اضطهاد المسيحيين للوثنيين؛ لكن العديد من المؤلفات لا تذكر الأمر، وتنكره، بل وتحول أهل السلطة الجدد آنذاك إلى شخصيات متسامحة ومحبوبة ولطيفة وشغوفة بالكتب ومشيدة للمكتبات. . لن أذكر المؤلفات التي تتطرق لأفكار جاهزة، ولعلها الكتب الغالبة. وللعثور على آثار حقيقية للاضطهاد وأحكام الموت وتدمير المعابد والتماثيل والأشجار المقدسة والحرائق، يجب البدء بالكتّاب القدماء: **فجوليان**، بطل الوثنية الذي قاوم تمسيح الإمبراطورية ـ دون جدوى مع الأسف ـ، قد كتب: **«ضد أهل الجليل؛ لعنة على المسيحية»**؛ كما كتب حامل آخر لراية الوثنية، هو **كريستوف جيرار**، كتاب: **«ضد المسيحيين»** الذي أتلف هو أيضا؛ لكن **أوريجين**، الذي كتب يدحض ما في هذا الكتاب الأخير فأكثر من الاستشهاد به حتى مكن من إنقاذ الأهم في هذا النص! ويذكر **لويس روجييه في كتابه: «سَلْسْ ضد المسيحيين»**، الهمجية التخريبية المسيحية. أما **كتاب بروفير: «ضد المسيحيين»**، فقد التهمته النيران ـ تلك خسارة كبرى؛ ولا ندري ما كان عليه

هذا المؤلف ـ. وأخيرا هناك نص ليبانيوس، «ضد تهديم المعابد الوثنية»، الموجه إلى الإمبراطور تيودور الأول، وهو يوجد ضمن كتاب أندريه بيغانيول المذكور أعلاه..

يجب كذلك مراجعة كتاب ماتيرنوس فيرميكوس: «خطيئة الديانات الوثنية»، وكتاب سوزومين وسقراط وتيودوري: «التاريخ الثلاثي للكنيسة»؛ وكتابي لور شوفيل ـ الذي أشكره على مساعدتي بالمكتبة ـ وجان كريسوستوم: «عظة بخصوص التماثيل»، ضمن كتاب روبير جولي: «أصول التعصب الكاثوليكي وتطوره»؛ وتفصل هذه النصوص النصب والاختلاس المسيحي؛ وغريب أن المؤرخين لا يستغلون اشتغالهم ليبينوا كيف بنيت المسيحية: أي من خلال القوة والدم والسيف والترهيب.

وعند مراجعة كتاب «القانون التيودوزي»، نجد أن الفصول ١٦ و٩ تبرر كل الشطط المسيحي ضد الوثنيين: من حكم الموت، ومصادرة للأموال وخشونة بوليسية، وخلق مواطنين لا يحميهم القانون، ممنوعين من كل أهلية قانونية أو شخصية لحماية أنفسهم.. وهو نموذج للقانون الأسود اللاحق وللقوانين المعادية للسامية عند حكومة فيشي: كيف يمكن للحق أن يصدر قانونا ينكر جزأً من المجتمع ـ بالأمس البعيد كان الوثنيون، وبالأمس القريب كان السود واليهود...

وحول هذا الشطط، نجد فقرات عند بيير شيفان في: «مذكرات آخر الوثنيين. اختفاء المذهب الوثني في الإمبراطورية الرومانية من حكم قسطنطين حتى حكم جيستينيان»؛ وهناك أيضا كتاب بيير دولابريول: «رد الفعل الوثني. دراسة حول الجدال المعادي للمسيحية من القرن الأول إلى القرن السادس»، وكذا كتاب روبان لان فوكس: «الوثنيون والمسيحيون؛ الدين والحياة الدينية

داخل الإمبراطورية الرومانية، منذ موت كومود وحتى مجمع نيسي»ـ وهي كتب تنقذ ماء وجه المهنة التي أجمعت على الصمت بخصوص النزعة الهمجية التخريبية في المسيحية.

[٦]

## عجينة مؤلفات آباء الكنيسة

صارت الفلسفة مع المسيحية خادمة لعلم اللاهوت، فيما صار اختصاص هذا الأخير الشرح والتأويل؛ فغدا التفلسف شرحا لنصوص الإنجيل ومجادلة في تفاصيل تافهة، من خلال ابتداع عالم من المجردات الخالصة ومن المفاهيم البعيدة عن الواقع. وحين لا يكون الأمر كذلك، يقوم كتّاب مؤلفات آباء الكنيسة الإغريقية والرومانية بتشييد عالم أخلاق للنموذج الزاهد الذي تتسلط عليه أفكار كره الجسد والرغبات والأهواء والنزوات ومديح العزوبة والعفة وطهارة النفس.

ونجد مدخلا جيدا لهذه الأسماء ولهذا المنهج في كتاب مونديزير: «من أجل قراءة آباء الكنيسة في المصادر المسيحية»، وكذلك عند جان إيف لولو: «مدخل إلى (الفلاسفة الحقيقيين). الآباء الإغريقيون: قارة منسية في الفكر الغربي». إنهم بالفعل يعتبرون أنفسهم (الفلاسفة الحقيقيين)، لكن الجهل بأسمائهم ونصوصهم لا يضاهيه إلا انتشارهم الفعلي والثابت في الحياة اليومية منذ قرون. نحن نعيش داخل جسد مسيحي من صنعهم...

# الثيوقراطية: الحكم باسم الله

[١]

## نزعات شمولية وفاشية وأشكال همجية أخرى

لا يمكن بطبيعة الحال تجنب عمل «هاناه آرنت» بخصوص الموضوع: «أصول النزعة الشمولية»؛ ثم كتاب إيميلو جنتيل: «ما الفاشية؟ »، بينما عنوانه الأصلي بالإيطالية: «الفاشية: تاريخ وتفسير». . . .

وهناك الكتاب الرائع والمنذر لجان غرونييه: «مقال في روح الأرثوذوكسية»، الذي يقدم كل ما يجب معرفته بخصوص الموضوع والذي سيكتشفه الفلاسفة الجدد بعد أربعين سنة من ذلك من خلال النازية وهيروشيما وأحداث ١٩٦٨ ـ دونما أن يذكروه أبدا بحق. . وثمة قراءات ضرورية أخرى لكتب كارل بوبر: «المجتمع المنفتح وأعداؤه» (الجزء الأول) و«سطوة أفلاطون» (الجزء الثاني)، و«هيغل وماركس» (الجزء الثالث). وهنا أيضا يحيل الغلاف الأخير على الفلاسفة الجدد. . .

[٢]

## أصناف رعب نوعية:

راجع كتاب إيف شارل زاركا وسينتيا فلوري: «التسامح الصعب» وذلك لتتأمل التحليل المقنع عند سينتيا فلوري الذي يفيد «أنه لا يوجد في الإسلام مقابل حقيقي للتسامح»، ويبين ذلك من خلال إثباتات وجيهة بخصوص مبدأ الذمية. لكن مفهوم «بنية ـ التسامح» عند إيف شارل ليس مقنعا بحق. راجع كذلك كريستيان دولاكومبانيي: «الإسلام والغرب، أسباب الخلاف» الذي

يحتوي تحليلا ينتهي إلى النجاح العسكري والسياسي للأمريكان بالعراق. . .
وهو يعتبر مثالا جيدا عن خطابة المثقفين الفرنسيين ولنتائجهم المعتادة. .
وندين للكاتب ذاته بتوليفين تطبيقيين مختصرين: **«تاريخ للعنصرية»** و**«تاريخ للاستعباد»**، وهما يتضمنان تفحصا مختصرا وسريعا للاستعباد، وللعهد القديم، ثم للمسيحية. ونحن نفضل كتاب بيتر غارنسي: **«تصورات الاستعباد منذ أرسطو حتى القديس أوغسطين»**. وبخصوص الاستعمار يعتبر كتاب لويس صالا مولينس: **«القانون الأسود وعذابات كنعان»** عملا ضروريا ولا يمكن مضاهاته ـ وهو كتاب مروع للكنيسة والملكية الفرنسية وللغرب. . .

هام جدا الكتيب المكثف المعنون بـ **«الشريعة والغرب» لجان بول شارناي**، المتخصص في الإستراتيجية، ؛ ثم له أيضا كتاب: **«الإسلام والحرب. من الحرب العادلة إلى الثورة المقدسة»**، وكذا الجزء الثالث من مجلد: **«النماذج التقليدية للإستراتيجية؛ مبادئ الإستراتيجية العربية»**. ويتصور فيه بحذر شديد احتمال تحقق فرضية تغير الإسلام خلال قرون عديدة. . .

**أما مالك شبل**، فيطرح بهدف تسريع العملية وعدم انتظار عشرة قرون: **«بيان من أجل إسلام الأنوار؛ سبعة وعشرون مقترحا لإصلاح الإسلام»**. باختصار: لو لم يكن الإسلام هو الإسلام، لكان الدفاع عنه أكثر يسرا! ما سيكونه إسلام مدافع عن المرأة؟ وإسلام ديمقراطي؟ وإسلام فرداني؟ علماني؟ ومؤمن بالمساواة؟ ومتسامح؟ وقابل بلعبة الحياة؟. إلخ. . ألن يكون عكس ما هو عليه في أساسه؟. . فأمر الدفاع عن فضائل الغرب لا يحتاج إلى استدعاء كتاب وسنة نبي يستنكرانها دائما: إن الإكثار من الرجوع إلى القرآن والحديث يبدو الأفضل لتحقيق مشروع أنوار مالك شبل!.

[٣]

## جرائم المسيحية الشنعاء

راجع جورج مينوا في كتاب: «**الكنيسة والحرب؛ من الإنجيل إلى عصر الذرة**»؛ كتاب طويل بعض الشيء، مطنب أحيانا، يتيه في التفاصيل وينقصه التحليل، مرتبط بالوقائع، بل قل إنه ينحاز قليلا بين الحين والحين. لا يذكر شيئا عن مباركة الأب جورج زابيلكا للطائرة القادفة «إينولا غاي»، التي دمرت هيروشيما. وقد عثرت على هذا التفصيل عند تيودور مونو في كتاب: «**الباحث عن المطلق**»؛ كما أخذت عنه أن الكنيسة الكاثوليكية لم تتخل عن «السيديا» ـ أي الكرسي الملكي والبابوي المحمول على ظهر إنسان ـ إلا مع يوحنا الثالث عشر فقط. . .

وعن الاستعمار، نراجع كتاب «**الإنجيل والاستعمار. نقد استخدام النص المقدس كوسيلة**» للكاهن ميكاييل بريور، الذي تكون عند اللعازاريين. إن مسائل الاستعمار والاستعباد وتجارة الزنوج التي مارسها المسلمون لم تنتج إلا القليل من الأعمال؛ راجع في هذا الخصوص كتاب: «**تجار العبيد في أرض الإسلام. أول سوق نخاسة للسود بين القرنين السابع والسادس عشر**»، لصاحبه جاك هييرس وهو يقدم تعليلاته لشرح هذا المسكوت عنه في التاريخ الذي يضعه صوب عينه من خلال تلك الموهبة الفرنسية في معاقبة الذات والتشهير بها.

بخصوص رواندا، يجب مراجعة جان دامسكين بيزيمانا في: «**الكنيسة والتصفية العرقية برواندا. الآباء البيض ومبدأ الإنكار**». خسارة أن لا يكون العمل التحريري لدار نشر الكتاب (l'Harmattan) يتم بنزاهة وضمير؛ فبعض الأخطاء المتعلقة بالأحداث التي نجدها هنا وهناك يمكن استعمالها ـ دون حق

ـ لإبطال الأطروحات الصائبة للمؤلفين. ويجب كذلك مراجعة الكتاب المتقن: **«فصل أغلال» لجان هاتزفلد** ـ وهو عمل رائع يضاهي مؤلفات **بريمو ليفي وروبير أنتيلم**. وراجع بالخصوص فصل: **«فهل قال الله كل هذا؟»**. وكذا مؤلف الكاتب نفسه: **«في عراء الحياة: قصص مستنقعات رواندا»**.

تاريخ التفتيش أعطى كتبا عديدة منها: **«مختصر تاريخ التفتيش في إسبانيا» لجوزيف بيريز**. وكذلك الأمر بالنسبة للحروب الصليبية حيث ينصح بمراجعة المجلدات الأربعة لـ **«أسطورة الحروب الصليبية»** لصاحبها **ألبير دوبلون**. وبخصوص علاقات المسيحيين والمسلمين، يجب الرجوع إلى **جون طولان** في كتابه: **«العرب المغاربة»**

## [٤]

## الصليب المعقوف وصليب المسيح

لقد اطلعنا كلنا على العلاقات المبرمة بين الفاتيكان والحزب النازي منذ أعمال **ساول فريلاندر**: **«البابا بيوس الثاني عشر والرايخ الثالث»** و**دانيال جوناه غولداغن**: **«واجب الأخلاق: دور الكنيسة المسيحية في الهولوكوست وواجب التوبة المتروك»**. وهو كتاب لا يمكن تفاديه. ويصعب على الكنيسة تقديم رد على كل تلك الوقائع المحققة وعلى المواقف المعلنة والتحاليل المقدمة...

لكن معرفتنا أقل بدفاع هتلر عن يسوع والمسيح وعن المسيحية والكنيسة.. قراءة كتابه **«كفاحي»** تكفي لملاحظة افتتان **الفوهرر بعيسى** وهو يطرد التجار من المعبد، وبالكنيسة وهي مقتدرة على بناء حضارة أوروبية، بل حتى كونية. النص موجود، لكن من يقرأ هذا الكتاب الذي يتحدث عنه الجميع دون أن يكونوا قد فتحوه يوما؟

أقوال هتلر تتأكد من خلال أحاديث حياته الخاصة. وتروي لنا **ألبير سبيير**،

على سبيل المثال، تعلق مستشار الرايخ بالمسيحية وبكنيستها وأسفه لعدم وجود محاور من المستوى العالي على رأس الكنيسة، يمكنه أن يتصور معه «جعل الكنيسة الإنجيلية الكنيسة الرسمية». راجع كتاب: «في قلب الرايخ الثالث»

[٥]

## الصهيونية: واجهة وكواليس

لا يمكن للمشروع الصهيوني لتيودور هرتزل أن يعدم إثارة اهتمام القارئ المعاصر؛ ففي كتاب «الدولة اليهودية» نكتشف أن فلسطين ليست فكرة ثابتة، بل إن الكاتب يؤكد أن الأرجنتين قد تكون مناسبة أيضا؛ وأن عليهم قبول ما يقدم لهم. أما النموذج الاجتماعي فإنه ممتاز: وقت العمل ـ سبع ساعات لليوم ـ، تنظيم ودستور ولغة ـ ليست العبرية بل كل اللغات وستبرز إحداها ـ، تشريع وعلَم أبيض به سبع نجمات ذهبية ـ وجيش احترافي يقيم في الثكنات ـ، وهل هناك حكم ثيوقراطي؟ لا أبدا: يحظر على رجال الدين الاهتمام بالشأن العام ـ، وفي موضوع التسامح ـ هناك حرية الاعتقاد والعبادة. وبخصوص امتلاك الأرض: لا يكون الأمر عبر غزو عنيف، بل من خلال شراء الأراضي المعروضة للمزاد. كل هذا يبدو مثاليا. لكن، لماذا يتم الصمت عن مذكراته اليومية؟ وبالخصوص يومية ١٢ يونيه ١٨٩٥ حيث يقول: «علينا أن نقوم في هدوء باستملاك الملكيات الخاصة فوق الأراضي التي ستمنح لنا. وسنحاول بكتمان إرسال الساكنة الفقيرة إلى البلدان المجاورة، من خلال تمكينهم من العمل في بلدان العبور والحيلولة دون تمكينهم من العمل عندنا. سيصير الملاكون بجانبنا. . » استشهد به ميكاييل بريور في الكتاب المذكور أعلاه.

[٦]

### الفلسفة وآية اللّٰه

كتاب الإمام الخميني **«الوصية السياسية ـ الروحية»** وهو كتاب مبادئ لكل حكومة إسلامية ولكل حكم ثيوقراطي إسلامي. قراءته ضرورية وبتعمق. . .

علق ميشيل فوكو على الثورة الإسلامية في سلسلة مقالات طلبتها صحيفة **«لاكوريبري دي لا سيرا»** الايطالية. وقد أعيد نشرها ضمن كتاب: **«أقوال وكتابات»**، في الجزء الثالث. ولا يمكن عدم الانتباه إلى الصفحات التي خصصها للإمام الخميني باعتباره أمل الشعب الإيراني، وكذا لعودة الوحي إلى السياسة ـ وهو ما يبدو مصدر ابتهاج عنده ـ، ولاختفاء نظام بغيض يعرف عنه الكثير، وكذلك لنشوء مقاومة للكونية من خلال الإسلام ـ وهو في هذه الصفحات يفترض الرهانات المستقبلية.

هذه الصفحات تستحق ما هو أحسن من الجدال: فوكو الأعمى/ فوكو البصير؛ فوكو عميل آية الله / فوكو القادر على أن لا يخطئ. فأن يكون هذا الذي كان في ذات السنة يشتغل بكوليج دو فرانس على ميلاد السلطة الحيوية، ويبرع في تحليل النصوص، يتيه في ذات الوقت في تحليل الأحداث؛ فهذا هو ما يهم تاريخ الفلسفة. ويمكن قراءة نصه الشهير المعنون: **«روبورتاجات أفكار»** بعين مختلفة.

[٧]

### علمانية ما بعد ـ مسيحية

بخصوص تاريخ تلك الحركات الرائدة للعلمانية عبر التاريخ، يجب مراجعة كتاب جاكلين لالوييت: **«التفكير الحر في فرنسا»**. وهو خلاصة أنجزتها مؤرخة تنقل إلى علم الجمهور عددا هائلا من الأحداث بخصوص المسألة.

وانطلاقا من هذا الكتاب يصير ممكنا التفكير في علمانية أفيد لمواجهة رهانات القرن الواحد والعشرين، والتي لم تعد هي الرهانات الوطنية في النضال من أجل فصل الكنيسة عن الدولة. فما زال هناك عمل يجب إنجازه ـ وقد صار كونيا . .

وهنا تكمن أهمية فكر علماني بعد ـ حداثي، وبالتالي بعد ـ مسيحي. من بين الكتب الانتهازية في الموضوع، نجد الكتاب التركيبي لهنري بينا ـ رويز: «ما العلمانية؟ ». وهو ينحاز لتعريف الجمهورية الثالثة لها، أي كحياد متسامح، ويدافع الكاتب مع ذلك عن فكرة أن العلمانية هي كذلك قيم جمهورية وسياسة عدالة اجتماعية وفضاء عمومي حقيقي. ولا نفهم كيف يمكنه الدفاع عن هذه القيم وعن ديانة التوحيد التي تخالفها جوهريا. كما أن تحليله الصائب للطوائف السرية التي يقصيها عن مجال التسامح العلماني و«للمشعوذين الذين يعدون الناس بالسعادة بمقابل زهيد ويحاولون إخضاع الناس لعبودية مطلب يكاد يكون صبيانيا إذ يلتمس الوصفات والحلول الجاهزة» ـ وهو تعريف يبدو لي يوافق تماما كل الديانات ـ يحتاج هذا التحليل إلى تفصيل أكبر. وهو ما يفترض أن يساهم بقوة في تقديم تعريف لعلمانية بعد ـ حداثية!



# المحتويات



## الجزء الأول

## مبحث نفي اللاهوت

## الجزء الثاني

## ديانات توحيدية

## الجزء الثالث

## المسيحية

## الجزء الرابع

## الثيوقراطية: الحكم باسم اللّٰه



# هذا الكتاب

لقد بدأ القرن الواحد والعشرون بصراع لا يعرف الرحمة. ويوجد على الجبهة الأولى «الغرب اليهودي ـ المسيحي الليبرالي ـ بالمفهوم الاقتصادي للمصطلح ـ، صاحب التجارة المتوحشة والاستهلاك الذي لا يعرف الخجل، والمنتج لبضائع مزيفة، والذي لا يعرف فضيلة، ذلك العالم العدمي حتى الأمعاء الذي لا يعرف دينا ولا قانونا، القوي على الضعفاء والضعيف أمام الأقوياء، المحتال المتسم بالمكر والنفاق مع الكل، والمفتتن بالمال والربح والعابد الساجد للذهب، ضامن كل سلطان ومولد كل أشكال الهيمنة ـ على الأرواح والأجساد. وبناء على هذا النظام، فهناك حرية نظرية للجميع، إلا أنها في الواقع حرية لحفنة قليلة جدا فقط بينما يغرق الآخرون، أي الغالبية العظمى، في أوحال البؤس والفقر والإذلال.

